المجموعة الكاملة

قصص قصيرة

الكاتب

عباس مدحت البياتي

الجزء الثاني

المجموعة الكاملة

الجزء الثاني

عباس

مدحت

البياتي

المضمون

1. 35 القطة
2. 36 القوقعة
3. -37 الفندق
4. -38 العقربة
5. -39 الكرونا..
6. -40 الزنبقة
7. 41 زيارة طبيب
8. -42 البار
9. -43 باقة ورد....
10. -44 لسعة نحلة...
11. 45 مجرد لقاء
12. -46 عواصف الشتاء....
13. -47 مريم ...
14. -48 كرستال.
15. -49 العاشق والكلب...
16. -50 الدنيء...
17. -51 الفراشة..
18. -52 الصورة..
19. -53 فسفساء العقد
20. -54 آخر المشوار
21. -55 زيارة صديق
22. -56 مكتب السفريات
23. -57 القدر ..
24. -58 الكوب .....
25. -59 الكرة
26. -60 الانتقام ...
27. -61 الجوهرة...
28. - 62 قبل ان تبدأ الحصة
29. -63 مباراة العراق وايران
30. -66 سجين التذكرة
31. -67 المارجيوانا
32. -68 مفتاح الظهيرة
33. -69 صياد النساء
34. -70 فصيل الاستطلاع
35. -71 رصيف الانتظار
36. -72 عين الصقر
37. -73 على ظهر الضوء
38. -74 طريق الجحيم
39. -75 جمرات البرد
40. -76 النار والصقيع

41. 77- الكابوس
42. 78- غشاء القارب
43. 79- رماد اللافندر
44. 80- حين تكلم الصمت
45. 81 - في ظل الغربة
46. 82- ظل نغمة ضائعة
47. 83- شمعة لا تنطفئ
48. 84- بين الرمل والنار
49. 85- ركن القمامة
50. 86- وشم الحقيقة
51. 87- ركن القمامة
52. 88- فتاة الكافتيرية
53. 89- عهد الغروب
54. 90- نبوءة الرماد
55. 91- حجر القمر
56. 92- ظل القمر
57. 94- لحظة الأمان
58. 95- ساعة اليقين
59. 96- حين أيقن البرق الحقيقة
60. 97 -اختبار الرياضيات
61. 98- فتاة الكافتيرية
62. 99- عهد الغروب
63. 100- نبوءة الرماد
64. 101- حجر القمر
65. 102- أمينة
66. 103- ظل القمر
67. 104- لحظة الأمان
68. 105 - ساعة اليقين
69. 106- حين أيقن البرق الحقيقة
70. 107- اختبار الرياضيات
71. 108- بطاقة السكن
72. 109- مصباح الطريق
73. 110- همسات شريط الاختبار
74. 111- الدكتورة بان

1

أهداء

المجموعـة الكاملـة الجـزء الثـاني - إهـداء إلـى مـن كانـت الكلمـة لهـم وطنًـا، والحـرف لهـم نبضًـا، إلـى أولئـك الـذين آمنـوا بـأن الفكـر لا يُحـدّ، وأن الإبـداع لا يُقيـد، أهـدي هـذا العمـل، "المجموعـة الكاملـة"، ثمـرة سـنوات مـن التأمـل، والبحـث، والكتابـة، لكـل مـن وجـد نفسـه بـين السـطور، أو ضـاع فيهـا ليجـد ذاتـه مـن جديـد. إلـى القـارئ الـذي يمـنح الـنص حيـاة جديـدة كلمـا قـرأه، وإلـى الحلـم الـذي لـم يفقـد بريقـه رغم كل العتمات.

الكاتب عباس مدحت البياتي

مجموعة زيارة طبيب

1- القطة ....
2- القوقعة........
3- الفندق..
4- العقربة
5- الكرونا......
6- الزنبقة........
7- زيارة طبيب
8- البار
9- باقة ورد...
10- لسعة نحلة.....
11- مجرد لقاء......
12- عواصف الشتاء

قطة السفر

كنتُ قد أنهيتُ لتوّي إجراءات تصديق جواز خروجي من مطار أبوظبي، وذلك بختم الجواز بختم إذن المغادرة، وكان ذلك في يوم السبت المصادف 2015/9/20. اتجهتُ إلى صالة الانتظار، وجلستُ في أحد جوانبها على كرسيٍ خشبيٍ منفرد، منجّدٍ بأجود الخامات، منتظرًا لحظة ولوجي إلى داخل الطائرة. وما إن مرت الدقائق، حتى اكتظت الصالة الواسعة بالمسافرين، ولشدة الزحام امتلأت الكنبات والكراسي عن بكرة أبيها، بحيث نادرًا ما تجد فيها كرسيًا أو مقعدًا شاغرًا.

كان المنظر، إلى جانب السجدة الأخيرة التي يختلج بها السفر، هميمًا من وجهة نظري، دبقًا، ثقيلًا، تراخى فيه صمتٌ مدقع، أوطن مخالب الشك في أدمة الذاكرة، وأصاب رقائق الصبر بصدى العناء والملل، نتيجة فراقي لغاليتي، حبيبتي، وزوجتي. لحظات صمتٍ وسكونٍ حملت في أسفارها الكثير من الغيض والفيض، اهتز لها العقل والبدن، وشطّت الروح عن الفكرة، حتى صرتُ أهجس بذاتي تهرب من ذاتي إلى حيث التيه والخواء، تحتضر، وفي ظني وضميري يخفق هاجس غياب الحبيبة. حينها سهوتُ في أتون الفكرة التي أبغي تطبيقها دون إرادة مني، ألا وهي البحث عن مأوى جديرٍ يلمّنا، عن استقرارٍ في جوف الغربة...

بتُّ أعيش صراعًا بين واقعي التعيس وحلمي الرغيد الذي أتأمله، وقد وجدتُ دوافع داخلية تشجعني على تجاوز عقدة السفر بشيءٍ من التضحية والنسيان وعدم المبالاة، لتأمين خط المستقبل الذي أراه قد انقطع دابره في وطني، وأضحى خطًا أجوف، دميمًا، لذا بتُّ أبحث عن بديلٍ له في جوف غابةٍ مجهولة من الغربة.

وأنا في تلك الحيرة من أمري، كان قد شطّ الذهن بين تلك الوجوه المارقة أمامي ووجه زوجتي التي كنتُ قد فارقتها قبل سويعاتٍ فقط، إذعانًا لصوت الغد والمستقبل الذي بات يصرخ في دواخلنا، إضافةً إلى القلق الذي اعترى ذهني بسبب سوء أوضاع الوطن، دون إمكانية العودة إليه، على الأقل في الزمن القريب.

ذلك القلق أرعبني، أصبح له مخالب ذعر، صار كجرس الجداء معلّقٍ في عنقي، يذكرني بأمسي، ويحذرني دون أن يهدأ ضجيجه... هكذا لاعت أذنيّ جلجلة صداه، وأضحى لذلك الصوت لثغة في النفس واللسان، أغشاني بالوعثاء والعناء والقلق وعدم الاستقرار، حتى وأنا أعيش خارج الوطن.

حينها كنتُ قد حجزتُ تذكرة سفرٍ على متن طائرة الإيرباص إلى إسطنبول، والمحددة كرسيها بمقعدٍ برقم 23 من المقاعد العامة، والذي موضعه يتوسط الطائرة، قرب النافذة من جهة القلب.

وأنـا جـالس فـي تلـك القاعـة، لمحـت سـيدة ثلاثينيـة، رشـيقة، فاتنـة، جذابـة، تتنقـل بخفـة بـين أرجـاء الصـالة، تهجس بهـا شـبقة، غـرة، مغنجـة بالسـحر مـن رأسـها حتـى أخمـص قـدميها. بمفاتنهـا، هجست بها نسخة كربونية طبق الأصل من زوجتي.

بطلتهـا ومفاتنهـا، ضـاهت فتنـة زوجتـي مـن حيـث الشـكل والقـوام، فلفتـت انتبـاهي مـن بـين جميـع النسـوة اللاتـي دخلـن الصـالة دون قصـد. لأناقتهـا وحسـن قوامهـا، اسـتقطبت أنظـار الجميـع؛ حتـى خلتهـا زوجتـي، لمـا بينهمـا مـن شـبه كبيـر وتناسـق مبهـر فـي الهيئـة واللباس، وحتى في قسمات الوجه والسن.

شـغلت تلـك السـيدة كرسـياً قبـالتي، فحفـزت فـي نفسـي شـعوراً بالاهتمـام، وكأنهـا الوحيـدة التـي ستسـافر معـي فـي الطـائرة. صـببت جـام همـي وقلقـي وولعـي فـي كـأس فتنتهـا، حتـى أوهنـت مشـاعري بأنهـا زوجتـي، فزادنـي ذلـك إرباكـاً ووهنـاً وإلحاحـاً فـي معرفـة هويتهـا. أغـدقت فـي متابعـة سـطوع ذلـك الألـق بتركيـز مفعـم بزهـدٍ مبـالغ فيـه، حتـى حفظـت جـلّ ملامحهـا وثـراء مفاتنهـا عن ظهر قلب.

هجسـت بـذاتي أننـي ارتقيـت سـلم مشـاعرها وهـي تتصـفح صـحفها المغنجـة بالفتنـة، بشـيء مـن الرغبـة والتأمـل. ومـع إلحـاحي السـليط، شـدت انتباههـا، وكأنهـا رقـت لملاطفتـي ومشاكسـتي، وكأنهـا التقـت نظيرهـا، جـراء الوحـدة والغربـة التـي شـغلتنا. فباتت بين الحين والآخر تمحقني بنظرات خجولة، فيها "إنَّ".

من أول وهلة، مع دخولها الصالة، سحرتني بمفاتنها، وجعلتني أقارنها بقرينتي. خلتها هي ذاتها التي تركتها في البيت، قابعة بين جدران الوحدة والتأمل قبيل سويعات من الآن. للشبه الكبير الذي تطابق في اللبس والأناقة وتقاسيم الجسد والجاذبية المنبثة من قوامها الرشيق، تملكت مشاعري دون غيرها من النسوة، ودون إرادة مني.

خلتها جاءت تتعقب هوسي لتودعني، وكأن روحها تقمصت روح هذه الفاتنة لتتجسس على سلوكي وطيشي ونزواتي حتى وأنا بعيد عنها. هجست بها قرينة زوجتي، تلبستها كجنية، تلبست زوجتي، تلك التي صورتها تدور في مخيلتي بمرافق الوجوه التي أقابلها، حيث المرأة تبقى مرآة ذاتها وكيانها، متعلقة بروح زوجها وإن غاب عنها زمناً ما.

هكذا بدت لي روحها هفهافة تدور حولي، وأنا أحاول قضم تفاحة فتنتها المعلقة بشجرة ذاكرتي وهوسي ومخيلتي، لتخرجني من لجاجة غروري ونار حماقتي إلى جنتها الواسعة... هكذا وسوس لي الشيطان، وعسى أن تأخذ بيدي تلك الفاتنة إلى باحة جنتها الشيطانية، تعوضني فقدان زوجتي.

خلتها سمكة ترغ في شطآن صمتي، وعلى مرأى من عيني، وبمحيط قلبي، فتتبعت مسارها علناً، علني أصطادها، علها تنقذني من تهيؤاتي وتيهاني وانشغالي بفكرة السفر والحلم الذي أبغي نيله.

هجست بها وقد حلت على رأسي كمطرقة حداد، سرقتني من نزاهتي ووجاهتي إلى عالمها الداني، وتركتني أتطفل على

أغصـــان مفاتنهـــا، وفــي فــلاة ســحرها، كقشــة أشــتط بهــا ذاتــي مــن بــين ثنايــا وخبايــا أرجائهــا وأشــواكها، أســوم نفســي لعالمهــا الــداني بمــا لــي مــن قيمــة ورجولــة وديــن. كــأني بــذلك أدلــق عــالم الــود فــي أحضان زوجتي.

مالــت نيتــي لمحاولــة جمــع ثــروة مفــاتن تلــك الجميلــة مــن جهــة، والحفــاظ علــى ســفر التكــوين العــائلي المبجــل مــن جهــة أخــرى، علنـــي أعبـــر مجـــاز الغربـــة والعُقـــد، بحثـــاً عـــن وهـــدة اســـتقرار وراحة تجمعني بزوجتي.

مــا إن جلســت قبــالتي، حتــى هيجــت مواجــع القلــب بفــراق الحبيبــة، وجنحــت الــروح إلــى أتــون الــذاكرة، إلــى مهــاجع الــود والطيبــة، إلـــى الشـــهقة واللهفـــة، إلـــى تنهـــدات الـــروح ونبـــذ عقـــد الـــوطن ومداهنـــة جوائـــه. صـــارت تثيـــر فـــي الوســـط ريـــاح الـــود، تريـــق مؤثراتهـــا فـــي صـــحن الانتمـــاء، وغـــدت تمـــيس هـــاجس الأســـرة بشكل مباشر، سواء أبينا أم رضينا.

جنحـــت لتلـــك الأماســـي مـــن الصـــمت والهـــدوء والرجـــاء التـــي جمعتنــا علــى ســفرة الألفــة والــوداد، إلــى الضــحكة والنكتــة والنــزوة والشــك والعنــاد والعكــرات؛ نتيجــة ولعــي وجنــوني بهــا، وتعلقــي بســر تلــك الأصــفاد مــن الســحر والأوتــاد التــي جمعتنــا، حتــى فــي مشـــاكلنا ونزاعاتنـــا وعركاتنـــا. أهجـــس بهـــا متجـــذرة بأنفاســـي، متعشـــقة فـــي مســـامات جســـدي وذاكرتـــي، ذائبـــة بروحـــي، لـــن تفارق وجدي إطلاقاً ولو قيدتنا الشدائد.

ذلـك مـا دفعنـي أن ألـوك ملعقـة الـود بكـأس تلـك الفاتنـة، وجـدت روحـــي تمتطـــي روحهـــا، وكـــأني أُهـــامس روح زوجتـــي. بـــدت النظـرات تنغـرز بسـحر مفاتنهـا، أطرافـي تحـيط خصـرها، دخلـت فـي متاهـة الشـك وأنـا أركـب مركـب الخيـال، بـل هجسـت بهـا وقـد دخلـت فـي صـلب أحلامـي، طافـت فـي فكـري، بـتُّ أتبعهـا كطفـل يتبـع فراشـة فـي جنينـة، عسـى أن أجـد فـي فتنتهـا حـلاوة فـاتنتي، أن أوقـد فتائـل صـبابتها ببريـق مـن قبسـي، لأرتـع بعذوبـة غنجهـا وديبـاج أهوائهـا وقفطـان روحهـا، بـتُّ أعـرك ذاتـي فـي خضـم تلـك الوقائع التي جذبتني لسرائرها.

وأنـــا أحـــاول أن أرغ ولعـــي بكـــأس فتنتهـــا، كانـــت قـــد أصـــابت وجـدي بسـهامها، هجسـت بهـا تلاحقنـي سـرًا بمفاتنهـا قبـل أن أخطـو خطـوةً تجاههـا. مـن خـلال نظراتهـا التـي أزفّـت، تحـوك غايتهـا بـين أحـداقها، التمسـت مقصـدها، وكـأن روح زوجتـي هـي التـــي تتبعنـــي بعـــد أن غشـــيت بروحهـــا. كأنهـــا أطرقـــت أذنـــيّ بصخب ذلك الصمت الدائر بيننا.

بـذلك العنـاء المقسـوم بيننـا، جعلتنـي أسـرح فـي فـيض ذلـك الألـق المشـع مـن وجههـا، وبالجاذبيـة المراقـة فـي ملامحهـا، والمـراءة فـــي تقاســـيم جســـدها، بشـــيء مـــن العجـــب والتحـــدي. للتنـــاص الواضـح والتوافـق الحاصـل بـين فتنتهـا وفتنـة زوجتـي، وبـذات القيـاس والبهـاء، حتـى أنـي هجسـت بـذاتي مأسـورًا بفتنـة زوجتـي دون شك.

وددت التقـــرب مـــن تلـــك القطـــة الشـــيرازية الأليفـــة، النـــادرة، المشـبعة بالأنوثـة وجميـل الطلـة، بـتّ أبحـث عـن فرصـة تقربنـي

منهـا، تقحمنـي فـي مجـرى أهوائهـا ومحادثتهـا، لغـرض تسـليك الوقـت القـادم، والبحـث عـن سـر لغـز الشـبه الحاصـل بينهـا وبـين زوجتـي مـن جهـة، ودرجـة انحـراف ذهنـي فـي متاهـة تلـك الفاتنـة من جهة أخرى.

مـع شـذوذ فكـري، كنـت أتحـزب بآيـات مـن القـرآن، عسـى أن أتخطى مشواري التلاقي بسلام.

تركـت عينـي تتلصـص محيطهـا، بمـا يشـغلها، تسـتقطب الفـرص المتدحرجـة أمـامي، بشـيء مـن الرغبـة والأناقـة والعبثيـة. فلسـت ربيبـا فـي تجربتـي، ولا حاذقًـا بمعـزل عـن النـاس المحيطـة بـي، ولكـن بشـيء مـن البلاهـة والحماقـة التـي ركبتنـي، عسـى أن تسـنح لـي فرصـة حقيقيـة للتعـرف عليهـا، لأعشـق غـايتي بتلابيـب ديباجها.

كانـت تجلـس إلـى جانبهـا امـرأة عجـوز شـمطاء مـن جهـة الشـمال، ورجـل أربعينـي أصـلع، يرتـدي بدلـة رماديـة ونظـارات سـوداء، قابعٌ يمينها، كأنه رجل مصدور.

لـم تكـن لهـا صـلة بهمـا، لـذا تركـت أحـداقي تحلـق فـي فضـاء تلـك الفاتنـة بكيفيـة. ولكسـر حـاجز الجمـود الحـائل بيننـا، تركتهـا تخـزر ملامحهـا، وتفاصـل جسـدها بشـيء مـن الشراسـة والعبـث دون حيـاء، حتـى أنـي تعجبـت كثيـرًا مـن جرأتـي التـي ماجـت فـي حقـل مفاتنهـا كجـدول يشـتط طريقـه، دون أن أعيـر اهتمامًـا لمحيطـي من البشر.

وأنـا فـي تلـك اللحظـة الرعنـاء مـن العنـاء الـذي شـاقني، خلتهـا شمسًـا تـدور فـي فلكـي، لمـا فيهـا مـن حيويـة وتأمـل وبهـاء وإيبـاء، مسـروقة مـن صـفاة زوجتـي. خلتهـا جنينـة ترتـع بخـوار أرض بضة، تجذبني إليها، أتنزه بها كيفما أشاء.

كـان علـيّ تتبـع حيثيـات مخارجهـا حتـى أدرك غـايتي، صـرت أدور حولهـا بتلـك النوايـا الخبيثـة، وبشـيء مـن التطفـل، عسـى أن أجـد لـديها مـا يعيننـي علـى تجـاوز حـدود الصـبر، عسـى أن أعبـر بهـا جـداول الـروتين، وحقـل الشـك الأصـفر الشـائك فـي حـدقي. اعتبرتهــا كتابًــا جديــدًا أتصــفحه، لأســرق منــه متعــة تغيثنــي الطريـق، وتلمـع فـي ذاتـي فكـرة السـفر. لـذا صـرت أتبـع سـرها بشـغف، بـنهم، وأنـا أسير خلـف ذلـك الشـك مـن الغـي دون إدراك. اعتبرتهـا زهـرة توليـب تسـتقطب ذاتـي المريضـة، صـرت أدور حولهـا كـدبور غلـس، أود امتصـاص رحيقهـا، وأشـم عطـر مسـكها المضاع.

ذلـك مـا كـان ظـاهرًا أمـام المـلأ، دون أن ينتبـه أحـد مـنهم إلـى اللغـز الـدائر بيننـا وفـي جعبتنـا، وعمـا يكمـن فـي نظرتهـا مـن مخاتلـة وشراسـة نمـرة، تتبـع مـآربي، تحلـم بافتراسـي، وأنـا قـابع أمامها كيمامة مسجورة بتلك الفتنة.

تلــك الحالــة مــن الطمأنينــة راغــت فــي داخلــي، جالــت فــي خــواطري، جـدلت الرغبـة بفتائـل عينيهـا الملظتـان، رغـم الفـزع والريبــة المــرّة التــي صــرّت بينــي وبــين حبيبتــي، كهــاجس بهــا يخنقني، لعدم إيفائي بالعهد الذي قطعته أمامها على نفسي...

تلك القطة جعلتني أنسى ذاتي المتغطرسة، المدانة بمعاني عزلتها وعزتها، لأتعقب خطوط السحر بذاتي المسكينة، المستكينة جوارحها أمام وجه ومعالم تلك الحورية، محاولًا اقتفاء أثر جنوحي لأنوثتها بأثر جنوح ذاتها في رجولتي.

هكذا جعلتني أنشغل بها، صرت أتبعها دون يقين، بتوافق رغبتي مع رغبتها، محاولًا إسناد ذاتي بذوات أخرى نائمة بداخلي أو متلبسة بها، أحيانًا أشعر أنني مركّب من عدة شخصيات، أينما وضعت نفسي تلبست الحالة والشخصية الجديدة. فهي جديرة بتقمص الحالة الطارئة كيفما تكون، تصلح لتمثيل الدور بجدية عالية.

أظنني بارع في مجال التمثيل، أتمكن من تقمص كل الأدوار وتقليد الشخصيات بحرفية. أجد في ذاتي شخصية الأستاذ والطالب والمتسول والمخمور والعاطل والمخبول والراقص والسياسي والمثقف والراقي، مجتمعة في نفس اللحظة، في نفس واحدة.

أنا ممثل بارع، أستحق جائزة الأوسكار. لذا كانت زوجتي تحتار في تشخيص شخصيتي المتقلبة، وذلك ما جعلني أطاوع هوى الظرف والأدوار المناطة إليّ، مع التحكم بتفاصيل الغاية المراد صيرفتها، حتى أصل بذاتي إلى شاطئ الغاية برفقة من أهوى، دون كلل أو ملل.

لا أدري إن كنت مميزًا في هذا المجال بين البشر، أم أنها حالة اعتيادية تفسر خصائصي، أم حالة اعتباطية غثيثة أتقمط بها

دون إرادتي. وما تلك التي تعلقت بها سوى وسوسة شيطان، ذكّرتني بجنوني وولعي وهيامي وغرامي بزوجتي، لذا تماديت في غيي تجاه تلك القطة التي لا أستطيع فك أنشوطة عقدها عن ساقيّ، لأنها تحمل في غيّها جمرات غنج حبيبتي، وكل ظني أن أكون جديرًا بها، أن أستكشف أسرار تلك الفتنة وما يخفق خارج حدود فتنة زوجتي.

ذلك الشيطان ذكّرني بلون الشبق الذي لا تنطفئ نار جمره في صدري وحدقي. لم يكن فراق حبيبتي فراق وداع، بل فراق لقاء وحلم وأناة، فراق صمت وذهول وغزل يغويني. ما فارقتها إلا لتجديد لقائها، لأحتضنها بشبق يفوق الذي أكنه لها، لأشتاق إليها وأعود بسحر يرفأ جنوني بها، لأعيش بقية عمري بين الجفن والحدق، لأشنّف أذنيها بخُلدٍ من سحر الشوق والودق والهيام باللقاء.

كنت قد تركت زوجتي تعمل في وظيفتها كشعلة لا تنطفئ، منشغلة بفترة الإعداد والتكوين الفكري للتلاميذ، فترة حرجة من التوافق والترتيب، لا بد لها من أن تتمم مشوار ألقها التعليمي، حيث لا ينبغي أن تترك فراغًا في أذهان التلاميذ والإدارة لتكون برفقتي. لأن المبدأ مصون، ولنا غاية تقبع في النفس كغاية يعقوب لا نود أن نشيح عنها. حينها تركتها عصية على الزمن، حتى يعود بنا الزمن إلى أبجدية الحياة.

كانت تلك الفاتنة ترتدي نظارة شمسية صفراء اللون، وما إن رفعتها عن عينيها العسليتين، حتى فاضت بواحة سحرها على محيط الوجنتين، رفلت فضاء وجهها بفتنة غاية في الألق

والجمال، كإسهاب فتنة عيني حبيبتي حين توضئ وجهها بفيض السحر وأنا في كنفها.

عيناها المشعتان بالفتنة، طفقتا تلمعان في وجهها بسحرٍ غريب، أضاءتا مساحة الحسن من الوجه. تلك العينان بانتا كقمرين انبثقتا من خلف سحب جفنيها، سهدتا معالم الوجه المشرق بفتنتيهما، ذلك الذي أشبهه بقرص خبز صباحي محمّر، لجاذبية البشرة والملامح المغنجة به.

بالتفاتها يمينًا وشمالًا، هجست بها تبحث عمّن يعينها، عن وجه تألفه يزيح عن ذاتها شبح الوحدة، ربما تبحث عن حرية مطلقة لملاحقة ما تجرأت به في مشاغبتي. هكذا خُيّل إليّ المشهد، وهو ما جعلني أتبع سر نجواها.

باهتمامها بنفسها، أبدعت في تسليس مكياجها، أراقت الشفاه بمسحة شفيفة من حمرة وردية لاذعة، ضاهت بها رقة الأنف المغنّج بالشموخ والألق، ليسطع كمرفأ شاخص على مساحة الوجنتين ببهاء الشفق.

بحذاء كعبها العالي، ارتقت بطولها مقاس طولي في القياس، كما كانت تحمل في يدها حقيبة جلدية نسائية سوداء اللون، وضعت فيها مرآة صغيرة، وأقلام مكياجها، وهاتفها، وحافظة نقودها، وجواز سفرها، ذلك ما تبين لي فيما بعد من خلال استعمالها ومراقبتي لها عن كثب.

شعرت بأحداقي لا تشذ عن فتنتها قيد شعرة، حتى أني توجست خيفة من ملامة المحيطين بها، أو من مراقبة أمن

المطـار لـي، خاصـة أن الأسـقف مزروعـة بشـبكة عنكبوتيـة مـن كـاميرات المراقبـة التـي تحـرس المطـار مـن العـابثين والمتطفلـين، تتـوجس كـل كبيـرة وصـغيرة لا تـوائم الطبيعـة المـرادة. وأنـي بـذلك كنـت قـد تجـاوزت الحالـة المألوفـة، كـأني أرسلت لهـا رسـالة تحـرش واضـحة، وعلـى مـا أظـن قـد تلقتهـا وفهمتهـا، وإن كانـت لا تظهر مبالاتها علنًا.

كانـت ترتـدي بنطلـون جينـز أزرق مـن النـوع المطـاط، كمـا كانـت ترتـدي بلـوزة جرسـية فضفاضـة سـوداء اللـون، تحلـق رقبتهـا قـلادة ذهبيـة، تُعشّـق أذنيهـا بـأقراط دائريـة ذهبيـة. وكـان شـعرها الفـاحم مسـرّجًا فـوق كتفيهـا بتـدرج سـلس كشـلال يرتقـي طيـات الجسد، أشبه بشعور فرس جامحة.

مـع أنـي لاحظـت فتـاة أخـرى كانـت تجلـس علـى بعـد خمسـة أمتـار تقريبًـا إلـى جانبهـا الأيسـر، تكمـن فـي سـاقيها المعـرتين فتنـة سـليطة تشـذب النظـر، إلا أننـي لـم أنجـذب إليهـا لعـري سـاقيها، لانشـداه بـالي بتلـك القطـة الشرسـة، لتقـارب ملامحهـا مـن ملامـح زوجتـي مـن جهـة، ولكراهيتـي صـفة العـري عنـد النسـاء مـن جهـة أخرى.

لفتـت الأنظـار بثيابهـا اللافتـة: تنـورة قصـيرة بلـون عنـابي بحـواف متهتكـة، وقمـيص أبـيض مفتـوح الياقـة، يكشـف جـزءًا مـن بشـرتها السـمراء التـي تحمـل جاذبيـة لا يمكـن إنكارهـا. جلسـت وكأنهـا لا تعبـأ بمـن حولهـا، تعـرض فتنـة سـاقيها دون اكتـراث، مركبـة الساق فوق الساق، تستدرج النظرات من كل زاوية.

لـم أكـن منجـذبًا لهـذا النـوع مـن النسـاء، بـل كنـت أسـتنكر هـذا التبـاهي بالجسـد، ومـع ذلـك، وجـدتني أتأمـل تفاصـيلها، مـدفوعًا بفضـول لا يخلـو مـن التنـاقض. أردت أن أرى وجههـا، لأقـارن بـين فتنـة الجسـد وملامـح الوجـه، لكـن شـعرها الكثيـف المجعـد، المصـبوغ بالأوكسـجين والمكـور ككـرة السـلة، كـان يغطـي معظـم ملامحها، يمنعني من التحري بمفاتنها.

انحرفـت بنظـري قلـيلاً، أراقبهـا بنصـف عـين، وبالنصـف الآخـر أتـابع القطـة الشـيرازية الجالسـة قبـالتي، تلـك التـي شـغلت بـالي بجمالهـا الهـادئ وأناقتهـا التـي ذكّرتنـي بزوجتـي. لـم يكـن الأمـر اشتياقًا، بل فضولًا دفعني للمقارنة.

وفجـأة، التفتـت الفتـاة نحـو القطـة، وكأنهـا هـي الأخـرى تبحـث عـن انعكـاس لفتنتهـا فـي هـذا المكـان. لكـن حـين رأيـت وجههـا، خـف وهـج الجسـد، وظهـر التنـافر بـين الملامـح والجاذبيـة الجسـدية. كـان وجههـا غيـر متناسـق، أنـف بـارز، فـم مشـروط، وعينـان صـغيرتان زائغتـان. بـدا لـي أن الجسـد لا ينسـجم مـع الـرأس، وكأنهما من عالمين مختلفين.

تسـاءلت: لمـاذا تحـاول امـرأة بهـذا القـبح الظـاهري أن تفـتن الآخـرين بجسـدها؟ هـل تظـن أن الرجـل يبحـث فقـط عـن الجسـد؟ فـي رأيـي، الرجـل يبحـث عـن الحيـاء قبـل الجمـال، وعـن القيمـة قبل الفتنة.

غضضـت الطـرف عنهـا، وعـدت أتأمـل القطـة التـي بـدت لـي نسـخة مستنسـخة مـن زوجتـي، فـي العينـين، فـي القـوام، فـي

الرشــاقة. شـعرت براحــة نفسـية، وكــأنني لــم أبتعـد عــن زوجتــي قط.

لـم يطـل انتظارنــا فــي صــالة المطــار، إذ نقلتنــا الحافلــة إلــى سـلم الطــائرة. ومــا إن جلسـت فــي مقعـدي، حتــى رأيتهــا تتجــه نحـوي مباشــرة، تطلــب منــي أن أفسـح لهــا المجــال لـتجلس بجــانبي، فــي المقعد 24 المخصص لها قرب النافذة.

قالت بلهجة عربية مكسّرة:

– صباح الخير.

أدركت أنها ليست عربية الأصل، فرددت:

– صباح النور والسرور... ما شاء الله، تتكلمين العربية؟

– عشت في أبوظبي فترة، وتعلمت القليل. أنا من أصل تركي.

– يا أهلاً وسهلاً، تشرفنا بك. وهل ستعودين إلى أبوظبي؟

– لا، انتهــت مهمتــي هنــاك. كنــت ســكرتيرة فــي ملحــق السـفارة التركية، وسأعود إلى أنقرة لأباشر عملي.

فــي الأجــواء، علــى ارتفــاع ثلاثـين ألــف قـدم، بـدأت الألفــة تنسـج خيوطهــا بيننــا. صــرنا نتهــامس دون كلمــات، تتلاقــى نظراتنــا، وتتشــابك خواطرنــا. شــعرت بأنفاســها تلــوّن أنفاســي، وأن بيننــا شيئًا يتشكل دون قصد.

تصفحت مجلة "زهرة الخليج" الموضوعة أمامي، وقرأت لها مقالًا عن الفوضى في سوريا والعراق، وعن تدخلات تركيا في الشمال السوري. دار بيننا نقاش سياسي، رغم صعوبة تعبيرها، لكنها أوضحت رفضها لسياسة بلادها الخارجية، التي تراها سببًا في زعزعة أمن المنطقة. كان الحوار عميقًا، وذو أثر في إذابة الجليد بيننا. شعرت بأنها تقترب من هواجسي، وتنسجم مع أفكاري، وكأنها وجدت فيّ ما كانت تبحث عنه.

بعد ساعة من الطيران، قُدمت لنا وجبة الطعام. جلس الراكب إلى يميني غارقًا في نومه، فشعرت بحرية أكبر في الحديث معها. كانت لحظة هدوء، امتزج فيها دفء الجو بألفة الأرواح، وبدأت الرحلة تأخذ منحى آخر، لا يشبه بدايتها.

عندها استغليت الفرصة ومددت يدي لتلامس يدها، هجست بلسعة حرارة قد أسنت جلدي، سرت في عروقي، لما فيها من رقة وفتنة وجواء، وكأنها كانت لها ذات الرغبة العوسجية في طريقة اللسع. ضرعت لرغبتي مثلما ضرعتُ لفتنتها، لم تسحب يدها من تحت يدي، تركتها تغور بسحر احاسيسها وحرارتها بذات الكيفية، وكأنها هي الأخرى لذعت من تطفلي وتحرقتْ بوسامتي ورجولتي، فانغمست مشاعرها باتون مشاعري حتى غدت الانفاس تشرق في زفيرها لدرجة الاندماج الذي شاب بيننا..

برضوخها لرغبتي كأنها رفعت حواجز التكلف والشك التي كانت تمنع تفاهتي من أن تسيح على كرستال مفاتنها،

بمـداعبتي ذيـل عقربـة مفاتنهـا وثلـب تلـك المحاسـن الفائضـة فـي ثناياهـا؛ اسـترخت بـين هواجسـي فارتقـت مشـاعرها، غـدت بـين يدي كقطعة اسفنج تمتص أرقي.

لـم تعتـرض علـى سـلوكي السـافر فـي مخاتلتهـا ومحاباتهـا، لـم تنـزعج مـن غيـي فـي مغازلتهـا، فامتـدت يـدي لـتلامس افخاذهـا، تمـادت بغيهـا وعبثهـا لتزحـف فـوق تلـك المفـاتن بشـيء مـن البلـه والهـوس النرجسـي، عصـرتُ راحـة يـدها الترفـة؛ حتـى تقطـرت رقتها كآهات صب ذرفتها انفاسها في صحن وجدي.

مـا أن تراخـت؛ حتـى لانـتْ لمطاوعـة عصـفي، أحمـرت وجنتاهـا، بمجسـات الأنوثـة تحسسـتْ مـا يجـول فـي فكـري وخـاطري، بمستشـعراتها ونظراتهـا ادركـت غـايتي، التمسـتْ حـرارة انفاسـي.. صـارت احاسيسـها تخفـق بصـدرها، بركـان يشـتعل فـي داخلهـا، حتـى خضـلت وربتـت مجـانتي، فأيقظـت بجوارحهـا الملظـة جـوارحي. لـم أعـد أقـاوم صـبرا، فملـتُ كعاشـق لضـفتها، لتلتصـق عينـي بعينهـا. فقلـت لهـا برقـة المتأمـل والعاشـق المتهور:..

- أنت جميلة يا فاتنة، جميلة جدا يا...
- سهير.. أنا أسمي سهير.
- عاشـت الأسـامي، أسـم جميـل مـرتبط بالليـل والنجـوم والقمـر والسَـحَر والسُـهد والهجـوع والخيـال الـدامغ. مـن يسـمع أسـمك، يغـرق فـي شـجون الوحـدة ومـوج التفكيـر حتى الذوبان.

- آه كـم ترتقـي شـاعريتك الفياضــة لإحساســي، شـكرا لـك لأنك جعلتني أتغنى باسمي.... وأنت بم تدعى؟
- أنا أسمي عامر، عامر الطائي...
- وأنــت يــا طــائي؛ بوســامتك وجرأتــك شعشــعت فكــري، شــكرا لإعجابــك بــي، ولا أخفيــك ســرا، أنــا مطلقــة، تزوجـت قبـل سـتة سـنوات، ولـم يـدم زواجنـا سـوى سـنة فقــط، ثــم عصــفت تيــارات الأضــداد بخيمتنــا، فثــارت المشــاكل بيننــا ثــم أزفــت بنــا إلــى وحــل العقــد، ممــا اضــطررنا إلــى الرضــوخ لقــرار الانفصــال... والحمــد لله لـم يكـن بيننـا مـا يمنـع الانفصـال، ربمـا كـان عـاقرا بذاتـه، أو أنا عاقرة، حيث لم نجرِ اختبارات بهذا الشأن....
- وهل كنت متزوجة إنسانا؟.....

بـدت تضـحك ههههـه، تبتسـم، وهـي فـي غايـة الاسـتغراب مـن سؤالي لها حتى أنها قالت:....

- ماذا تقصد؟ أهو حيوان؟......
- أكيـد.. أقصـد هـل كـان يقـرأ الأحاسـيس والمشـاعر بفكـر إنســان؟ هــل أدرك لغــز الأنثــى ومــا فيهــا مــن بــراكين خامـدة تحتـاج لمعـول رجـل لإثارتهـا؟ هـل فهـم جدليـة العلاقــة وحقيقــة الارتبــاط الأزلــي ليتــرك جــوهرة ثمينــة بحجـم الكـون تنـزف فتنـة بـين أعـين الوحـوش الكاسـرة. ليتـرك وردة عبقـة أسـيرة ضـوعها بـين العيـون النافقـة... حقيقــة لــيس لــه الحــق إطلاقــا، وأن تقرحــت دمامــل

المشاعر ونزفت، فالرجل الحقيقي لا يطلق حبيبته، أنه رجل مهزوم، بصير...

- هذا نصيب، إلا تأمن بالنصيب؟
- بلا... ولكن ... ماذا أقول لعبث الزمن.. حالي لا يختلف عن حالك، لطول لسانها طلقتها، والآن أشعر بشيء من العناء والغرابة، لم تكن غايتي ولا مرامي، جعلتني أعيش الوحدة وهي نائمة إلى جانبي..

كانت قد اغرتني القطة بفتنتها، فقلت يجب أن أساير أهوائها حتى تلين، علني أظفر بها، أنها فعلا جوهرة لا تقدر بثمن، كتلك التي تَغَزّلَ بهنَّ الشعراء، كليلى العامرية وبثينة وفوز وو الخ...

حينها رفعتُ كف يدها ووضعته على فمي لتستشعر بحرارة قبلتي، قبلتها قبلة طويلة، وما أن انتهيت حتى مالت برأسها على كتفي، ثم سحبت يدها الأخرى لتضعها خلف ظهري، لتحيطني بغنج وبشبق وبقوة، وكأنها ودت أن تغرف من فيض مشاعري الجياشة غَرْفَة، فاختاضت بخضب الشوق وعاطفة من الحب والحنان، لا يمكن السيطرة على حركاتها.

في انحداري لضفتها كأني ركنت ذاتي في وهدة أحضان زوجتي، فلم أهجس بغرابة في سلوكي وتصرفي، حتى تخطيت حاجز محيطي وما يدور فيه من لغط، وكأني أرتع في فرشتي وأتقلب على وسادتي. حينها جعلتها في كأسي كقطعة سكر مراغة، أيقظتْ زغب مشاعري لأستشعر بذكوريتي،

وتستشعر بأنوثتها. كأنها كانت عطشة لقبلة رجل، لخشونة رجل، وهي تترجم لي معاني أنوثتها.

فما كان مني سوى أن أطبق شفاهي على أسيل خدها، لأطبع عليه قبلة دافئة، اتقدت الوجنتان كجمرة ملتاعة تحت لتعة الشفة. فيما يدي اليسرى كانت قد غارت في ثنايا شعرها، أحنت رأسها نحو شفاهي. مالت نحوي برفق وتودد، أغمضت عينيها لتطبق الشفاه على بعضها، تركتها تغوص في عمق الفتنة تبحث عن اللؤلؤ والمرجان المكنون في عمق بحرها الطامي.

بفيض من القبل عبثتْ بلوحة الوجه كيفما أشاء؛ قضمت ثمرة فتنتها وأنا التنقل بين الشفاه الندية والخد الريان ولحاء العنق. وكأني حين قضمت شفاهها قضمت شفاه زوجتي، للمحبة التي شاقتني إليها. همت بها وهمت بي، أغشت ذاتي بعالم الخيال والنرجسية، بل أني هجست بها قد سقطتْ في مستنقع الخسة والنذالة والخيانة حين هزني الورع أخيرا.

بقدر ما ندمت على فعلتي؛ بقدر ما استلذذت بفتنتها. هجست بذاتي حرة في سماء الوله، كأنها خرجت من جنة التقوى لتدخل جنة الإغواء والشهوات والموبقات والعبث، شعرت بالأحاسيس تتناقض في داخلي، صارت تلهب زغب مشاعري برقتها وأنوثتها من جهة، واتقاد فتيل الثقة التي أودعتها زوجتي بي من جهة أخرى.

لـم أكـن أهجـس بهـا غريبـة عنـي إلا بعـد أن غرقـت بفيضـها، ومـا كنــت أنغمــس بهــا لــولا فــيض مشــاعري التــي صــورتها لــي زوجتــي. فعــلا تــداخلت المشــاعر فــي مخيلتــي، فحــين قبلتهــا؛ لــم أقبـل سـوى شـفاه زوجتـي، لـم أنعـم سـوى باسـيل خـد زوجتـي. لـذا بــت اتحســس دفــق الــدم فــي الفــؤاد والقضــيب الــذي ارتقــى قمــة ذكـوريتي؛ حتـى أنـي لـم أدرِ متـى أنتهـى بنـا المطـاف، فلـم أفـق إلا علــى رغبــة منهــا بعــد أن ســحبت شــفتاها مــن فمــي وعــادت لجلستها الاعتيادية، شاكرة تحرشي بها...

بقيـتُ علـى تلـك الشـاكلة متـرنح فـي عـالم مـن الرقـة والأنوثـة والخيـال مـدة مـن الـزمن لـن تحسـب بالـدقائق، فيهـا كنـت مغمـض العينـين... بعـدها عـدنا نسـتلذ باحاديـث الأعجـاب والولـه الجانبيـة، وكـأنَّ شـيئا لـم يكـن، كـل ذلـك حصـل قبـل أن يفيـق صـاحبنا مـن نومـه، قبـل أن ينبهنـا قبطـان الطـائرة إلـى ضـرورة ربـط الأحزمـة استعدادا للهبوط بمطار أتاتورك.

حينهــا قالــت لــي وهــي تبتســم برقــة مــع شــروع الطــائرة فــي الهبوط :..

- شـكرا لـك علـى ثنائـك وقبلتـك الحـارة، أشـعرتني بـأنوثتي، كنت رجلا حقيقيا في تصرفك....
- وكنــتِ حمامــة رائعــة، أنــت ملهمــة، جميلــة، فيـك حيويـة وشـبق غريـب رائـع، يجـب أن نتبـادل أرقـام الهواتـف قبـل أن نفتـرق، يجـب أن يكـون لنـا لقـاء جـدي فـي إسـطنبول لنخطط لمستقبلنا..

- وهو كذلك، سنمضي في خروجنا معا، وستكون ضيفي الليلة، ما رأيك؟.
- جميل منك هذه الالتفاتة..شكرا لك، أنت فاتنة.

حتى أني لم أدرك لحظة وصولنا التي دامت أكثر من ثلاث ساعات إلا على صوت قائد الطائرة وهو يحثنا على ربط الاحزمة، حينها صارت الطائرة تميل وتدور وتنحرف، تستقرأ بطيرانها مسارها للاستدلال على مدرج الهبوط، فشعرت بهبوط وارتفاع ضغط الدم وانسداد طبلة الأذن من جديد، مثلما شعرت بذلك خلال الصعود.

في خروجنا من الطائرة كنا استقللنا نفس العجلة لصالة ختم الجوازات، وخلال وقوفي في طابور الغرباء القادمون، وقفت إلى جانبي في طابور أخر مخصص لأبناء البلد.

كانت إجراءات أبناء البلد سريعة، بذلك كانت قد أنهتْ ختم جوازها. توقعتها تنتظرني خارج الكابينة لنذهب سوية إلى المدينة، غير أني خاب ظني، حيث ما أن أنهيت ختم جوازي؛ حتى رن هاتفي في جيبي، فإذا بي أجد رقما غريبا، وعندما أجبت بكلمة:....

- تفضل.... من معي على الخط؟.

وإذ بصوتها النغام، الناعم، يخرج من الهاتف كطير يرفرف في هواء ظني، جال في خاطري، وهي تهمس في أذني قائلة بصوت ملئه شبق:...

- يـا وائــل!! عليـك فــي المــرة القادمــة أن لا تجــازف مــع إمــرأة، ولا تكــذب عليهــا، ولا تــنسَ أن تأخــذ حافظــة نقودك من استعلامات المطار، مع السلامة.

حينهـا تفقـدت حافظـة نقـودي وإذا بـي لـم أجـدها فـي جيـب سـترتي، والظـاهر حـين انـدمجت مشـاعرنا سـلتت حـافظتي مـن جيبـي، بعـد أن مـدت يـدها لتحـيط بـي، فاسـتولت علـى مـا فيهـا مـن نقـود، فـي الوقت الـذي بـه كنـت غارقـا فـي أتـون رقـة الشـفاه التـي نقلتنـي لعـام الخيال والعبث.

لـم أحتـار فـي كيفيـة معرفـة أسـمي ورقـم هـاتفي، حيـث أنـي أحمـل فـي حافظـة النقـود مبلـغ ألـف وخمسـمائة وسـبعون دولارا وبطاقـة سـيم كـارت هـاتفي، وهـويتي، وصـورة زوجتـي. لقـد كشـفت كـل أسراي التي حاولت أن أظللها بها..

كانــت ســاحرة بمعنـــى الكلمـــة، ســـحرتني، تـــوهتني، أربكـــت حسـاباتي، ثـم تمكنـت مـن سـرقت حـافظتي، جعلتنـي أنـدم علـى كـل ثانيـة قضـيتها معهـا. كانـت أذكـى منـي، حولـت أن اسـتغفلها، لكنهـا استغفلتني. مبروك عليها المبلع المسروق، فعلي أن أرعوي.

حســنا فعلــتُ بتوزيــع المبــالغ التــي أحملهــا معــي علــى جيــوب ملابسـي، وإلا كنـت قـد أفلسـت مقابـل نـزوة كـادت أن تـودي بـي. قبلــة عــابرة دفعــت ثمنهــا ألــف وخمســمائة وســبعون دولار فــي لحظـــة عبث....ههههههههه..صـــرت أضـــحك وألـــوم نفســـي الضـعيفة علـى ثمـن الضـريبة التـي دفعتهـا مقابـل تلـك النـزوة التـي أرهقتنـي.

بعدها حاولت أهاتفها على رقمها الذي اتصلت منه؛ إلا أن محاولاتي ذهبت سدى، كأني كنت أحاول أن أعبث مع المستحيل، أظنه كان رقم طوارئ واستغلال فرص، ما أن أنهت مشوارها به رمته في حاوية النسيان.

لم تكن فتاة عادية، كانت في كل خطوة أخطوها تجاهها كانت تخطو خطوة معاكسة لها، اتجهت إليها فأتجهت نحوي. تبعتني من حيث تبعتها، لعبت معي لعبة القط والفأر.

بمواكبتي الظرف الذي هيئ لنا مستلزمات اللقاء، حسبت ذاتي قط وأنا أقبلها، وإذ أكتشف بأني فأرة بين يديها. اقتصت مني، واقتنصت ما كان يشغل بالها ويلهيها، مثلما اقتنصت ما كان يشغل بالي ويلهيني.

تلك الفتاة جعلتني أعيش في دوامة الشوق، جعلتني أراجع ذاتي لألا تتكرر الحالة معي، جعلتني أضع حدا لشخصيتي أمام نضوج فكري، لأعود صاغرا لوفاء زوجتي.

أخيرا وجدت حافظة النقود كما هي، لم تأخذ منها سوى المبلغ الذي كان فيه، تاركة في جعبتي عصاها لتهطل عليَّ متى أشذ ويشتط انحرافي...

القوقعة

وأنا خارج من المطار باتجاه مرأب العجلات، صادف أن تتواجد قربي تلك الفتاة المعرة، سألتني أن كانت لي دراية بإسطنبول لاصطحابها معي، فقلت لها:.....

- تفضلي أية خدمة؟
- ممكن أن أصحبك لمركز المدينة؟ أني لم أزر اسطنبول من قبل.
- لا ضير في ذلك على الرحب والسعة...

لقد وجدت فيها فرصة إذابة عقدة الروتين والوحدة، عسى أنسى احتيال سهير وما تركته في نفسي من عناء، متأملا أن اسلي ذاتي معها ليلة أو ليلتين؛ حتى أكمل إجراءات رحلتي القادمة إلى المجهول..

بصراحة بعد أن طلبت مني ذلك؛ كأنها قد جزلت عقدة سهير من صحيفة فكري، تلك التي شغلت فكري وقوضت رغبتي وسلبت نقودي في ديار الغربة.

مسكت يدها ودلفنا إلى المرأب لنستأجر عجلة لمركز المدينة، وبالذات إلى فندق ميرديا في وسط اسطنبول. هجست خشونة

تعفر راحة يدها، كأني لامست يد فلاح شاقه الكراب. لكنها لم تحرف فكري عن الغاية التي اتقدت في ذهني وبالذات حين وجدت في ساقيها شعلة براقة من الالق.

خلال الطريق قالت:....

- أني كنت جالسة خلفك بمقعدين في الطائرة.
- لم انتبه على وجودك..... هكذا اجبتها.
- لأنك كنت منشغلا بتلك الفتاة الجميلة التي كانت تجلس جانبك.
- ربما.
- لمَ لمْ تنتظرك؟..
- لم يكن بيننا موعد مسبق، ثم زوجها في المطار ينتظرها...

إذا كانت تجلس خلفي وشاهدت تفاصيل ما جرى من ود وتهامس بيني وبين تلك الساحرة سهير، تلك التي تأملتها زوجتي وحبيبتي. أي أنها راغبة في تكملة المشهد الذي تخلت عنه سهير على حين غفلة. إذا لابأس في ذلك، رغبتها تطابق رغبتي وأن كانت الذاكرة لازالت مرهقة بفتنة سهير. ربما اصابتها الغيرة، فأتحفت ذاتها لتكمل لعبتها.!

هي لا تختلف عنها من ناحية الجسد، لكن ملامحها لا توائم لطافة جسدها، حتى صوتها تهجس به يغدق بنغمة الدو الخشنة، فدرجة صوتها أقرب إلى نغمة الاوكتاف من نغمة السوبرانو الأنثوية المتبعة في السلم الموسيقي. فيما طولها

وبــروز صــدرها وعجيزهــا وطــراوة الســاقين المغنجــة تفــيض بحيويــة أنثــى، أنهــا حقــا مــن هــذه الناحيــة مثيــرة تلفــت الانتبــاه. حينها ومن باب المجاملة سألتها:.....

- لم أتعرف باسمك ومن أي بلد؟
- أنــا مــريم، أمازيغيــة مــن المغــرب، لــي فتــرة شــهرين أعيش في ابوظبي... وأنت، ماذا عنك؟
- أنا سعيد، تاجر من الأردن.
- سعيدة بمعرفتك يا سعيد.......
- وأنا أسعد....

عجيــب أمــرك!!!، أنــت ســعيد أم عمــر أم وائــل؟؟؟؟؟؟؟؟ تتقلــب حسب المواقف.... لالالا قد تكون أمجد أو حامد ومناف.....

وأنــا أسير معهـا كنـت حذرا جدا مـن أن أقـع فريسـة مآربهـا، كنـت حريصــا بــأن أســحب حقيبتــي وأحمــل الأخــرى الدبلوماســية بيــدي، فهــي خفيفــة لــم أحمــل فيهــا شــيء ســوى اوراق خاصــة وكتــابين واشيائي الثمينة.

حرصــت عــن مكمــن المــال والمحفظــة التــي فيهــا أســراري، بحيــث وضــعتها فــي حقيبتــي الدبلوماســية وأقفلــت عليهــا برقمهــا الســري دون أن أدعهــا تنتبــه. فمــن يــدري مــا ورائهــا، ربمــا لهــا مــآرب ســهير، قــد تكــون ظللتنــي باســمها وجنســيتها، هــذه الايــام الموضــة جارية على هذا النسق مثلما ضللتها بنفسي.

ومــا هــي ســوى فتــرة نصــف ســاعة كنــا قــد وصــلنا الفنــدق القريــب مــن البوســفور، منظــر خــلاب، مــريح للنظــر، يشــيع فــي الــنفس

بهجة وسكينة، استأجرت غرفة ماستر بسريرين، وفي الغرفة بدأنا نخلع ملابسنا وهي جالسة إلى جانبي، فهاجني الشوق لتلك المفاتن، فامتدت يدي على ساقيها وصدرها، وددت إثارتها بشيء من العبث لأرفع مستوى الشبق لديها ولدي لدرجة الاتقاد.

ثم انحرفت يدي إلى المواضع المحرمة، لتنحدر إلى فض لغز عجيزها ولين شحومها، لتنزلق إلى ثأدة الفخذين، إلى حيث مكمن الاسرار بين الفخذين، وما أن لامست مصباح الغريزة؛ حتى لسعت يدي حرارتها، فارتدت إلي شكيمتي، سحبت يدي بسرعة لأضربه بكف على ظهره، صارخا بوجهه بكل قوة:....

- قم يا خنيث، هيا أخرج من هنا بسرعة؟.... أأنت ذكر؟ لعنة الله عليك، أنا ناقص قرف....
- لمَ تضربنِ، أنا مثلي، الله خلقني هكذا، لم أكن أنثى ولم أكن ذكرا، أن كنت راغبا سأكون تحت إرادتك...
- ألبس ثيابك وأخرج من هنا يا قذر قبل أن أخبر الشرطة.......

لبس ثيابه على عجالة، ثم خرج من الغرفة وهو يتمتم بكلمات لم أفقها، ردا على صراخي وزعيقي بوجهه، خرج مرتبكا، مهزوزا أشبه بالمسطول وهو يجر حقيبته خلفه.

كيف استطاع أن يغشني ويغش جميع من حوله في المطار، أنه أشبه بالعنكبة التي تجهد في اصطياد ذكورها وحشراتها. كيف؟.. كيف؟..

الظاهر منذ أن ألتفتً يمينا ركز في نظره عليَّ وعلى سهير؛ كان يبحث عن رصيد له في عيون الآخرين، حينها شككت بملامح وجهه الخالية من سحر الأنوثة، كانت وجنتاه وخدوده مُعَّفرةٌ بوافر النقر، أشبه بحصير خوص عبث به مغزل الحياكة، نتيجة تعرضه للنتف والكوي وعمليات التجميل التي خضع لها.

كما أنه استعار شعر رأسه، كان يرتدي باروكة. كان يحمل معه في حقيبته عدة باروكات احتياط وأدوات مكياج ومساحيق تجميل وغلائل ملونة فاضحة شفافة للنوم، وحمالات صدر وأنواع من البكيني بألوان طيف الشمس.

لقد نفخ الخدود والشفاه بمواد البوتكس والفلر، نفخ الصدر بمادة سليكونية، نتف شعر جسده، رفع حاجبيه بعمليات التاتو، ملئ عجيزه وأفخاذه بالشحوم من المواد المستعارة ليبدوا أقرب للأنثى من الذكر، ركب أظافر مستعارة، لقد عمل الكثير الكثير من أجل أن يفتن به رجل.

ياه....كم كان سخيفا، كم خسر من النقود والقيم والأخلاق، خسر الأهل والمجتمع وأشياء كثيرة، فعل كل شيء من أجل شيء مغروس في باله، من أجل أن.....أنه تافه - مريض.

تلك العمليات كلفته حياته وجيبه ومستقبله، وفي الأخير لم يجد فسحة عيش كريمة في بلاد المسلمين......

يا ترى؛ هل شغل فكره بما هو أبعد من جسده؟ هل تخيل نفسه بعد أن تمضي سنوات الشباب كيف سيكون شكله ومصيره؟؟ كيف سيبدو في سن الستين والسبعين؟

منغصات الفندق

في زيارة سابقة لإسطنبول استأجرت غرفة في فندق السلام في منطقة سلطان أحمد كون المنطقة منطقة سكنية قريبة عن البحر، إضافة إلى وجود مسجد السلطان أحمد ومتحف آيا صوفيا فيها. أنها منطقة مزدحمة بالأسواق والأماكن السياحية، يجاورها سوق كراند بازار القديم في بيازت، ومرتع حديقة جولهانة المطلة على خليج البسفور.

على الرغم من أن زوجتي تركت في ذاكرتي وشمًا لا يُمحى، وفي ضميري عصا تأنيب توهطت بي كلما انحرف سلوكي عن جادة الطريق. رسخت كذكرى لطيفة، تراقب هوسي، تتحكم بقيمي، وتُحاسبني على نزواتي كلما مالت استقامتي.

أهم ما تركته في ذاتي هو تلك العصا، عصا الضمير، وحرارة الاشتياق كغراء، تبطش بي حينًا، وتردعني عن مجاراة الموبقات حينًا آخر. كانت تذكرني، في لحظات النسيان،

بحدود الأدب واللياقة، وبحواجز العلاقة الزوجية التي لا ينبغي تجاوزها.

بصريح العبارة، جعلتني أرعوي عن سلوكيات الطيش والعبث التي أجد فيها أحيانًا ضالتي، لا عن رغبة، بل عن وحدة، عن فقدان السيطرة على انفعالاتي النفسية، عن تكرار المواقف المغرية التي تقتحم حياتي دون أن أسعى إليها. ربما هناك خلل في ميزان الفكر، أو عطب في وجه العاطفة، أو لغز غائر في تكويني الشخصي يتحكم بي دون إرادة مني. شيء سحري، مضنٍ، مركب من غموض لا أفهمه، ولا أملك له تفسيرًا.

دخلت إسطنبول مثقلًا بهذا الإرث النفسي، واستأجرت غرفة في فندق مريديا بمنطقة السلطان أحمد، القريبة من البحر، ومن مسجد السلطان أحمد ومتحف آيا صوفيا. منطقة شعبية، مزدحمة بالأسواق، يجاورها سوق كراند بازار وحديقة جولهانة المطلة على خليج البوسفور.

تحممت، كشطت عن جسدي عناء السفر، ارتديت بجامتي، وتمددت على الفراش الوثيرة، فغفوت ساعة. ثم خرجت أستطلع الأسواق، وجلست في مقهى يطل على البحر، أراقب الموج، وأتأمل الغياب. بقيت حتى العشاء، أبحث في الوجوه عن تلك القطة الرقطاء المسماة سهير، وعدت مرهقًا، ونمت حتى العاشرة صباحًا.

حين ودعت زوجتي، تركت في ذهني عهدة الضمير، عصا تلسعني كلما زاغت عيني، خاصة حين أكون وحيدًا، منفردًا،

تهاب أن تنزلق قدمي بعيدًا عن حواجز العلاقة الزوجية. تلك العصا جعلتني أتراجع عن سلوكيات العبث التي أتعشقها أحيانًا بمحض الصدفة، دون إرادة، نتيجة فقدان السيطرة على انفعالاتي، كما حدث مع سهير.

في الفندق، كانت عاملة النظافة تأتي كل صباح بعد العاشرة، تؤدي عملها الروتيني: تبديل الشراشف، تنظيف الغرفة، ملء قوارير الماء. في اليوم الأول، عطفت عليها بخمسة دولارات، فصارت تعتني بالغرفة أكثر من المعتاد. في البداية، لم تلفت نظري، كانت ترتدي زيًا رماديًا باهتًا، أشبه بلباس الرجال.

لكن في اليوم التالي، دخلت بثوب مختلف: تنورة سوداء قصيرة، خطواتها أكثر تأنقًا، نظراتها أكثر جرأة. رغم تجاوزها الأربعين، كانت تحتفظ بحيويتها، بهالة شبابها، بجاذبية لا تخفى. حين انحنت أمامي بحجة التنظيف، صرت ألاحظ تفاصيل جسدها، ساقيها، رشاقتها، انحناءها، كل ذلك صار يوقظ في داخلي رغبة نائمة.

أخذني الخيال بعيدًا، نسيت عصا الضمير، نسيت سهير، نسيت زوجتي. خلتها زوجتي، لتشابه السيقان، لتشابه النظرات. اندمجت في المشهد كأنني ممثل بارع، أبحث عن لغز الفتنة، عن اللؤلؤ والياقوت تحت التنورة. أسبح في موجة عمياء، دون خجل، دون إدراك.

امتزج الخيال بالواقع، أصبحت في وضع قلق، لا أحسد عليه. لم أعد أقاوم عناكب الشهوة، توسعت دائرة الوله، جردتني من

إرادتـي، بـتُّ عـاجزًا عـن الصـبر. بسلوكها الـوقح، حركـت رعشـة الولدنــة فــي داخلــي، دفعتنــي إلــى المشاكســة، إلــى العبــث، إلــى الانحدار.

وفـي لحظـة نسـيان، امتـدت يـدي لـتلامس طـراوة أسـتها، فالتفتـت نحــوي بابتســامة صــفراء، لا تخلــو مــن خجــل، ولا مــن رضــا. عنـدها شـعرت بعصـا الضـمير تلسـعني، أعـادتني إلـى عـالمي، إلــى واقعــي، إلــى ذاتــي. تسـاءلت: أيـن ذهبـت؟ أيـن انحـدرت؟ كانـت لحظـة غثيـان، لحظـة استهجان، لكنهـا كانـت كافيـة لتجعلنـي أستفيق.

ربمـا شـعرت هـي بغبطـة، ربمـا أدركـت أنهـا مـا زالـت تملـك فتنـة الشـباب، ربمـا كانـت لطيفـة معـي بسـبب البقشـيش، أو ربمـا شـغفها بي دفعها لارتداء تلك التنورة. ربما... وربما... وربما...

كـل تلـك الاحتمـالات واردة، لكـن الحقيقـة أنهـا شـغلتني، بلطافـة سـيقانها، حتــى نسـيت أنهــا عاملــة، ونسـيت ذاتــي. كانــت لحظــة صـبابة فـي غيـر محلهـا، حالـة لا أجـد لهـا تفسـيرًا، ربمـا مرضـية، ربمــا شــيزوفرينية، تمــزج الخيــال بالحقيقــة، تنقلنــي مــن حالــة الوجود إلى حالة التيه.

ربمـا الوحـدة دفعتنــي، ربمـا الغربـة، ربمـا زحمـة الأفكـار، ربمـا ضـعف الإيمـان. كـل ذلـك اجتمـع علـى ذهنـي كهـوام الحشـرات، أنساني حقيقة ذاتي، وقدري، ومكانتي.

إذا جـنح الفكـر، لينحـرف إلـى واطئـة السـفاح، إلـى لحظـة التسـامي والانصـهار بتلـك الفتنـة المكـورة فـي كفلهـا، كـأنَّ الأمـر قـد فـرض

علـيَّ، بحيـث صـار خـارج مسـاحة العقـل والتفكيـر والإرادة، حالـة تقيدت بها بقيد الغريزة.

كـأنّ الـذي دفعنـي إلـى تلـك الحالـة مـن اللمـم، هـو ذلـك الفـراغ الـذي اجتـاح عـالمي، ووسـم فكـري بالوحـدة والجنـون. صـار يرفـع مـن غيـي، ويعكـر صـفو ذهنـي بمعطيـات السـفه التـي تحـيط بـي. منـذ لحظـــة فـــراق زوجتـــي، وأنـــا مشـــغول البـــال، يتـــوه فكـــري فـــي تفاهـات المحـيط، حتـى غـدت حـالتي أشـبه بحقنـة تخـدير، تغـزو الـذات بـإبر كـل أنثـى جميلـة تصـادفني، حتـى بـت لا أميـز بـين الطيب والطَيب في جمال عالم الأنوثة.

أقنـع نفسـي بتلـك المبـررات، لكـن الحقيقـة أننـي لـم أسـتطع مقاومـة المغريـات مـن حـولي. وجـدتني فـي حالـة مـن الـوجس، أهجـس بـذاتٍ ضـعيفة، مراهقـة، مغـرورة، مريضـة، عبثيـة. ربمـا أنـا فعـلاً مـريض، ولا أشـعر بـذلك. بـت أشـك فـي طبيعـة سـلوكي الهمجـي، وصـار التنـافس علـى أشـده بـين الأنـا العاقلـة والـذات المراهقة في تقييم سلوكي.

لحظـة نسـيان واحـدة نقلتنـي مـن سـكونٍ تـام إلـى عـالم الرجـاء والألفـة، عـالم افتقـدت فيـه رفيـف صـبري، وبقيـت مهووسًـا بتلـك المفـاتن وأنـا أستشـعر ذاتـي لائـذة بحضـن زوجتـي. بطبيعـة الحـال، أنـا أعشـقها، أعشـق كـل خليـة فـي جسـدها، ضـحكتها، همسـتها، رقتهـا، لـون بشـرتها، وتفاصـيل جسـدها المسـوّرة بالفتنـة. لـذا، انغمسـت فـي جسـد تلـك العاملـة متخـيلًا أنهـا زوجتـي. هكـذا خُيّـل إلـيّ المشـهد، وهكـذا رأيتهـا. كمـا غـررت بسـهير مـن قبل، غررت بجسد العاملة. لكن حين التفتت إليّ، قالت:

– يا سيدي، إن كنت ترغب بذلك، عليك أن تدفع لي خمسين دولارًا، حينها سأكون تحت إرادتك.

في تلك اللحظة، شعرت بعصا الضمير تهوي على جسدي، وتركت أثر سخطها على القلب والذهن. كشطت الشهوة، وغار القضيب في مخبئه. نظرت إلى وجهها بشيء من الخجل وتأنيب الضمير، كأنني أصبت بفزعٍ وخوف. سلمت أمري للأنا العاقلة، لأعالج تقرحات السخف الّتي طفحت في فكري، والتي تركت ملامح وجهي تتأسف لها عن كل بائنة أفرزها سلوكي.

قلت لها، ووجهي يكسوه خجل واضح وابتسامة صفراء:

– آسف يا سيدتي، نسيت نفسي. هذه الأعمال لا تليق بي، وليست من شيمي. تخيّلتك زوجتي في لحظة ضعف. شكرًا لك.

استخرجت من محفظتي عشرة دولارات، وضعتها في يدها وأنا أعتذر. نظرت إليّ بحسرة، وكأنها تأسفت لرفض عرضها، بعد أن شهدت يدي على رغبتي الجامحة بها.

بعد خروجها بقليل، ارتفعت مآذن المساجد تكبر في نداءاتها، تدعو المؤمنين إلى الصلاة. لحظة إيمانية جالت في الفضاء، وكرت على وتين القلب، لتغسل النفس من آثام الشيطان، وتحثني على معاملة الناس بالتي هي أحسن. كانت لحظة ورع، جعلتني أكف عن غيي، وحفزتني إلى الولوج في أجواء التوبة، وتأمل رحمته وجنته تعالى، لأهيئ ذاتي للصلاة.

اتجهت إلى المسجد، وأنا أشعر بانكسارٍ وضعفٍ أمام الله، كمن لزم الصمت لمشواره القادم. طرقت مسامعي أصوات أذان الظهر المنبثقة من مآذن إسطنبول العديدة، تلك الغائرة في بطون المدينة، تحث المسلمين على التوجه لغرف الإيمان والهداية، لغسل النفوس من المآثم، والتروي في أمور الدنيا، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

خرجت العاملة من الغرفة، وخرج خلفها الشيطان يتقهقر، هاربًا، مع ارتفاع صوت الأذان. اتجهت إلى مسجد السلطان أحمد، ذلك المسجد الواسع، مزار الشرف لدى المسلمين. صليت فيه صلاة الظهر مع الجماعة، وأحسست بقيمة نفسي وهي بين يدي الرحمن.

لا أدري بماذا أسمي ذلك. شعرت بذاتي غارقة في متاهة من العقد، انفلاقيات كونية تحدث في أعماقي، تسوقني إلى الشذوذ الفكري. صرت أقرأ فصول شخصيتي العبثية في عيون الآخرين بوضوح. لا أجد وصفًا دقيقًا لها، لذا بتّ أجرد تلك الحالة عن أصلٍ يركبني. صارت الذات الداخلية تماحك ذاتي الخارجية بالهفوات التي تتبعها. حمدت الله أنني لم أكن في موضع يشهرني، وإلا لكانت الفضائح تهز كياني أمام الأهل والمعارف والأصدقاء.

بعد الصلاة، تجولت في أروقة المسجد التاريخي، الذي بناه السلطان العثماني أحمد الأول بين عامي 1609 و1616، ثم اتجهت إلى متحف آيا صوفيا المجاور، الذي يحتوي على مقتنيات الإسلام وما يخص الرسول وآل بيته وصحابته، سلام

الله علـيهم أجمعـين. تـذكرت المـآثر الكبيـرة التـي تركهـا الإسـلام فـي الواقـع العـالمي وفـي الـنفس العفيفـة، وحمـدت الله علـى نعمـة الإسـلام، وعلـى التضـحيات التـي قـدمها أجـدادنا مـن أجـل رفعـة الدين والقيم التي نتصف به.

العقربة

كثيـرة هـي الأحيـان التـي أجـد بهـا ذاتـي مسـيرة فـي خياراتهـا وليسـت مخيـرة، بـت أخـاف علـى نفسـي مـن شـرودها وشـرورها، من أن تزج بي في وهدة عقد ومطبات لا طائل لي بها.

لرهافتهـا بـت أخـاف تجنـي أي فتـاة أصـادفها فـي الطـرق، لـذا حـين رجعـت للفنـدق، بعـد أن عشـت فصـلا دراميـا مـع كرسـتينا البلغاريـة وهـي تتسـكع فـي شـوارع أثينـا، بعـد أن أولغهـا السـكر فـي عـالم الغـي والعبـث، تفاجـأت بـأخرى أشـد فتنـة تجلـس فـي باحـة الفنـدق، وكأنهـا علـى موعـد معـي قبـل أشـد الرحـال إلـى السويد.

فـي باحـة الفنـدق كانـت تجلـس سـيدة ثلاثينيـة غايـة فـي الرقـة والجمـال، قابعـة علـى كرسـيي منفـرد، عينيهـا شـاردتان نحـو مدخلـه، ترتـدي بلـوزة شـفافة سـوداء نصـف كـم، تحلـق رقبتهـا بسلسـلة ذهبيـة معقـودة بصـليب صـغير يفـتن صـدرها الـبض،

بحيث يرفأ في وادي النهدين ببروز واضح، لضغط رف حمالة الصدر من الجانبين والأسفل عليه.

لسحرها؛ هجست للنهدين ألسن تحاكي شبق العين بجدل فاضح، بالذات حول تكور الحلمتين وطراوة الهضبتين. كأنها تود أن تتشبث بعنق الداخل للفندق، كانت قد لسعتني من النظرة الأولى، مع تخطي عتبة المدخل، عقربة أفرزت سم فتنتها بالجسد، لما فيها من سحر وجاذبية.

هجست بالصليب كطائرة جاثية في مدرج المطار. تمنيت أن أكون بذاتي ذاك الصليب لما لتلكم الأثداء من تفلك ولدانة. بحيث ما أن دخلت الفندق؛ حتى استقطبت نظراتي شكلها المفذلك، جعلتني اتحرى عن لمعة الصليب، عن فيض السحر المحيط به والمنعكس منه. كأنه أرسل لي إشارة استغاثة، لأنتشي ضوء ذلك السحر قبل أن أستسلم للقدر، قبل أن تجعلني أميس إلى تلك النهد بحرشة من الفكر والقلب تفقدني صوابي.

من خلال جلستها على كرسيها، علمت بأنها ليست على ما يرام، كمن يكمن في صرتها قلق ما، هجست بها مهزوزة، حائرة، كفراشة تحاول تجنب ريح يستفزها قبل أن تستقر على الوتد، تخفق بنظراتها، سر ما شاق ظرفها جعلها تستغيث بمن يدخل الفندق.

لانبهاري بها هجست بها وكأنها تحمل بعطفة صدرها قطتين من الفراء الفضية، تداعبان قميصها اللدن. بذاتي وددت مداعبة تلكم القطتين بالفطرة، لما فيهن من جاذبية.

كانت الفتاة منعزلة بوحدتها، كأنها تنتظر شخصا ما. لذا حين دخلت الباحة؛ التفتت عليَّ راجية أن أجل عنها ذلك العناء والعبث، أن أجيبها عن سؤالها، حيث قالت:...

- ممكن أستخدم هاتفك للحظة، كأنَّ هاتفي قد فض شحنه.

استجبت لها بسرور وعيني منصبتان على طراوة الثديين، فقلت لها والرغبة جامحة في ملاطفتها:....

- تفضلي يا سيدتي....

أخذت الهاتف وفي ثغرها ازفت ابتسامة لطيفة، صارت تطرق رقما ما مسجلا على ورقة في حافظتها، في محاولتها المكررة لم تجد استجابة آنية، كأنَّ الهاتف المراد حثه يعلن عن ذاته خارج نطاق الخدمة الشبكية... حينها كنت أنظر بنهم لتدفق مفاتن صدرها، تلك التي لم تزغ حدقي عن نضارتها.

بقيتُ شاخصا كالوتد، أعاين على فراء القطط المخفية تحت حمالة الصدر، طافت بأروقة الفتن بشيء من الجرأة وعدم المبالاة، شعرت بأني دغدغت زغب مشاعرها، وكأنها انتبهت للحظة على فجاجتي، لكنها بقيت على رصيدها ووضعيتها

دون مبالاة، لم تغير من شكل جلستها، هكذا تراءت لي كحمامة تخفق بسماء الوله.

لا أدري أن كانت قد أدركت ما كان يجول في خاطري أم لا؟ ولا أدري أن كانت تعمدتْ إبراز مفاتن صدرها أم لا؟ ولا أدري أن كانت بذاتها تهجس راحة بسلوكي وعبثي أم لا.. لكنها تصنعت اللامبالاة..... وبعد تكرار محاولتها أعادت إليَّ الهاتف دون أن تنجح محاولاتها، حينها قالت لي بلكنة إنجليزية:..

- شكرا.... الهاتف لا يشبك.
- هل من خدمة ممكن أن أسديها أليك...
- تأخرت عن المطار وسائق التكسي الذي تواعدت معه لا يرد، وأني أخاف أن تقلع طائرتي.
- متى موعد طيرانك؟
- بعد ساعتين.
- جميل جدا؛ أنا خلال عشرة دقائق أغادر الفندق للمطار، على قدر تهيئة حقيبتي، أن كانت لك رغبة بمرافقتي أكون سعيدا بذلك.
- عظيم، شكرا لك، إذا أنا بانتظارك..
- وهو كذلك.

تركتها وصعدت لغرفتي لأضب حقيبتي، وقلبي المسكين خرج عن طوره، ما عاد يبطل اضطرابه، ظل في سره يخفق بفتنة تلك العقربة، يسرد جنونه لها كآلة المورس، وهو يطرق أذنيَّ بسرعة نبضاته الخلجة، مستفسرا:....

- ترى لِمَ لمْ تستعن بأحد أفراد الفندق وهؤلاء الزبائن من الزوار قبل أن أدخل للفندق؟ ؟ هل فتنت بي، أم القدر قادني إليها؟....

سؤال صار يغز فكري، يحرف ذهني، يدور في رأسي كطائر الصقر، يزرع الشك في قلبي وأنا أضب حقيبتي.

في الحقيقة لم أنتبه على مفاتن وجهها إلا بعد أن عجزت عن مهاتفة سائق التكسي، حينها رفعت رأسها وشكرتني وفي حدقات عينيها نظرة رجاء، لم أفهم لغزها في حينه، لكني كنت سارحا في لطافة تكور عناجر النهدين، تلكم اللاتي شغلنني عن عالمي، نقلنني إلى حيث الصمت والوله. لخمرية بشرتها الملساء و بريق عينيها السوداء.

لم أخفض نظراتي عنها قط، ولم أخجل منها قيد شعرة، لقد ركب الجنون ذهني، وكأني صرت لا أهتم لما سيبدو منها أو سيدور بيننا، وخاصة بذاتي كنت جانحا في فكري خلف المجازفة، لحظة كنت بها زاحف إلى المطار... لحظة هجست بها ذاتي بليدة، غير مهتم لما سيجري وسيؤول. واقف أمامها كشاخص سليط لا يهتز، أبغي أن أسمع منها صوت القدر، وكأني اكتسبت الجرأة من (النايت كلاب)، من ليلة أمس التي شحمت فكري بالغي وعدم المبالاة.

ما أن شكرتني حتى انتبهتُ على مفاتن وجها، تلكم المفاتن التي أوحت إليَّ بعذوبة سحر الشرق، وصفت لي ربيع المفاتن، وجدت في سواد عينيها المسحوبتان ألق واضح. في

شعرها الفاحم أناقة تواكب قزحية العين. لأنفها طلة جبل شامخ على الوجنتين والشفتين، يضفي كاريزما جذابة على مساحة الوجه، توحي للناظر بشيء من الأبهة والكبرياء. كما تعنى بفم مؤطر بشفة واسعة، مغنجة بطفح قرمزي داكن ملؤها حيوية. خيلت إليَّ من دول البحر المتوسط.

وحين وضبت حقيبتي ونزلت للصالة، إذ بها تنظر إليَّ نظرة توسم، يكتنفها شوق ورجاء. لمست في حدقات عينيها تعابير وله شيطانية مشظة، تتقصد قيافتي وشبابي. هالة غريبة من الجاذبية وشحت قامتها، وهي تقف بجوار كرسيها، تشعر بها كأفروديت أثنا، تضفي على شخصها جاذبية ساحرة، لرشاقتها وجميل قوامها الرشيق..

لاحظت ذلك وجعلت ذاتي غير منتبهة، أغشيت مشاعري تماما. قبل أن أدخل الفندق كنتُ قد اتفقتُ مع سائق تكسي أن ينتظرني أمام الفندق ليقلني لمطار أثنا، كانت لوازمي الشخصية قد جمعتها مسبقا في حقيبة صغيرة سوداء، سوى أدوات الحلاقة وفرشة أسنان دسستها في جيب جانبي، ثم حملتها على كتفي... وحين أدركتها؛ وجدتها تزيدني طولا بقدر نفاش شعر رأسها.

استقبلتني بلهفة وبابتسامة ساحرة، سحبتْ حقيبتها الحمراء التي كانت قد أخفتها خلف كرسيها، وهي حقيبة متوسطة الحجم لا تزيد عن حجم حقيبتي.

خرجنا من الفندق معا، توجهنا إلى عجلة التكسي التي كانت تقف إلى جانب من مدخل الفندق. ركبت إلى جانبي في الكرسي الخلفي، هُيء لسائق التكسي الذي لا يجيد الإنجليزية بأنها زوجتي. في مشوار الطريق كنت قد تعرفت عليها ومسكت يدها وعصرت أناملها التي كانت بنعومة فراء القطط، حاولت أن أقبلها، لكني تذكرت عصا الضمير التي تركتها معي زوجتي على حين غفلة، وكأنها هفتت على رأسي، فتجنبت المجازفة هذه المرة.

الفتاة من أصول إيرانية، متوجهة في رحلتها إلى ألمانيا، حيث تعمل موظفة في شركة سيارات مرسيدس المعروفة منذ ثلاث سنوات، كانت في جولة سياحية في دول الساحل المتوسط، حيث ابتدأت من إسبانيا وإيطاليا ثم اليونان، أما مسألة الصليب فأنه لا يعني لها شيء، أنه مجرد موضة ولا يدل على حقيقة انتمائها للدين المسيحي، حتى أنها لا تهتم لإشكاليات مسألة الدين بشكل عام، ربما تكون مجوسية المذهب أو ملحدة، ربما أدعت المسيحية لتمنح إقامة في أوربا، التي تخفي تحت قناع الإنسانية وجهها العنصري..

خلال الطريق كنا قد تبادلنا أرقام الهواتف فيما بيننا، قلت لها وأنا أبغي وصلها ونيلها:..

- جئت لأبحث عن استقرار في أوربا، سأجرب حظي في السويد يا ليلى، في حالة عدم توفيقي، سأحاول الكرة في ألمانيا لأكون قريبا عنك.

- السويد بلد استقرار، ألمانيا بلد عمل، لكن لا تظن أن تجد راحة بال بعيدا عن الوطن الأم، ومع ذلك سأكون في خدمتك متى قدمت يا وائل.
- أن شاء الله.

حين وصلنا المطار ودعتها وكلي أمل أن ألتقيها يوما ما، وقبل أن تفارقني طبعتْ على خدي قبلة، فيها من الحرارة واللاذعة ما تجبرني على تغيير وجهتي، ولكني كنت محكم بتذكرة السفر، وجوازي المزور الذي اقتنيته من صاحب المقهى أنفا.

القبلة تركت أثرا على الخد، كالرصعة، صعب أن اجيلها إلى النسيان. بت أتلذذ لسعِها ودفئها، باحثا في غنجها عن الأمان. ملؤها عذوبة وشبق، تشهق بطيب أنفاسها كزهرة الجنان...

حينها أعدتُ لها قبلتها بقبلة على الخد والشفة المغنجة؛ حتى استمالت بنا الأشواق لغاية التجني، حينها أسرتها قائلا:......

- لك شفة من نار وصدر من مرمر لجماله وسحره.
- شكرا لإطرائك...
- لا أظن أطيل البقاء في السويد، قبتك هذه ستقودني أليك قريبا.
- وأنا سأكون بانتظارك.

قالتها ومضى كل منا لوجهته، بقيت نظراتنا تلاحق بعضنا، وبقيت تلك القبلة التي شطت الروح تستعر على الخد، تفيض حافظة الروح إلى مهاوي نهديها. كأني لم أرَ أنثى بفتنتها قط، بقي طيفها يدور في فلكي، كاللمعة الذائبة في ثنايا الثدي.

مـع وداعهـا كنـت قـد أغلقـتُ رتـاج الـذهنِ والقلـبْ عـن جميـع النسـوة مـن حـولي، بقيت أعـيش خيـال صـمت وذهـول، وأنـا أقطـع تلك الأجواء الغائمة، متأملا أن التقيها ثانية.

أميرةٌ، حتى في نظراتِها - بدتْ كشمسٍ إذا ما انعطفتْ

يميلُ بها الهوى، فترتعدُ - من صخبِ حُشٍّ بما قد عشقتْ

أهجسُ بوجهِها بركانَ وهجٍ - ينثرُ وردًا إذا ما سكتتْ

جائحة كرونا

فـي تلـك الصـالة، وبـين جـدران الانتظـار البـاردة، وجـدت نفسـي أراقـب الوجـوه كمـن يبحـث عـن قصـة تُـروى أو مسـرحية تُكتـب. كنـت أتمعـن فـي الملامـح، فـي الحركـات، فـي الصـمت الـذي يصـرخ أكثـر مـن الكـلام. أردت أن أهـرب مـن غربتـي إلـى خيـالٍ ينسـيني قسـوة اللحظـة، فبـدأت أدوّن فـي ذهنـي ملاحظـات عـن كـل من شدّ انتباهي.

جلسـت قبـالتي فتـاة ألبانيـة، رقيقـة القسـمات، لا يتجـاوز عمرهـا العشـرين. كانـت ترتـدي بجامـة ورديـة مـن قمـاش القديفـة، تنسـاب علـى جسـدها بنعومـة، وملامحهـا تنطـق بجمـال هـادئ. شـعرها الـذهبي ينسـدل علـى كتفيهـا كضـوء خافـت، لكـن شـيئًا مـا فـي حضـورها كـان باهتًـا. بـرود دمهـا غطّـى علـى حسـنها، فلـم أشـعر تجاهها بأي جاذبية، وكأن جمالها كان صورة بلا روح.

إلـى جوارهـا جلسـت فتـاة أخـرى، مـن الكونغـو، ببشـرة داكنـة تتـوهج كجمـرة مشـتعلة. كانـت ملامحهـا حـادة، وجسـدها قـوي، لكـن فـي عينيهـا لمعـانٌ مـن الألـم، وفـي قسـماتها صـلابةٌ تشـي بمشـقة الطريـق. رغـم شراسـتها الظـاهرة، كانـت تحمـل جاذبيـة فتاكـة، كأنهـا جمعـت بـين النـار والنـدى، بـين القسـوة واللطـف، بين التعب والأمل.

بـدا عليهـا الإرهـاق، فاستسـلمت لجسـدها المتعـب علـى الكرسـي، سـاقاها ممـدودتان فـي تـراخٍ يشـبه الاستسـلام، كأنهـا تـذوب فـي لحظـة مـن السـكون. كانـت ملامحهـا تنطـق بالحيويـة، جسـد ثـري، مـبهج، ريـان، مغـنج بالعذوبـة والحيويـة. لرشـاقة السـاقين والبريـق المخفـي فـي ثـأدة الفخـذين والفتنـة فـي بـروز الثـديين المنتبـذين بالبهـاء، جسـدها يعكـس طاقـة دفينـة مـن العذوبـة والبهـاء، لا تُقـارن ببـرود الألبانيـة التـي جاورتهـا. فـي حضـورها شـيء مـن السـحر، مـن الجاذبيـة التـي لا تُفسـر، كأنهـا تنتمـي لعـالم آخـر، أكثر دفئًا وأقل قسوة.

كانـت فـي عمـر الـورد، لـم تكمـل دراسـتها، وانحـدرت خلـف حلـم الهجـرة، باحثـة عـن فرصـة تعيـد ترتيـب حياتهـا، عـن راحـة لـم تجـدها فـي وطنهـا. لكـن الريـاح التـي عصـفت بأمنياتهـا فـي ساكسـونيا لـم تهـدأ، وظلـت تصـفر فـي وجههـا، تـذرو أحلامهـا فـي متاهـات الإجـراءات المعقـدة والقـرارات الجافـة التـي يتعامـل بهـا الألمان، وكأنهم آلات لا تعرف الرحمة.

جـاءت تبحـث عـن بصـيص أمـل وسـط أشـواك القيـد والعنصـرية، عـن حيـاة تليـق بكرامتهـا، عـن سـقف يقيهـا مـن قسـوة الواقـع. وفـي

لحظـة تأمـل، وجـدت نفسـي مشـدودًا لحضـورها، لـيس لجمالهـا الظـاهري، بـل لمـا يشـع منهـا مـن طاقـة إنسـانية، مـن نـور داخلـي يلامـس الـروح. كانـت كأنهـا ضـوء خافـت فـي عتمـة الانتظـار، يـرقص علـى أطـراف الـذاكرة، يـوقظ فـي الـنفس شـيئًا مـن الحنـين، من الطفولة، من البراءة التي افتقدناها في زحمة الغربة.

تلـك الفتـاة جـاءت تبحـث عـن الكمـأة بـين أشـواك العقـد وأحكـام القيـد وفتائـل الإذلال وشـبح العنصـرية، لترفـع سـقف المعيشـة لدرجة المقبولية، قياسا إلى ما كانت هي عليه في بلدها..

لجاذبيتهـا، صـرت أتبـع فتنتهـا بشـيء مـن البلاهـة فهـي مفعمـة بالحيويـة والأنوثـة. أهجـس فـي جسـدها ضـوء يتحـرك مـع شـفق الحـدق، يحـرك مستشـعرات الرغبـة خلـف أفتنـان الجسـد، يـداعب أوتـار الولـه علـى قيثـارة الفكـر، يشـعرني بلسـعة النـار المسـتكينة فـوق طـراوة الفخـذين وتنهـد الثـديين. ضـوء قـد لا يـراه غيـري، ينفـذ مـن فتنـة الشـفاه والبشـرة، يـرق فـي الجسـد كرجـراج القمـر وهو يتمادى بنوره في أمواج البحيرة...

ذلـك مـا دعـاني أن أسـهك عـواطفي برغبـة مكفولـة فـي تلـك المبـاهج، بـت أشـعر بـذاتي قريبـة مـن قطـف ثمارهـا الدانيـة، لـذا تمـادت عينـيَّ بزيـغ نظرهـا عـن قصـد، وجـدتْ فـي قوامهـا الرشـيق بهـاء غصـن غـض، يوافـق عمـق نظرتـي وقياسـاتي إليهـا، لاسـتقامة القـد.... مـا شـدني إليهـا هـو تلـك النكهـة الذائبـة مـن الشـكولاتة بشـرتها، نكهـة القهـوة المـرة عنـد السـهاد، لحظـة تأمـل البحـر عنـد المسـاء. أهجـس بـأكثر مـن ذلـك، للغـنج الرائـب فـي طراوة البشرة ودبدبة الفخذين وأناقة الساقين.

تلك اللدانة والجاذبية واضحة في القد وطراوة البدن، وبالذات في الخيزران الممتد من الكاحل لعنجرة الأرداف. لذا صرت أتحيل الفرص لأستكشف ما في صرة الفتنة من سحر وجاذبية تشد حيويتي وتطفئ نار ولعي بسمرة البشرة.

كانت أكثر خشونة ورقة من الفتاة الالبانية، تلك التي لم أشعر بها أنثى، لضمور الصدر وصفرة الوجه، وانحباس الشفة. لم أجد فتنة واضحة بحبات العنب المعلقة بصدرها، وخاصة كانت ترتدي بجامة شتوية تضمر مفاتن الجسد.

لوحتان تجريديتان مختلفتان في التشكيل، أحداها جامدة عبثية وأخرى حيوية رومانسية. كانت ترتدي تنورة بيج قصيرة فوق الركبة بشبر، وقميص شيفون أبيض منقط بلون البنفسج، مفلج الياقة، تخترقه خطوط مائلة من لون تنورتها، معلقة على كتفها حقيبة نسائية صغيرة صفراء.

كان يجاورها رجل أربعيني من البانيا، ناشف الملامح، أملط، كجبل أجرد، منهك، مصفر الوجه، كان هو الآخر قد شاقه السفر فعانى ما عانى حتى أدرك مرامه..

من جانبي كان يجلس إلى يميني كل من أنس، وحاتم وعمر من الذين صحبتهم معي، وإلى يساري رجل لبناني أربعيني. في البداية ظننته الباني الجنسية، لتقارب ملامح وجهه مع الألباني الذي يجلس قبالتي.

الكل كان مجهدا، الكل لم يأخذ كفايته من النوم، الكل يشعر بالجوع وارتخاء عضلات جسده، النعاس غالب عليهم، مترنحون، كأنهم مخمورون، السُّكْرُ وطأ عليهم.

كانت مطروحة في الصالة طاولة مكتب كبيرة، استغل وجودها شاب جزائري، فأرتمى فوقها لإراحة جسده حتى صار يشخر من التعب. فيما كانت الالبانية مكسورة الرقبة على كتف زميلتها الكونغولية، بينما الكونغولية منحنية الرقبة إلى الامام، مفلجه ساقيها، وبين فترة وأخرى كأن شوكة الحياء تغزها فترتد لوعيها، فتلم تلك الساقين لتستعيد ذاتها.... ثم بعد هنيهة فقط تعود لأدراجها، فاقدة تركيزها وركيزتها، لتكسر رقبتها وتفلج ساقيها، لشدة الأرق والنعاس.

كنت لا أجد مانعا من أن أستغل الفرصة فأسترق نظرة من تلك الأفخاذ الملتهبة لأنها تجلس قبالتي بالضبط وبيني وبينها مسافة ثلاثة أمتار فقط، كنت مجبورا في تبجحي فالقاعة مزدحمة، كنت أهجس بالفتنة اللاذعة هي التي تتبعني، ترشدني إلى الحمامة اللائذة في أيكها وهي تخفق بين الأفخاذ كركة على بيضها، للجاذبية المراءة، المنبثقة منها كشعلة جمر تتقد في سمارها.

مع كل نظرة أهجس بها تلسع ذاتي كعقربة، أحيانا أخجل من ذاتي، فاغض الطرف عنها، ثم أجد نفسي لهجة تتبع فتنتها، لا أقاوم ضعفي، فأعود أبحث عن تلك الحمامة في ديجور ذلك السقم والعذاب، منشدها بسر اللمعة المدفونة في جوهرة البشرة..

لـم أسـتطع أن أغـض الطـرف عنهـا، ولعـدم وجـود كـراس أخـرى شـاغرة، لـذا تجـدني شـارد الـذهن، مهـووس بتلـك السـيقان الملهمـة. كلمـا قارنتهـا بـالجمود القـابع فـي وجـه الألبانيـة؛ أرتـد إلـى نفسـي، فـأحرق زغـب شـرودي فـي اللهبـة اللافحـة مـن صـدرها وافخاذهـا. لقـد جعلتنـي أشـذ عـن طبعـي، فأميـل ميـل المراهقين، بعيدا عن فكر الزمرة المحيطة بي.

رجـال الامـن كـانوا أربعـة، جمـيعهم مـن كبـار السـن، أحـدهم قصـير القامـة، ذات كـرش واضـح ووجـه طفـولي دائـم الابتسـامة. كانـت مهمتـه نقـل مـن يـتمم فحصـه للمشـفى، لغـرض تكملـة إجـراءات الفحـص بتصـوير أشـعة إكسـترا للصـدر، ثـم يعـود بهـم لكامـب الحجـر الصـحي. وآخـر كـان متزنـا بعملـه خلـف أجهـزة الكومبيـوتر لتجهيـز هوايـات الأوسـفايزر للمهـاجرين، فيمـا الثالـث كـان يرتـل برجلـه اليمنـى، نحيـف الجسـد، ناشـف الوجـه، شـاحب اللـون، ذات أنـف طويـل كمنقـار اللقلـق وشـارب مشـظ فـي الوجـه كأشـواك الصـبير المنتبـذة، تخفـق فـي عينيـه الزرقـاوين لمعـة غـيض وحقـد إزاء المهـاجرين. تكفـل بواجـب نقـل ملفـات المهاجرين بين الإدارة ومكتب تجهيز هويات الأوسفايزر.

فيمـا كـان الرابـع مسـكينا، محتـارا بنفسـه لفـرط سـمنه وشـذوذ طولـه، ربمـا محـيط بطنـه وعنجـرة عجيـزه تتجـاوز محـيط دائـرة بقطـر متـرين، إذا مـا أخـذنا طولـه الفـارع الـذي يتجـاوز المتـرين بعشـرين سنتمتر. كنـت قـد مثلتـه بخـزان نفايـات، وهـو يتحـرك فـي الممـر أشـبه بغـول غابـات أفريقيـا. أنـه أضـخم الجميـع، تشـعر بكـل فردة من بنطلونه بحجم كيس نفايات البراميل، لفرط سمنه.

كانـت فتـرة الانتظـار مملـة جـدا، تجـاوزت حـدود السـاعتين دون ان يـدخل شخصـا مـن مجموعتنـا لغرفـة الفحـص، بسـبب انشـغالهم فـي المجموعـة التـي سـبقتنا. بعـد تلـك الفتـرة العسـيرة نـودي علـى الألباني وأثنين من الافغان ليدخلا غرفة الفحص.

خـلال فتـرة الفحـص كـانوا قـد تـأخروا كثيـرا، حينهـا سـألني الـذي يجلـس يسـاري، كـان كلامـه بطـيء جـدا، وكـأنَّ شـحن بطاريتـه قـد فضـت طاقتهـا، لـذا توقعتـه مـن أصـول ليسـت عربيـة، ثـم أنـه تكلـم معي الفصحى، حيث قال:.....

- لـــــمـمـمـــاذاااــ تأخـــرووواااا.........

كأنه لم يتقن العربية، فقلت له:.....

- ما شاء الله أنت تتكلم العربية الفصحى، أين تعلمتها؟

قال:....

- يـــــاااا أخـــــــي اانـــــــاا عـــــــربي مـــــن للبـنــــاان...هههههههه.

صـرت أضـحك عليـه وأقهقـه؛ حتـى دمعـت عينـاي ههههههههـه، حيـث فـي المـدة التـي تكلـم بهـا الكلمـة، اسـتطيع نطـق ثـلاث جمـل، فقلت له ضاحكا:..-

- ما بك؟ لم انت بطيء الكلام؟

قال وهو يضحك:..

- لقد تعرضت لحادث، فأجريت عملية في الحنجرة والمريء.

كأني حركت الدم في جسده فصار يضحك ويهتز على ضحكي...هههههه. بصراحة أستخطيته، لكني كنت متعبا، فلم أعر أهمية له، كنت أود أن أشغل بالي بأي شيء لأنسى همومي وهم الهجرة، وخاصة تلك السمراء كانت قد شغلت بالي بجاذبية سيقانها، فصرت أتبع فتنتها بين الفينة والفينة..

ما أن يداعب جفنها الوسن؛ حتى ترتخي عضلات جسدها كغصن ذاو، فتفلج الساقين، فتبدوا الحمامة نائمة في عشها. كانت ترتدي لباس بكيني أسود اللون.... ما أن يرتد لها وعيها؛ حتى تعاود لملمة ساقيها. كأنها كانت تدرك بأن هناك من يتبع مفاتنها.

بعد مدة تجاوزت النصف ساعة عاد الألباني لمقعده بوجهه المتعب، فخطرت في بالي قصة نتيجة الإرهاق الدائب في وجهه.

في البداية لم أكن منتبها على لباسه وعندما عاد لفت نظري تمزقات بنطلونه من موضع الركبة والحجل، وتراخ في لبب قميصه المفلج أزراره، تهجس به بوهيمي المنشأ، حينها قلت لعمر وحاتم وانس الجالسين يميني:..

- انظروا إلى الألباني، لقد ذهب سليما معافى، وحين عاد؛ عاد ببنطلون ممزق وبوجه شاحب وقميص مقطع أزراره، كأنه حين دخل غرفة الفحص، أحدهم بصق

بوجه، وما أن التفت عليه حتى صعقه أخر بعجل على قفاه ليسقط أرضا، ثم سحله الثالث على البلاط ليدلقه خارج غرفة الفحص. هههههه.

هههههههههههه، وما أن أكملت كلامي؛ حتى ضجت القاعة بقهقهة شديدة، صارت الدموع تنهمر من العيون، صرت أضحك على ضحكهم، صار الكل مستغربا، يا ترى ماذا جرى ليغرقوا بالضحك؟ لا يوجد ما يلفت النظر...ههههههه..

بعد أن هدئنا بفترة وجيزة جاء الشرطي البدين الضخم مناديا على شاب افغاني، كان الافغاني وهو يمشي إلى جانبه كأنه صعلوك قزم، قُيِدَه من يده ثم سحبه لداخل الممر، فقلت لأنس وحاتم:...

- الظاهر هذا الشرطي لم يفطر هذا اليوم، أخذ الأفغاني يتغدى به.... هههههههههههههه.

هههههههههههههه، لم نستطع كبح جماحنا، كأنما انشقت اشداقنا بالضحك والكركرة العالية، شهقت أنفاسنا، صرنا نبكي من شدة الضحك، الوجوه تلتفت علينا، ترمقنا بنظرات استغراب، دون أن تفقه سبب ضحكنا، دون أن تعرف شيئا عن مغزى حديثنا، لأن معظمهم لا يجيدون العربية، كان الموقف يوحي إلينا المشهد دون عناء.

استمر هذا المنوال فترة قصيرة، كأنه نزل وحي الإلهام على فكري، نسينا بها أنفسنا وشزر هم الهجرة والانتظار. كانت الوجبات تذهب للفحص وتأتي متأخرة دون أن نعرف السبب،

حتى فرغت القاعة ولم يبقى فيها سواي والفتاة الالبانية ورجل تركي..

قبل أن أدخل غرفة الفحص جاءوا بوجبة غداء لنا، حينها كنت منهكا من الجوع، فأخذت قطعة خبز إضافية من الكيس، لكن الشرطي الحانق ذات الشوارب الشوكية سحبها من يديَّ، فوجت في سلوكه إهانة لي، واجهته بحفظ كرامتي وبذات الكيفية، دلقت صحن الأكل عليه رافضا أكله، فلم يتأسف أو يتراجع عن موقفه قط، أخذ الصحن والخبز دون أن يلتفت إليَّ، تركني ألوب من الجوع في الصالة ببطني الخاوية حتى جاء دوري في الفحص....

حينها اقتربت الساعة من الرابعة والنصف مساءً، دخلت غرفة الإدارة، اللذين طلبوا مني التوقيع على بعض الاوراق، ثم سألوني أسئلة عابرة، أن كنت أحمل نقودا في جيبي أو جواز سفر وكيف دخلت ألمانيا ولم أخترتها....الخ من أسئلة روتينية باردة تشبه سلوكهم.

بعدها دخلت غرفة الطبيب ليأخذوا عينة دم لغرض التأكد من خلوي من مرض جائحة كرونا، كانت الطبيبة بنفسها تأخذ العينة من المراجعين...

حينها عرفت سر تأخر المراجعين في غرفة الفحص....

وجدت الطبيبة كهلة جدا، شمطاء، كان قد لصغ الجلد على العظم لشدة كهولتها، نحيفة البدن، تعاني من شلل نصفي، لأنها كانت تزحف بقدمها الشمال. أقدر سنها في التسعين من العمر.

كانت بذاتها تسحب عينة الدم، لذا في محاولتين أخطأت العثور على الوريد، صارت تبتسم بوجهي لأستميحها العذر وهي تسحب الدم وتقيس ضغط الدم..

صرت أعاونها على عملها، أربط حزام ضغط الدم على الساعد، وأشد ربله على العضد لينتفخ الوريد ويبان موقعه.. جربت ثلاث وخيزات إبر في ظاهر الكف؛ حتى تمكنت من سحب الدم.. في كل مرة كانت تعتذر مني لرجفة يدها وضعف قواها، فكنتُ أبتسم لها، وأقبل اعتذارها... بعدها خرجت من غرفتها قرابة الخامسة مساءً لأكمل إجراءات الفحص في اليوم التالي.

الزنبقة

أسميتها "الزنبقة"، لرقتها وأناقتها وخفة ظلها، ولسمرة بشرتها التي تشع دفئًا كضوء الغروب. إنها أميمة، الفاتنة الفتية، ابنة العشرين عامًا، تبدو في تكوينها الرشيق كزنبقة برية في ذروة تفتحها، تنضح بالحيوية والنبوغ، لماحة، ذات حضور يأسر، تحكمها الحنكة وتزينها الأناقة.

في مشاويرها، كانت تنزوي بين فتيات الكامب، تتنقل بخفة بين المطعم والأسواق، تتجنب ضجيج المعاكسات العابثة، وتتحاشى نظرات الشبان الذين يرون في جمالها متنفسًا لغربتهم. كانت تفضل العزلة في زاوية المطعم، أو تختار الجلوس بين النسوة، هربًا من أعينٍ لا تعرف إلا التطفل.

أما في أوقات الفطور، فكانت تفضل النوم على رتابة الوجبات المتكررة، إذ لا فرق بين فطور الصباح وعشاء المساء في ما يُقدّم لنا.

كـان يترقبهـا خفيـة، دون أن تعلـم. وفـي أحـد الأيـام، رآهـا تنحـدر نحــو المطعــم، تمشــي الهوينــا، فقــرر أن يلقاهــا فــي منتصــف الطريـق، خلـف البنايـة الثالثـة المهجـورة التـي تحولـت إلـى مخـزن للتبرعـات. أراد أن يفاجئهـا، أن يبـوح لهـا بمـا يجـيش فـي صـدره مــن شــوقٍ ولهفــة، أن يغــوص فــي أعماقهــا ويكشــف لهــا عــن أعماقه، عساه يجد في قربها خلاصًا من هوسه وغرامه.

انتظرهـا بلهفـة المتيم، يـزداد شـغفًا مـع كـل خطـوة تخطوهـا نحـوه. لقـد تـيم بهـا كمـا تـيم قـيس بليلـى، حتـى صـار يسـاوم نفسـه علـى تقاليـده، ويقتنـع ذاتـه بـأن البـوح ضـرورة لا مفـر منهـا. أراد أن يخطفهـا مـن بـين الجمـوع، قبـل أن يميـل قلبهـا لغيـره، فوجـد فـي اقترانه بها حلمًا وسعادةً وحريةً طالما تاق إليها.

كانـت قـد أسـرته دون أن تـدري، جعلتـه يتبـع ظلهـا كمـن يسـير خلـف نجـمٍ فـي ليـلٍ دامـس. تـراءت لـه مـن بعيـد كزنبقـة فواحـة، يضـوع عطرهـا فـي أجـواء فكـره، فيستنشـق نفحهـا المفعـم بالسـحر والدفـء.

لقـد فكـر بهـا طـويلًا، قبـل أن يقـرر أن يواجههـا، أن يبـوح لهـا بمـا يعتمـل فـي داخلـه مـن ضـيقٍ وشـوقٍ ورغبـةٍ فـي الارتبـاط. كـان قـد صــف شــعره، واحمــرّت وجنتــاه، ورأى نفســه فــي مــرآة ظنــه فارسًا قادمًا من زمن العشاق.

ومـا أن اقتربـت مـن البنايـة المهجـورة، حتـى وثـب أمامهـا كمـن كقــط وجــد ضــالته. فاجأهــا فــي الممــر الضــيق المــؤدي إلـــى

المطعم، وهـي تمشـي بخطـى هادئـة كنسـيم الصـيف، فشـعر بنسـمة فتنتها ترتجف في صدره، تلامس جمرة شوقه.

مـا إن جفلـت حتـى تخضـبت ملامحهـا بـالخوف والحيـرة؛ تغيـر لـون وجههـا بـين سـمرة مصـفرة واحمـرار متـوهج، كأنمـا انسـكبت عليهـا دهشـة اللحظـة. حركـت ذوائـب الشـوق فـي أنفاسـه، وأضـحى كمـن لا يحتمـل صـمته ولا يصـبر علـى وجـده. كـان قـد اسـتعد للقياهـا بجـذلٍ مشـوبٍ بالارتبـاك، بقلـبٍ مضـطرب، وجسـدٍ مهزوز، جرفته رهافته وخواطر فيضه نحو نجواها.

ومـا إن وثـب أمامهـا حتـى تفاجـأت بظهـوره، كـوحشٍ يـود افتـراس حمامـة. ارتعـدت أطرافهـا خيفـة، فقـد أرعبهـا بسـلوكه الأهـوج. لـم تـره مـن قبـل، لـم تنتبـه لوجـوده، لـم تتعـرف علـى ملامحـه، ولـم تسـمع عنـه شـيئًا. ومـع وثبتـه، وضـعت يـدها علـى قلبهـا فـي حركـةٍ خاطفة، تعبيرًا عن ارتعادها، وهي تتساءل في داخلها:

مـن هـذا المجنـون؟ مـا الـذي جـرى لـه؟ لمـاذا تعـرض لـي دون مقـدمات؟ مـاذا يريـد منـي؟ بقيـت مشـدوهة البـال للحظـة، لا تـدري كيـف تتصـرف، ولا كيـف تتعامـل معـه. ففـي لحظـات العصـف المفاجئـة، تختفـي المبـادرة عـن الـذهن، ينسـى المـرء ذاتـه، ويفقـد تركيـزه. وجـدت نفسـها فـي حالـة مـن الـذهول والشـد، يرثـى لهـا. فسألته باستغراب، بصوتٍ مرتجف:

من أنت؟ ولماذا فعلت هذا؟

Please speak English

-I don't know English

I love you

لا إله إلا الله.... حل عني...

I want to marry you

I don’t want to see you again Leave now

But I love you

أمشي العن حظك لابو الي جابك..

دلقتـه بيـدها ومضـت تمشـي فـي طريقهـا للمطعـم، فيمـا بـات قلبهـا يخفـق خيفـة واضـطرابا، أنـتفض جنونهـا، لا تعـرف مـاذا تفعـل حيـال ذلـك الموقـف، كيـف تتصـرف مـع متـيم بهـا، صـارت تهـذي مع ذاتها وتقول:...

"مجنـون، هـي هـي، باكسـتاني... هههههـه، ناقصـة قـرف، لـو كـان عربيـا لقلنـا لابـأس، أنـت.. اسـتغفر الله العظـيم. كيـف أتصـرف مـع شخص همجي؟؟؟؟ اشكيه أم أنتظر؟ أنه يبدو متوحش"....

تركتـه متسـمّرًا فـي مكانـه، وهـي تحوقـل وتسـتعيذ بـالله، تمضـي بخطـوات متسـارعة نحـو المطعـم، وقلبهـا يضـج بـالخوف مـن أن يـتهجم عليهـا أمـام المـلأ. بـدا لهـا سـلوكه وقحًـا، همجيًـا، كأنمـا لـم يلتـقِ بـأنثى مـن قبـل. لا بـأس إن كـان معجبًـا، ولكـن... آه، مـا هـذا الجنون؟

رغم ارتباكها، أخذتها نشوة خفية. طالما أعجب بها، فلا بد أن فيها ما يفتن، بل أشياء كثيرة لفتت انتباهه. وقفت أمام المرآة طويلًا، بحجة غسل يديها، تتأمل ملامحها وتتساءل: ترى، بماذا فُتن؟ بوجهي الناعم؟ ببشرتي التي تذوب بلون الغسق؟ برشاقتي؟ بطولي الممشوق؟ يا إلهي... من حقه أن يفتن بي. كم سمعت هذا الإطراء من شبان وصديقات، فتنّ بي، أغرمنّ، وأعجبنّ بأوصافي. ربما أنا جميلة حقًا دون أن أدرك قدري. إذاً، لا خوف عليّ من المستقبل.

ثم ارتدت لوعيها، وضحكت في سرّها: "ههه... أيه يا هبلة، أين ذهب بكِ التفكير؟ لا زلتِ فتاة مفعوصة، لا ميزة فيكِ. إنه هوس مراهق لا أكثر."

في المطعم، جلست قرب عائلة ليبية، تبتغي الأمان. وما إن أتمّت غداءها، حتى عادت إلى غرفتها برفقة إحدى الفتيات، دون أن تفصح لها عمّا جرى. مرّت من أمامه، وهو لا يزال متسمّرًا في مكانه، لم يكلّمها، لم يتهجم، لكنه غرزها بنظراته الغضنة، نظرات ثاقبة، فيها أسف وشك وريبة.

بقي واقفًا، تتقلب الحسرة في صدره كجمرة تتوهج. أبعدته عن الآخرين قوانين ومحاسبة ومجادلات وأعراف اجتماعية وأمنية تخص الكامب واللغة والعادات، كلها كانت حائلًا بينه وبينها.

يا ترى، ماذا ضمّر لها خلف تلك النظرات الوحشية؟ هجست بها نظرات ذئب، ووحشة فطيم متصحر، يملأ قلبه هيام

أعسر، وحسرة مبالغ بها. أميمة وجلت من تلك النظرات، شعرت فيها بالتباس وتخمين وتحسّب، كأنه مغيّب الذهن، مرهق، متيم. خلف حدّتها يقف تحدٍّ واضح، وتكهنات عقيمة، واستفسارات لا جدوى منها. وجدت في استفزازه مخاطرة يصعب تمريرها.

لشدة رهبتها، صارت تجري بقدميها ويديها، تحاول أن تلقف باب غرفتها بأسرع ما يمكن، لتنكب على سريرها. كانت قد سمعت منه تمتمة خلال عودتها، هذرًا لم تفهمه، لم ترطن له، لكنه أربكها.

المصيبة التي أرهقته، أن أميمة بوجهها العابس الغاضب بدت أشد فتنة مما لو ابتسمت. هجس بنور وجهها وهي جانحة بسخطها، كنور القمر في واحة السحر، فتنة مرهفة، مرآة أرهقت ناظره، أغشت فؤاده. ذلك الألق، كأنه شعل مصابيح تشع في ظلام فكره.

فكّر أن يتبعها دون أن تعلم، ليتعرف على رقم غرفتها، ليعود إليها بعد أن تهدأ، ويفتح لها صنبور أشواقه. عسى أن ترهف له، وتلين أمام عصفه. شعر أنه أخطأ بسلوكه الهمجي، وأراد أن يبهج قلبها بشبابه، بلحظة صمت، عسى أن يقطف منها نظرة إعجاب تريح أعصابه.

خلال تعامله الأولي وجدها صرة معقودة، صعب عليه فك ألغازها وترتيب احجيتها، وجدها جبل أشم، أجرد، منيع، لا يمكن تسلق قمته بالطرق العادية، المسالة تحتاج لحنكة وصبر

ومكر. لذا أعد ذاته لجولة الثانية، جولة يحدد موعدها بذاته، عسى أن يتمكن من سرقة مكنونات جواهرها.

*****

في ساعة متأخرة من الليل، بعد أن تجاوزت هزيعها بساعة أو اثنتين، في تلك اللحظة المغشاة بسكونٍ ثقيل، حيث الناس نيام، كان قد لزم جناح غرفتها، يدور في فلك عشقه كدبور تائه، أو كضليعٍ يترنح في صحراء وجدٍ لا نهاية له. يرتجي ظهور القمر في ليله البهيم، ليسترق منها نظرة ودٍّ تسكنه، تشفي غليله. طرق بابها، أشعرها بوجوده، لكنها لم تستجب، لم تحادثه، لم تمنحه حتى صدىً يطفئ شرر شوقه

غاص بكامل كيانه في وحل غرامها، تيم بها كتيم النوارس على شواطئ البحر، كبل بها كأسيرٍ لا فكاك له. لم يهتم للألسن الممعمعة، ولا للنظرات المشوبة بالريبة، ولا للعناء الذي سيلحق به في تلك الليلة الباردة وهو جالس أمام بابها؛ كل ما أراده نظرة رؤومة، همسة، لمحة، شيءٌ طفيف يطفئ بركان شوقه.

هكذا ظل يجوب أروقة الكامب ذهابًا وإيابًا، ساهيًا، مضطربًا، نافقًا فكره في عصف هواها. مترنحًا، ممسوسًا، مسعورًا بسلوكه المخل، كأنه فقد تركيزه كشارب خمر، لا يعرف سبيلًا يعينه على كسب عطفها أو سرقة نبض قلبها.

صار يصارع الزمن، ينتظرها كنجمة الصبح، دون بارقة أمل في سمائه. ومع ذلك، ظل مرابطًا أمام باب غرفتها، يواصل

تحديه، لا يكترث لنظرات الناس، ولا لوسوسة الشياطين. جاء بجوارحه الجائعة، العطشى، الرهيفة، جنح بفكره نحو شواطئ قلبها، متمسكًا بعهدٍ قطعه على نفسه: ألا يعود خائبًا حتى يمسك بأذناب القمر.

راجع طالعه، عسى أن توائم صفات برجه، الثور، مع برجها العذراء. كان همجيًا في سلوكه، كالثور الذي لا يرى أمامه سوى أميمة، فيما هي، برزانتها وهدوئها، تميل لأدراج العذراء. رآها جوهرة لا تُقدّر بثمن، وهي كذلك: كاملة الأوصاف، رزينة، طرية، بريئة، جميلة المعالم، تمتلك من الخصال ما يخلج الثلج بالنار. تمسك برغبته المجنونة، هجس أنه إن اقترب منها، سيهلك بأحد القدرين: إما يحترق بلظى الجمر، أو يشلّه ثلج العناد. وفي كلتا الحالتين، سيكون عبدًا لهواها.

ترى، ماذا عليه أن يفعل؟ المجازفة أحيانًا تفي بالغرض، وأحيانًا تنقلب عليه. لكنه قدّر الحسبة بدقة، أدرك أن الأنثى الصعبة لا تأتي لجادة الطريق إلا بمغامرة تلفت نظرها، مجازفة تتجاوز عنادها، تفوق سحر فتنتها، تليّن قلبها، تحرف بوصلة القلب نحوه.

لكي تتساوى المعادلة، عليه أن يكسر التباين لصالحه، أن تكون عواطفه أقوى من شخصيتها، أن يخلق طفرة في سلوكه تلفت نظرها.

قرابــة الحاديــة عشــرة والنصــف، خرجــت أميمــة مــن غرفتهــا لتغسـل وجههـا وتقضـــي حاجتهـا، لـم تنتبـه لوجـوده، كـان مختبئًـا فـــي الغرفـــة المظلمـــة المقابلـــة، يراقبهـــا بصـــمت. وفجـــأة، طفـــق أمامهـا كالشـبح، يرتـدي السـكون غطـاءً، كشـيطان أخـرس يسـير خلـف خطواتهـا. هجسـت بـه، التفتـت، وإذا بهـا تتفاجـأ بـه أمامهـا، فقالت بعصبية:

ـــ مـا بـك؟! مـاذا تريـد؟ لمـاذا تتبعنـي هكـذا؟!هو أنـت!!!! تـرى ماذا تبغي مني؟...

-Please hear me رجاء اسمعيني

Lave this place know اترك المكان حالا

أجابتــه بحــدة أوقفــت غــروره، وقــف فــي مكانــه يتأملهــا بتوســل قائلا:...

I want you، I Love You أنا أحبك ، أريدك

I don’t wont أنا لا أريدك

بتلـك الكلمـات الحاسـمة، قطعـت أميمـة عنـه دابـر الطريـق. عـادت مسـرعة إلــى غرفتهــا، خائفــة، قلقــة، وأغلقــت البــاب مــن الــداخل بالمفتــاح، خشــية أن يهجــم عليهــا أو يغتصــبها. ظــلّ فــي خاطرهــا هــاجسٌ يحــذرها، صــوت داخلــي يصــرخ: "كيــف أتخلــص منــه؟ إنــه يلاحقنــي... عينــاه تشــعان شراســة، ككلــبٍ مســعور. لا أحــد

قريب أستنجد به. يجب أن أبلغ إدارة الكامب، يجب أن أوقفه عند حدّه، إنه متوحش..."

هكذا جالت الأفكار في رأسها، ثم عقّبت على وضعها بحسرة: "كيف أنهي مشواري في هذا الكامب وأنا أعيش بين وحوش ضارية؟ هذا يروم وصلي، وذاك يدور خلفي، وآخر ينظر إليّ بنظرة إسفاف وإسفاد... كل يوم أتحسس مضايقات مختلفة. هل أذهب إلى أمي فترة ثم أعود؟ لكنها بعيدة، وإجراءات الإدارة قاسية، لا تبدي أي مساعدة. هل أقدّم شكوى ضده لدى شرطة التحري؟ آه... حينها ستُحسب عليّ مسألة شرف وكرامة، وقد تنقلب ضد سمعتي. لا... لا... دعني أصبر قليلاً. يا رب، مهد لي طريق النجاة، وأعني على مشواري..."

أما ذلك الشاب، فقد بقي مرابطًا أمام غرفتها، يتجرأ أحيانًا ويطرق بابها، يودّ إطفاء جمرة جنونه في تلك الليلة، يطلب مراعاة قلبه بعطفة من لسانها. كانت تلك فرصته الأخيرة. فعل كل ما بوسعه، لكنها لم تستجب. صدمها بعناده، وصدمته بثباتها. لم يستوعب عفتها وقرارها، ولم تستوعب هي غايته وتيمه. أصبحا في مفترق طرق، كقطبين متضادين.

وفيما هو محتار، غارق في غيه، سمع أبو سعيد جلجلة أمام باب غرفته. أراد أن يعرف ما يجري. وما إن فتح الباب، حتى اصطدم بشابٍ غريب، واقف أمام غرفة أميمة. شاب نحيف، مشعشع الشعر والفكر والنظرات، يستند إلى الجدار المقابل، شارد الذهن، مغيّب العقل تمامًا. من ملامح وجهه، تعرف أبو سعيد على جنسيته، فسأله ليلفت نظره إليه:

ـــ "يا بني، ماذا تفعل هنا؟ هل تحتاج شيئًا؟":..

أأنت عربي؟

No

فحاوره باللغة الإنجليزية فقال له:...

Why are you standing here لِمَ أنت واقف هنا؟

Wait for a friend أنتظر صديق.. "قال ذلك . بإحراج وخجل".

But this is not a waiting place? Isn't it better for you to wait for your friend in another place like the mosque? - لكن هذا. ليس مكان انتظار؟ أليس من الأجدر بك أن تنتظر صديقك في مكان آخر كالمسجد؟

No, I'm waiting for him here لا أنا أنتظره. هنا.... "كان صلفا في رده، مستميتا"..

لقد عرف غرضه، لأن هناك من سبقه وطرق باب ميرفت ودوكانا، وهو يحمل ذات الشكل والهوية، وكأنهم متحدين في النية والهدف. لذا واجهه بذات الصلافة، فقال له:...

If you don't go,I will tell the camp administration about you.This place is for families only.

أن لـــم تمضـــي، ســـأخبر عليـــك إدارة الكامـــب، هـــذا المكـــان مخصص للعوائل فقط.

I know,but;...well, I'm going أنــا أعلــم، لكــن؛...... حسنا أني ذاهب.

ذهـب وهـو ضـجر مـن وجـود أبـو سـعيد، ذهـب دون رضـا، كأنـه منـع عنـه قطـران الشـهد. حينهـا كانـتْ قـد تطمأنـت أميمـة بعـد سـماعها صـوت أبـو سـعيد وهـو يجادلـه، فخرجـت للمغاسـل لتغسـل وجههـا دون أن تخبـره بأوليـات القصـة، ربمـا كانـت خجلـة، محرجـة. هكـذا سرت الحالـة ومـن ثم كل مـنهم أنـزوى فـي غرفته، كانت الساعة تجاوزت منتصف الليل...

حـين تـرك المكـان كـان قـد ذهـب بجسـده فقـط ولـم يـذهب بفكـره وروحـه وظنـه مطلقـا. كأنـه فـي تلـك الليلـة لـم تغـف لـه عـين، بقـي سـاهدا، سـاهرا ينـاجي صـبره.. بعـد أن ادركـت السـاعة زُلفـا مـن الليـل قبـل بلـوغ الفجـر. عـاود كرتـه عليهـا مـرة أخـرى بعـد أن ضـمن الجميـع غـارق فـي سـباته، عـاد يربـت بـاب غرفتهـا ربتـا خفيفـا، حيـث منعتـه أشـواقه ولهفتـه مـن الاسـتكانة والاستسـلام، لقد فعل فيـه الشـوق مـا فعـل فيـه الفـراغ الـذي يعـاني منـه الجميـع، حتى تجرد من فكره.

أمـا أميمـة فأنهـا بقيـت عصـامية، تسـمع تلـك الربـت ولا تبـالي لـه، لـم تسـتجب لـه ولـم تفـتح البـاب، تركتـه يتوسـل بهـا توسـل الطيـر المـذبوح. فـي الحقيقـة كانـت خائفـة مـن سـلوكه وهمجيتـه مـن جهـة، وحازمـة فـي موقفهـا مـن جهـة أخـرى. بقيـت طـوال ليلهـا

وجلـة فـي غرفتهـا دون أن يغـف لهـا جفـن، بثباتهـا صــارت سـيفا علــى رقبتــه قطعــت دابــر شــكه بــاليقين؛ حتــى عجــز مــن إدامــة سـعيه ومحاولاتــه، فأضــطر أن يفـلَّ مكسـور الخــاطر مـع شـروق الشـمس وقبـل أن يقـع فــي المحظـور ومـن ثـم تنفجـر عليـه بالونــة فضيحة التحرش، والتي تودي به إلى التهلكة وغياهب السجن.

وفــي صــباح اليــوم التــالي كانــت قــد قــدمت شــكوى ضــده لــدى الإدارة لمعالجــة الأمــر، والتــي بــدورها هددتــه بعقوبــة التحــرش التــي تــودي بــه إلــى الســجن، وذلــك قبـل أن تنقلـه الإدارة لأحـدى القرى النائية لصلافته في ذات الأسبوع...

بتلك الطريقة تمكنت أميمة من أن تتخلص من ملاحقته....

زيارة طبيب

كـــان الخـــامس والعشـــرين مـــن آذار عـــام 2021 يومـــاً مشمســـاً، دافئـاً، يحمـل فـي طياتـه نقـيض مـا كنـت أشـعر بـه داخليـاً. ذلـك اليـوم صـادف موعـد زيـارتي للطبيـب، لمراجعـة حـالتي الصـحية التـي بـدأت تتفـاقم، لا لخطورتهـا، بـل لمـا تثيـره مـن قلـقٍ ورتابـةٍ تـنغص حيـاتي، وتُحيـل فراغـي إلـى هاويـة مـن الهـواجس. لـم تكـن الحالـة مخيفـة، لكنهـا تحولـت إلـى عـبءٍ ثقيـل، يتغـذى مـن وحـدتي بعد فراق زوجتي الحبيبة، ويشتد وطأه كلما مرّ الزمن.

صـــار ضـــغط الـــدم يشـــتط فـــي جســـدي، واختلـــت لـــديّ حـــالات التبـــول، حتـــى غـــدت غيـــر إراديـــة، تـــداهمني علـــى حـــين غفلـــة، خصوصـاً فـي فصـل الشـتاء. عـزوت ذلـك للقلـق، للهـوس، للتفكيـر المسـتمر بهـا. قـلّ نـومي، ذبـل جسـدي، فقـررت أخيـراً أن أضـع حـداً لتلـك المعانـاة، وأن أزور الطبيـب فـي مدينـة كيمنـتس، التـي تبعد عن بلدتي شنيبرغ نحو أربعين كيلومتراً.

ركبت الحافلة في العاشرة صباحاً، وكان علينا المرور بمدينة آوى. هناك، صعدت فتاة رشيقة، لماحة، ذات أناقة آسرة ووجهٍ يفيض بالجاذبية. ما إن رأيتها حتى شعرت بذهول، إذ بدت لي نسخة طبق الأصل من زوجتي، في ملامحها، في طلتها، في فتنتها. جلست قبالتي، لا يفصلنا سوى مقعد واحد، شغلته امرأة مسنة.

لم يكن الشبه في الملامح فقط، بل في الحركات، في البسمة، في النظرة، في العفوية. خُيّل إليّ أنها زوجتي متنكرة، بشعرٍ مستعار، وعدسات ملونة، وبشرة مختلفة. لكن تلك الشامة على حنكها الأيمن، كانت الدليل الذي لا يُخطئ. كيف يمكن أن تكون مصادفة؟! لا، لا وألف لا... إنها هي!

غلبني الشك، وتاه عقلي بين اليقين والحدس. صرت أتمعن في تفاصيل وجهها، في شفتيها، في وجنتيها، في أنفها الشامخ، في كل ما يذكرني بزوجتي. النساء اليوم يصنعن المعجزات في صالونات التجميل، يغيرن كل شيء، حتى أن الرجل قد لا يعرف زوجته إن خرجت من هناك.

انغمست في خيالي، تخيلت نفسي أحتضنها، أقبلها، أذوب في فتنتها، حتى نسيت كل من حولي، نسيت الطريق، نسيت المرض، نسيت الزمان والمكان. كنت أبحر في وجهها، كأنني فراشة تمتص رحيق زهرة التوليب، أرتعش في حضورها، أصطلي بنار جمالها، حتى امتدت شفتاي نحوها، لتطبع قبلة الحياة على وجهها... ثم أفقت.

ما أن دخلت في أتون السهو والسهاد، وقبل أن تطبق شفاهي على تلك الشفاه؛ في تلك اللحظة الحرجة والمراقة من الحلم وأنا اتبع الشغف اللاعج في قلبي ومخيلتي... أقول في تلك اللحظة السعيدة والعسيرة في نفس الوقت؛ كانت قد لسعتني بعوضة من ساعدي الأيسر، جعلتني أجفل لشدة الالم الذي أراقته في موضع اللسعة.. ودون شعور مني صفعتُ ساعدي الأيسر بكفي الأيمن بقوة، ما أدى إلى أنتباه الجميع على صوت الصفعة. ما أن رفعت رأسي؛ حتى وجدت في حدقاتها نظرة تأسف، لا أدري أن كانت قصدت سوء تصرفي وانحداري إلى عالمها الثاني، أم رأفت بها على حالي لشدة اللسعة.

تلك البعوضة الصغيرة، كأنها جاءت من عالمٍ آخر، سرقتني من خيالي، من تلك السكرة التي كنت أسبح فيها، وأعادتني دفعة واحدة إلى عالمي الحقيقي، إلى وضعي الطبيعي، بعد أن اختطفتني نشوة الخيال إلى سعادةٍ مرجوة، كنت أبحث عنها بشغف في ظل الفراغ الذي ينهشني. وكأنها أبت أن ألوك شفاهي بتلك الشفاه الوارفة، فغرست لسعتها في جلدي، فأخذت أحك موضعها بشدة، حتى كاد الدم أن ينزف من فرط الألم.

لا حكم لي على تلك البعوضة، لمَ اختارت تلك اللحظة بالذات؟ لحظة اندماج الروح بالسر الإلهي المراق على شفتين من نور، كأنها وحيٌ مرسل، جاء ليقول لي: "كف عن تطفلك يا مراهق، تحلَّ بالاتزان، لا تتهكم، ولا تتصرم في سلوك عبثي". فعدت إلى طبيعتي، متلفتًا يمينًا وشمالًا، أبحث في

وجوه الركاب عن أثرٍ لما جرى، لكن الجميع كان غارقًا في همه وبحار هواه، لا أحد انتبه، لا أحد رأى.

وبعد هنيهة، عدت إلى شرودي، إلى خيالي، إلى تلك اللعبة التي كنت أزاولها مع نفسي، لعبة التحدي مع تلك الفتاة التي تشبه زوجتي حد التطابق، والتي أيقظت نار أشواقي، وأعادتني إلى زمنٍ كانت فيه زوجتي ركناً من أركان حياتي، لا تغيب عن الذاكرة ولا القلب.

تبع الفكر نظرات العين إلى حقولها الخضراء، إلى ملامحها التي لا تخطئها عين، إنها حقًا ملامح زوجتي، وهل أغفل عنها؟ غير أنها أرشق قليلاً، أكاد أقبض على خصرها بكف واحدة. حين تبتسم، تكاد شفتها تغطي وجهها لنحافته وضمور خديه، لكنها تملك عيون زوجتي، أنفها، شامتها، شفتها... تلك الشفة التي طالما أغرتني، فحسبتها هي، ربما نحفت بفعل الفراق، أو شدة التفكير بي، أو عجاف العزوبية.

عدت للفضول، لأنغمس من جديد في بحر الخيال، لأغور في عالم سحرها، لأغوص في متاهة تلك الشفاه الندية، المغنجة بالجاذبية، بلونها القرمزي المقتضب، كأنها فص عقيق مشبع باللدانة والرقة. صرت كالمستجدي، أتأمل أن أنال قبلة، ولو خيالاً، من تلك العناقيد المتدلية من كروم الفتنة.

مضيت على شاكلتي الأولى، أبحر في شواطئ بحرها، هجست أن تلك الشفاه لا تنفك عن عالمي، بل تدعوني لعالمها، تقترب مني بقدر اقترابي منها، وكأن بيننا حثًا

كهرومغناطيسيًا، انجذبنا نحو بعضنا، صرنا قطبين متجاذبين، مختلفين في الشكل، متشابهين في اللهفة.

تكوّرت الفكرة في ذهني، تلفظ نار الوجد في صدري، ووددت أن أقتلع تلك الشفاه من وجهها لأضمها إلى فمي، صرنا نتجاذب الرغبة والغنج، حتى صارت شفتي تبحر كموجة نحو شاطئ شفتها، تتهادى في صبابة نحو الموقد المتقد، تود أن تتحطم على شاطئها. تمطت بها الرغبة إلى جوفها، هجست بعطب في اللهفة، بدا دخانها يتراقص أمام عيني كثعبان الكوبرا، يميل مع شطط الآهات النافذة من حشا الفؤاد.

وما أن دنت لحظة الاندماج بين المشاعر والهواجس والشفتين لحدود شعرة، حتى صعقتني العجلة بزعيق زمارها الموحش- طاط- دعسة مفاجئة على المنبه، أيقظتني من نشوتي، حين اجتاز السائق منعطفًا ضيقًا بسرعة ورعونة، كاد أن يودي بنا إلى وادٍ سحيق، لولا رحمة الله.

هجست به كأنه كان يراقبني من خلال المرآة العاكسة، دعس على الزمار وكأنه يوجه لي تحذيرًا، يقول لي: "كف عن التبجح، لا تتجاوز حدودك، لا تقتحم حرية الآخرين". كأنه توجس نية سلوكي الجانحة، المراهقة، فصعقني بصوتٍ مدوٍّ، أعادني إلى الواقع.

صرت أسأل نفسي: هل هي فعلاً ساحرة؟ هل هي بشر؟ ففي المرة الأولى غلبتني بعوضة، وفي الثانية أقلعني زمار العجلة. أكاد أشك أنها ليست من هذا العالم...

أهجس بها، تحمل بين كتفيها آية من الرحمن، تحميها من الوحوش الكاسرة، حتى في لحظات السهو والخيال. تيقنت أنها مُسيَّرة ومأمورة، فإما أن تكون ملاكًا طاهرًا، أو زوجتي متنكرة، أو شيطانًا في هيئة بشر. وإلا، فما سر تلك الحوادث التي تمنعني من تخطي حدود الأدب معها حتى في خيالي؟ هل لأني أخالف حدود الشرع؟ أم لأن سلوكي منحرف أمام المجتمع؟

كنت وحيدًا، أتخور في عالم الغياهب، أبحر بقارب من هوس الجنون، من نسيج الحب والخيال، ساعدني على تخطي عجزي لأصل شواطئ عينيها وضفة شفتيها، بشغفي وهيامي بها.

ترى، هل اقترب أحدهم من عالمها كما فعلت؟ هل أخبر أحدهم السائق بما يجول في خاطري ليحميها؟ ربما الكل تخيلها زوجته، الكل شاركني رغبتي، الكل حاول الوصول إلى شواطئها بذات السرعة التي عبرت بها مفازة عجزي وقفار أشواقي، فما كان منها إلا أن تنبهت، فأوقفت السائق همجيتنا.

بقيت أفسر سر التشابه الكبير بينها وبين زوجتي دون جدوى. هل فعلاً خلق الله من الشبه أربعين؟ إذاً، من الإنصاف أن أتزوج الأربعين المتشابهات، لأني أغار على زوجتي، ولن يختزل حبي لها قيد شعرة، ولن أسمح لأحد بالعبث بها ولو بنظرة.

هكذا أردتها، وهكذا تعلقت بها، رغم الفراق الذي حال بيننا دون إرادتنا. شعرت أني أحق بها من الجميع، أحق بتلك الفاتنة التي تجلس قبالتي. ما الذي دفعها إلى ذلك المقعد؟ لا بد من سر خفي، سر يجمعنا، جعلها تركب ذات الباص، تجلس وجهاً لوجه أمامي، حتى تقيدتُ بمحاسن فتنتها.

أنا لا أؤمن بالمصادفة، فحين أكون بكامل قواي العقلية، لا تكون المصادفة إلا خيطًا من خيوط الأسرار الغائرة في ما وراء الطبيعة. جعلت عجلة الحياة تسحبها من واقعها الرزين لترميها في حوض واقعي العبثي، لتحملني رزء تلك الفتاة أو تكشف لها سري.

قررت، إذا ما توقفت العجلة، أن أتقدم لها وأصارحها بكل ما اختلج الفؤاد من لاعج وعاطفة. ترى، هل لمحت إعجابي بها؟ أهجس بها تعيش في عالم آخر، عالم يفيض بالأشواق والحنان، بعيد عن عالمي الرمادي. لذلك، كان علي أن أبقى بعيدًا عن المحيطين بي، لأنغمس في أتون عالمها مرة أخرى، متمسكًا بخيط الخيال الذي يرشدني لشواطئ شفتيها، لأتبع ضوء الفتنة عن قرب، لأركب صهوة جواد القلب، متبعًا صهيله الذي سيوصلني إلى قلعتها بشيء من الحذر والتبصر.

قطعنا شوطًا طويلًا من الطريق، دون أن أهجس بالوقت المهدور بيننا. التفت يمينًا وشمالًا، لأنسل من قبضة المحيطين بي، لأرجع باشتهاء لعالم الخيال الواسع. وجدت الكل منشغلًا بذاته، ربما غصوا بفتنتها، أو بعالم أزواجهم، أو بكأس النبيذ المتخمر في وجوههم.

لشـــدة ولعـــي بهـــا، صـــرت لا أعيـــر أهميـــة لمحيطـــي، كـــأني تجـاوزت حـدود الأدب والمنطـق، لأنهـا فـي نظـري زوجتـي، ولـي الحـق فـي مغازلتهـا. لمحـت فـي وجنتيهـا شـعلة تضـيء جـدران الخيـــال، أحاطـــت الشـــفاه بومضـــة خافتـــة مـــن ضـــوء قنـــديلها، أضـحت كثمـرة ناضـجة تخفـق فـي الغصـن، كقمـر يسـطع فـي الليل.

هـي لا تختلـف عـن زوجتـي سـوى بلـون البشـرة ونحافـة البـدن، فلـو وضـعت شـيئًا مـن الأسـاس علـى سمارها، لتكـون هـي بعينهـا. أشك بلون عينيها، وأظنها عدسات موضة.

عـــاد بـــي الخيـــال لواحـــة الغـــزل، لحالـــة التســـامي والانصـــهار، للملاحــة فــي ذلــك الوجــه المنبســط، متــأملًا تلــك الشــفاه الغضــة. حاولـــت أن أغمـــض عينـــي لأكـــون قريبًـــا منهـــا، لأتحســـس جلـــد الجاذبيـة، لأشـعر برقـة تلـك الشـفاه، لأغـوص بفـج الفتنـة وحيـدًا، كما تفعل النعامة حين تدفن رأسها في الرمل هربًا من العدو.

تخيلتهـــا زوجتـــي، تتحـــرك أمـــامي، تبتســـم لـــي، تضـــحك علـــى قـدري، علـى شـدة ولعـي بهـا، كأنهـا أدركـت نجـواي وهيـامي بهـا. حتى أني شككت بأنها زوجتي الحقيقية، تتلاعب بمشاعري.

فتحـت عينـي للحظـة، فوجـدت وجلـي وهوسـي يسـيح كرغـاء زبـد البحـر علـى شـواطئ شـفتيها. ومـع أنـي فتحـت عينـي، إلا أنـي لـم أغـــادر ســـقف الخيـــال، بقيـــت أتـــأرجح بـــين وجـــه الفتـــاة ووجـــه حبيبتـــي كبنـــدول الـــزمن، طارقـــا ذاتهـــا بنـــاقوس أشـــواقي، أغمـــض

عينـي تـارة وأفتحهـا تـارة أخـرى، لأتـأرجح بـين الحقيقـة والخيـال، أغتني بسعادة آنية وأنا ألتقي زوجتي عبر مجسات التخاطر.

هجسـت بالـذي يجلـس بجـانبي وقـد انغمـس بوحـل الوسـن، أسـمع شـخيره يطـرق مسـمعي، بينمـا كنـت أهـرب مـن عـالم الـوهم لعـالم الثبــات. أرى الــذي يشــدني إليهــا هــو خــيط نــور يختــرق ســدم الفراغ، يرسم قبلة حياة على تلك الشفاه.

ومـع درجـات التـأني، كـدت أصـل شـواطئ قلبهـا، أرى الضـوء المشـع فـي شـفتيها يجـذبني كفنـار السـفن، يزهـق أرقـي وهـواني بلهفـة. أضـحت تلـك الصـورة تلتصـق علـى صـفائح الظـن كجمـرة عابثـة، تلسـع يقينـي. انغمسـت بأنفاسـها وبلـون فتنتهـا، هجسـت بهـا تشاطرني الرأي والرغبة.

مـا أن ولجـت ذاتـي بعالمهـا، حتـى أدركـت لحظـة قطـف درتهـا، تلاشـت المسـافات، صـارت تقتـرب مـن الصـفر، صـرت أتحسـس أنفاســها وطــراوة بشــرتها، أتشــوق لهــا، ألهــث خلــف محاســنها، هجست بروحي ترتع بأساس بشرتها، تغدق بمفاتنها...

وقبـل أن تمـيس شـفتي زبـد شـفتها، وأنهـي فصـل تلـك الـدراما، دعـس السـائق علـى نـابض الوقـوف، اهتـزت العجلـة، وكـدت أن اصـطدم بـالعجوز القابعـة أمـامي، لـيعلن انتهـاء مشـوار الرحالـة. ارتجـت أعصـابي مـع ارتجـاج العجلـة، وهـي تقـف فـي محطتهـا الأخيرة...

صـحوت مـن غفـوتي، مشـدوه البـال، مشـتت الفكـر، عينـي تـدور في أروقة الفتاة، أيقنت أنها محمية بسر إلهي.

غادرت العجلة، تبعتها، كل أملي أن أفضي لها مشاعري. وقبل أن أربت على كتفها، أرتمت في حضن شاب وسيم كان ينتظرها في موقف الباص...

عندها توقفت عن شرودي، عدت خائبًا إلى عالمي الحقيقي، أجر خطى المرارة، متجهًا إلى عيادة الطبيب. أمشي، وتلك الصور تتقلب في ذهني، بشيء من الحسرة والألم، كشاشة تلفاز تعيد تسلسل الأحداث، من لحظة ركوبها العجلة، إلى لقائها بذلك الشاب الوسيم. أعيش أدوار اللحظات وأنا مأسور، عائد إلى ساحة الفراغ التي وددت أن أهرب منها.

البار

مشهد البار: حين يتسكع القلب في دروب الذاكرة

خرجت من العيادة كمن نجا من موتٍ مؤجل، لكن النجاة لم تكن خلاصًا، بل بداية تيهٍ جديد. نصائح الطبيب كانت واضحة: غيّر نمط حياتك، تحرّك، سافر، اقرأ، أحب، تنفّس... لكنني كنت كمن يجرّ جسده في الشوارع، لا يملك من أمره شيئًا سوى ذاكرة مثقوبة، وأفكار تتناسل من بعضها كأشباح الليل.

الشمس كانت ساطعة، والناس تمضي في الأسواق كأنهم يعرفون وجهتهم، أما أنا فكنت أجرّ خطواتي كمن يسير في حلمٍ ثقيل، لا يدري إلى أين، ولا لماذا. فجأة، طفت على سطح الذاكرة صورة حبيبتي، كوميضٍ خاطف، كضوءٍ مراهق تسلل من نافذة القلب، فاض بي الشوق، وتبعثر وجهي في ملامح

كل امرأة مرّت بجانبي، كأن دخان الحنين يتصاعد من أنفاسي ويشي بجنوني.

في لحظة ضعف، وجدت نفسي أمام باب بارٍ صغير، لا يحمل من الفخامة شيئًا، لكنه بدا لي كملاذٍ مؤقت، ككهفٍ أختبئ فيه من ضجيج الذاكرة. دخلت وأنا أجرّ خيبتي، لا أبحث عن نشوة، بل عن نسيان. لم أكن أعرف تقاليد المكان والشرب والسكر، ولا أعراف السكارى، كل ما لديّ هو صورٌ من أفلامٍ قديمة وتجربة يتيمة لا تصلح أن تكون مرشدًا.

جلست في ركنٍ قصيّ، على كرسي خشبي ومنضدة زجاجية، تحت أضواء فلورسنتية خافتة، والجدران مكسوة بأقمشة قطيفة حمراء توحي بأجواء مسائية، كأنها تحاول أن تخلق وهمًا من الألفة. الصمت كان يصفّر في الأرجاء، والذاكرة تعجّ بالضياع.

جاءني النادل، وتحدث بلغة لم أفهمها، لكنني لفظت كلمتين: "ويسكي" و"بيرة". فهم المغزى، فالألم له لغة عالمية. عاد بعد دقائق، يحمل صينية صغيرة، عليها كأسٌ من الويسكي، وآخر من البيرة. وضعت يدي على الكأس، كمن يضع يده على جرحٍ قديم، وارتشفت أول قطرة، لا لأجل الطعم، بل لأجل أن أزيح عن كاهلي عناء اليوم، وأغسل بالسكر ما علق بالروح من تعب.

في تلك اللحظة، لم أكن سوى ظلٍّ يتسكع في دروب الأشواق، يبحث عن ذاته في زجاجة، عن خلاصٍ مؤقت، عن نسيانٍ لا

يدوم. كنت أظن أنني أغيّر نمط حياتي كما نصح الطبيب، لكنني كنت أمارس نوعًا آخر من التغيير... تغيير عبثي، لكنه الوحيد الذي استطعت أن أحتمله.

كأس من الويسكي وقارورتي بيرة وصحن من النقل.

صرت أحتسي الشراب دون أن أبالي بمن حولي، كأنني أخلع عن نفسي عباءة الحذر، وأرتدي قناع اللامبالاة. بل وجدتني أقلد الجالسين في ارتشاف الكأس الأول، كأنني أتعلم طقوسهم في التوحد مع الكأس، في الانفصال عن العالم. ومع اندماجي في الشرب، هجستُ بوجود شرطي أو حارس للبار يراقبني، خُيّل إليَّ أنه واقف أمامي عند المدخل، يحدّق في سلوكي وتصرفاتي بقصدٍ مريب، كأنما يشك بي، ربما لأنني غريب، وربما لأنني لأول مرة أدخل هذا المكان.

تسللت إلى ذهني فكرة أنه جاء ليراقب عبثي، يبحث عن أسراري كمخبرٍ متخفٍ، ما أزعجني أنه يراقبني دون الآخرين. في وجهه علامات فارقة، كوجه مجرمٍ مشفّرٍ بمطواة، وجهٌ جهم، ناشف، خالٍ من الرحمة والمغفرة، فيه مجانة وعنف وصلافة. بقي واقفًا في مكانه كعمود نورٍ بوجهٍ شيطاني، لطوله الفارع وضخامته، ظننته شيطانًا يراقبني وحدي، يبحلق في وجهي، وفي عينيه نظرات شزراء وأنا أحتسي الخمرة.

بتُّ أنظر إليه بين الفينة والأخرى بوجس، أهجس بشعلة غضبٍ تنفر من منافذ وجهه، لا أدري لماذا يراقبني، ربما كان

موجهًا من صاحب البار، فالسكيورتي عاملٌ بأجر لاستتباب الأمن، لكن بصراحة، انزعجت كثيرًا من وجوده، من تتبعه لتصرفاتي في مكانٍ يفترض أن أمارس فيه حريتي المطلقة، فما بالك إذا كان رجل أمن؟ أنا ما دخلت البار إلا لأزيل هالة الكآبة من على الفكر والقلب، لأريح ذاتي، وأستلطف نفسيتي بكأسٍ من الجعة.

كان واقفًا في الظل، تنعكس على وجهه أشعة خافتة، متذبذبة، هجستُ به كلوحة جدارية ترتع بقبح الصفات، من تبجحٍ وجسارةٍ وغثاثة. ومن خلال ملاحظتي خلال فترة وجودي، بدا لي أنني الوحيد الذي يهتم بشأنه، صرت أراه بضني وضميري وخيالي، تراءى لي يتحرك في مكانه مع موجات فكري المضطرب، يراقب حركاتي، يسجل ملاحظاته، ربما لكوني جديدًا على المكان، وربما لأني غريب، فظن أنني لص أو مجرم، هكذا قرأت فكره.

هكذا خُيّل إليَّ ذلك الشرطي، دخل مع دخولي البار، ليقف في زاوية المدخل، يتجسس على سلوكي ومجانتي. في البداية شعرت بضيقٍ نفسي شديد، ثم مع الوقت تناسيت وجوده، وأقحمت ذاتي في تجربة التغيير التي وددت بها أن أفك كربي، فلم أجد طريقة أنجد بها نفسي المريضة من مخمصة التفكير السلبي الذي لازمني وماحقني، سوى أن ألجأ إلى البار الذي صادف وجوده أمامي. لكن وجود ذلك الشرطي نغّص رغبتي.

قررت أن أستمر في غيي، غير آبهٍ بذلك الشاخص أمامي، أهملت وجوده، وتناسيته، وصرت أحتسي الجعة دون مبالاة.

كأسًا تلو كأس، حتى ثملت، حتى تراخت ساقاي، وخَلَّ الجسد تماسكه. حتى فضّ المخ شحنات الهم والغم، وتخلى عن كل شاردة وواردة دخلت صفحاته. صارت الذاكرة ككويكبٍ يدور في فراغٍ لا يحتوي سوى صور زوجتي، وهي تبعث بإشارة استغاثة من بعيد.

أضحى فضاء مخيلتي معرضًا لصورها، كتلفاز يتقلب بصورها؛ خلتها تمشي معي، تضحك، تمازحني، تلاعبني. أدركتُ خيط الجنون، كأنه أرشدني إليها، حثني على نداداتها، لأخطفها من يد القدر. أجيلها من عبث تلك الوجوه العابسة من حولي، الذين لا أفقه لغتهم ولا أطيق سقمهم وشعوذتهم.

تماهت صورها بسدم الفراغ، بتُّ أبحث عنها في صحف الأمس. كنت أدرك أنني أبحث عن المستحيل، حيث غارت الأمور في لجم العقد، بسبب شساعة الفراغ المحيط بي. فراغ يؤطر فراغًا، داخلي وخارجي، والذهن مشتت، لا يطمر الذاكرة سوى اسمها، تلك التي تركت ندبًا من الشك في قدرتي على تخطي عجزي ونيل مرامي.

هكذا صرت أدور في متاهة من العبث والجنون، في ظل مراقبة الشرطي الماثل أمامي دون هوادة. أدور في معمعة لا أعرف كيف أخرج منها، لأقطع الشك باليقين، وأعيد ذاتي لأجواء ما قبل الهجرة، أو ما قبل السكر.

انهمكتُ بشيء لا أعرف له اسمًا، صورة غامضة لا أستطيع تحديد ملامحها، كضوءٍ يتراقص أمامي، كطائرٍ الستل العملاقٍ

ينهش وجودي وتأريخي. صورة مختلقة من ألوان عبثية، لا تبرز فيها سوى خطوط شك داكنة، جعلت فكري يضمحل في طياتها، ونقلتني من عمقٍ إلى عمقٍ أظل، بحثًا عن يقين، عن عالمٍ حرٍّ يأويني.

تشبثت بذلك الوهم مضطرًا، راغبًا في الخروج من قوس الشك المعتم، للعودة إلى عالمي الحقيقي. حسبت نفسي عائمًا في مدٍّ من الفراغ، كطائرة ورقية، أطير في أجواءٍ عاصفة، لا أدرك حقيقة قدري، ماضيًا بصمتٍ في سدم السكون، لا أسمع سوى همسٍ يأتي من خلف حاجزٍ خفي، يدعوني لاتباعه.

خرجت من البار متأبطًا صبري، متبعًا ظني خلف هاجس حبيبتي. اصطدمت بذلك الشرطي الذي هجست به يراقبني، تحسست جسده، فلم يكن سوى ستارة جانبية يعتليها مصباح فلورنسي خافت، تتحرك مع الريح، بدت لي كشبحٍ تحت الأضواء المتداخلة.

خرجت دون وعي، دون أن أدفع قيمة المشروبات. ما إن مسكت ذيل الشارع حتى تبعني النادل، يناديني بأعلى صوته، دون أن ألتفت إليه. لحق بي على أول الرصيف، صار يكلمني بلغة لا أفقهها، للغيلان الذي ركب أدراج مخي، ولعدم فهمي للغته.

كنت قد تركت عالمي الواقعي، أبحر في عالم المجون، مبتسمًا في وجهه، فاقدًا للوعي، لا أفقه ما يدور حولي. تحسست يده حين دسها في جيبي، أخرج محفظتي، سلت منها ما سلت، ثم

أعادها الى سترتي، ثم دلقني بيده. لا أعرف كم كان معي من نقود، وكم سلب مقابل مستحقاته.

هم بائعو الجور والذمم، يستغلون من هم على شاكلتي، يسرقون ما تطاله أيديهم. لم أدرك ذاتي إلا بعد عودتي للمنزل، لا أدري كيف عدت، وجدت المحفظة تصفر، خالية إلا من هويتي وبعض اليوروهات. ربما أخذ أضعاف القيمة، فهم يستغلون المتعاطين، ومن حقهم ذلك، فمن الذي أجبرهم على صرف تلك المبالغ في المباغي والبارات؟

أيكون الإنسان إنسانًا وهو يبحث عمّا يجعله حيوانًا؟ أيكون ذا عقلٍ وهو يشتري وجع رأسه ودوخته بالمادة التي يعيش بها؟ وما جدوى أن يسكر الفرد ويرمي مصروفه في قنانٍ تفقده كرامته وشخصيته ومذهبه؟

تراخت أعضاء جسدي، صرت أمشي في الشارع دون يقين، أهجس بساقي تطير فوق الرصيف كغزالة تهزع بحقول خضراء. الأرض تهتز تحت قدمي، شعرت بنشوة مطلية بالسخط، وهوانٍ يركبني بشيء من الحسرة.

وأنا ماضٍ في طريقي خلف هاجس صوتٍ يطنب أذني، وجدت ذاتي تنحدر خلف فتاة آية في الجمال، وكأنّ الصوت آتٍ من لدنها. كان اليأس يدفعني لاحتضان حبيبتي قبل أن أحتضر، فتبعت خطواتها، هجست بذاتي مأمورة من شيطانٍ تلبسني وأغواني.

بدت لي بألق زوجتي، ترتدي قميصًا مقورًا من الظهر، كاشفة فتنة المتن. ظننتها زوجتي، ميزتها من الخال على كتفها، ومن طراوة قدّها. تبعتها، ففاض بي الشبق لمعانقتها.

تبعتها لمسافة لا أعلم مداها، كانت تمشي بخطوات أسرع، كأنها تهرب مني. تخيلتها هكذا، كأنها هجست بريبة، فتخطتني بسرعة. كنت أمشي بساقين وكأنني أمشي بعشرة، أهجس بذاتي تطير في الهواء، لكنها سبقتني.

أهفو خلفها بخطوات متأرجحة، حتى أوقفها عارض عبور الشارع. انتظرت الإشارة، أدركتها وأنا مجهد، العرق يتفصد جبيني، ترطب تلبيب القميص، ربت على كتفها وقلت:

ـــ ما بك يا صدف؟ لِمَ تهربين مني؟ ألستِ زوجك؟

شنفتني بعينٍ شزرة، ثم صفعتني بكفها وقالت بكبرياء:

ـــ ألا تكف رعونة أيها المراهق؟ امشِ من هنا يا لغوب، يا مجنون، يا سكران، يا تافه...

بقيت صاغرًا، أتمعن في ملامحها بعينين غضنتين، دون أن أنبس بشفة. صفعتها أزاحت غشاء الوهم عن عيني، أعادتني إلى عالمي الواقعي. اكتشفت أنها ليست زوجتي، ولا تشبهها، كل الخيال تبخر، تماها كدخان في مهب الريح.

بصفعتها عدت إلى رشدي، صرت أرى الأمور على حقيقتها، الصورة تتضح رويدًا رويدًا، كعدسة كاميرا اختل زومها. تبين

أنهـا عجـوز، شـمطاء، تتشـابك خطـوط السـن فـي وجههـا، سـاقاها كعكازتين، ترتدي معطفًا وشالًا، لا قميصًا مقورًا.

مـــا أزعجنـــي عباراتهـــا: مراهـــق، لغـــوب، مجنـــون، ســـكران، تافـه... كانـت تفقـه العربيـة، ربمـا مـن أصـول عربيـة. لا أدري لِـمَ نعتتنـي بـذلك، هـل لأنـي كنـت ثمِـلًا؟ أم فعـلاً كنـت مجنونًـا وتافهًـا في نظر الآخرين؟

أحيانًـا لا يـدرك الإنسـان انحـداره إلا حـين يصـدم بموقـفٍ مغـاير، يرتـد إليـه وعيـه، ويلـتمس الحقيقـة التـي لا يراهـا. أحسـب نفسـي كانت تائهة، فلم أتحسس الموقف إلا لحظة الصفعة.

وقفـت علـى دكـة الصـمت، أدقـق فـي وجههـا بعـد أن أوقفـت غيـي. رغـم أن يـدها كانـت ترتجـف، إلا أن صـفعتها كانـت ثقيلـة، أوقفـت نزف شرودي، نقلتني من الخيال إلى الواقع.

أخـذت زمنًـا وأنـا شـارد الـذهن، ربمـا أكثـر مـن حقـه، وحينهـا كانت قد غادرت، ابتعدت.

باقة ورد

ورد... زهرة لم تُقطف

تعرفتُ على ورد، فتاة جامعية غاية في الرقة والجمال، يفيض حضورها أناقة ونضارة، فتنتني بها كما يُفتن المرء بتتويج الورد حين يزهر. جمالها يتوزع على قوامها كضوء ربيعي، يلامس الروح قبل العين.

مع اشتداد اللهفة والهيام، وجدت نفسي أعزف على أوتار الغرام، أراها في كل شيء أمامي: في كأسي، في وجداني، في مرآتي. أفكر بها بشكل مبالغ، أذكرها في كل مناسبة، بل حتى دون مناسبة. مشاعرنا متناغمة، أرواحنا متواصلة، تستوعب ما أريده دون أن أتكلم، وكأنها مرآة لذاتي.

في عيد ميلادها، أردت مفاجأتها بباقة ورد تليق بها، تفرحها بمرور إحدى وعشرين سنة على عمرها الفتي. مناسبة حميمة

تقتـرن فيهـا المشـاعر بفـيض الأشـواق، خاصــة وقـد نضـجت بمـا يكفي لتختار من يقدرها ويحترمها ويحبها.

غـدت أكثـر رقـة ونضـوجًا، تبحـث عنـي، تسـتمع لـي، تحـاورني فـي كـل المجـالات، تزيـدني شـوقًا بهـا. أردت أن أتحفهـا بمشـاعري، لأزيـد أواصـر المحبـة، وأسـتمتع معهـا بيـوم جميـل. كانـت تختلـف عنـي انهـا مـن بـرج الحمـل، بـرج المنافسـة والطاقـة والحريـة وتقلـب المـزاج، بينمـا أنـا مـن بـرج الثـور، الترابـي الثابـت. هـذا التنـاقض أقلقنـي، خشـيت أن يـوقعني فـي مطبـات الشـك، فكنـت أراقـب تـأثيري عليهـا وتأثيرهـا علـيّ، محـاولًا أن أضع النقاط على الحروف.

كثيـرًا مـا كنـت أسـير معهـا بصـمت، متخفيًـا تحـت وهـج الحيـرة، كـي لا أثيـر حفيظتهـا. أراهـا كطفلـة تلهـو بعـالمي، مدللـة، كـوردة ربيعيـة تغشـاها النزاكـة. كنـت أتلافـى العنـاد والمجادلـة، وأبتعـد عن محطات الجنون التي تربك أهواءها.

فـي يـوم عيـد ميلادهـا، اتجهـت إلـى محـل بيـع الـورد لأقتنـي باقـة تليـق بالمناسـبة. دعـوت صـديقي صـفاء، المقـرب لـي والمطلـع علـى تفاصـيل علاقتـي بـورْد، وقـد أبلغتـه بنيتـي الـزواج منهـا، فوجدت في المناسبة فرصة لأشركه في فرحي بها.

دخلـت المحـل، فاسـتقبلتني فتـاة تبيـع الـورد، تفـوق الـورود رقـة وهيافـة، تحمـل مـن نـزق العذوبـة مـا يوصـف بالسـحر. بأناقتهـا وجمالهـا وحسـن إدارتهـا للمحـل، غطـت علـى مبـاهج الـورد. لا

تقل فتنة عن ورد، سوى أنها تختلف عنها بلون العيون؛ ورد عيناها سوداوان، أما بائعة الورد فعيونها زرقاء مغنجة.

قلت لنفسي: ليس من المعقول أن أختار الباقة بنفسي، وهذه الفاتنة ذات اختصاص، تعمل وتنسق الورد بذوق وخبرة. فاستعنت بها، وقلت لها:

مساء الخير

مساء النور

ما شاء الله، في عين الحسود عود. تبارك الرحمن، الرقة والجمال ترتدك من رأسك لأخمص قدميك، وأنت أهل لها.

شكراً على إطرائك، تفضل، هل من خدمة؟

نعم، أود أن توظبي لي باقة ورد جميلة بمناسبة عيد ميلاد فتاة، وهي بعمرك وعلى شاكلتك من شياكة وذوق وأناقة، وأظن ذوقك سيعجبها.

على الرحب والسعة، تفضل بالجلوس دقائق حتى أجهز الطلبية.

وظبت لي باقة من أجمل ما يكون: فيها لون الخردل والزعفران واللافندر والياسمين والجوري، كُوّرت بورق سليفون لماع، وربطتها بشريط وردي يليق بالمناسبة. فيما اقتنى صفاء وردة توليب واحدة ليهديها لورد.

اتجهنا إلى دارها، حيث الاحتفال البسيط مع العائلة والأصدقاء وزملاء الدراسة. طرقت الباب، وكأنها كانت تنتظرني على أحر من الجمر. استقبلتني بوجه مشرق، قدمت لها الورد مهنئًا:

– كل عام وأنت بخير، وكل عام وأنت حبيبتي يا أجمل فتاة في الدنيا.

– شكراً لك على الذوق والإحساس، تفضل.

أخذتني بالأحضان، ثم رحبت بصفاء. وبعد لحظات، سألتني على جنب بابتسامة لطيفة فيها استغراب:

حبيبي، أنا أعرف ذوقك جيدًا، منذ متى ارتقى إلى هذه الدرجة من الرقة؟ من وظب لك هذه الباقة؟

بائعة الورد ، ولأن ذوق المرأة أرقى من الرجل، استعنت بها.

شكراً على الصراحة.

ولكن كيف عرفتِ؟

شممت بها رائحة أنثى، هل نسيت أني أنثى؟

المهم راقت لك؟

أكيد، المهم حضورك.

دخلنـــا، شـــربنا العصــــائر، تـــذوقنا الكيـــك، وانشـــغلنا بـــالرقص والغنـاء حتـى سـاعة متـأخرة. لكننـي لاحظـت تغيـرًا فـي مزاجهـا، بـرودًا فـي تعاملهـا معـي، لـم تبتسـم كثيـرًا، ولـم ترافقنـي كمـا كنـت أتأمـل. انـدمجت مـع الـزملاء بروحيـة مختلفـة، حتـى أننـي وددت أن أغادر، لولا خجلي ومكانتي في قلبها وفي نظر رفاقي.

بعد انتهاء الاحتفال، عدت إلى سكني، فتلقيت رسالة منها:

أشكرك علـى باقـة الـورد الجميلـة، لكنهـا ليسـت مـن ذوقـك، بـل مـن ذوق بائعـة الـورد. هـي التـي قيّمتنـي، لا أنـت. لـذا أرجـو منـك أن تمســح رقمــي، ولا تحــاول أن تكلمنــي. لــن أرضــى أن أكــون حبيبـة مـن يسـتعين بـذوق غيـره ليقيمنـي. سـأعتبر مـا كـان بيننـا مجـرد ذكـرى وتجربـة. وعسـى أن تكرهـوا شـيئًا وهـو خيـر لكـم. مع السلامة. – ورد

كـأنني طُعنـت بنصـل خنجرهـا فـي الظهـر. تـرى، لـم هـذا التجنـي؟ وهـل كـل الفتيـات بهـذا المـزاج؟ هـل كـان لـي فـي قلبهـا وخـزة تذكرها بي؟ ها أنا قد خسرت ما كنت أود قطفه.

ومــع ذلــك، بقيــت تــدور فــي فلــك مخيلتــي كــدورة القمــر حــول الأرض، تَغيــر علــى خــواطري مــع كــل مســاء، وتــزف الأرق لأحـداقي، تقلـب مضـجعي فـي هجـوعي، حتـى ينفـد كـأس الـذاكرة من ذلك العبق.

وبعـد أشـهر، أعلنـت خطبتهـا علـى صـفاء، الـذي كنـت أحسـبه صديق لا منافس، والذي دعوته بنفسي لحفلة عيد ميلادها.

نعـم، حزنـت، لكننـي قويـت عزيمتـي، وبـتّ أكثـر حرصًـا. ويبقـى سـر مـزاج النسـاء لغـزًا عنـد الرجـال. فمهمـا فعلـت مـن إحسـان، لن تستوعب حجم الغدر الذي قد يُرسم عكس غايتك......

كنتُ أحسبه لي خِلًّا

ما إن صحوتُ، حتى عني تخلّى

ليتَ الوفاءَ مثلَ الهوى

يزرعُ في الأنفاسِ وصْلًا

فاعلمْ يا سليلَ العشقِ

يا من كانتْ لهُ جوارحي ظلًّا

الأهواءُ لا ترتقي بالنُّهى

دونَ هيامٍ، وقلبٍ، وعقلًا

لسعة نحلة

من النظرة الأولى التي تبجّح بملامحها، أسرت قلبه. رأى فيها شعلة الأنوثة تتقد في مفاتنها، وهي تقف أمامه كصقرٍ في وسط طابور المراجعين، تنتظر دورها لإتمام معاملتها. منذ تلك اللحظة، خالجته رعشةٌ هزّت فؤاده، كبركانٍ يوشك أن ينفجر. شفق الحب بدأ يخفق في داخله، ينبض بالحيوية والهمة.

كان يفصل بينه وبينها عددٌ من المراجعين، والوقت عصيب، إذ تجاوزت الساعة الواحدة ظهرًا. صار يبذل قصارى جهده لتسليك المعاملات، أملاً أن تبلغ دورها قبل انتهاء الدوام، ليتمكن من إنجاز معاملتها، ويوثق صلته بعجلة قدرها.

بجبـروت قامتهـا ومفـاتن وجههـا الأخّـاذ، سـحرته. رآهـا قمـرًا يضـيء ليلـه، انتهكـت آفـاق فكـره، واسـتباحت صـمته ومسـاءه بسـحر السـمرة الذائبـة فـي غـرين بشـرتها. سلبته رشده، وألبسـته ثوب الرزانة والعفة والطيبة والخجل، فقط بمعاني ملامحها.

أغـارت عليـه كالنحلـة، لسعته بفـيض ألقهـا، أطنبـت أذنيـه برفيـف أجنحتهـا، وجذبتـه إلـى عالمهـا دون سـواها مـن الفتيـات العـاملات فـي البنـك. صـار يتبـع سـحرها دون إرادة، يحـوك مـن لحظتهـا الأولـى ستائر عشق لعينيه، ويبرم شغف القلب بهيافة الفكر.

وقوفهـا المنفـرد فـي الطـابور لفـت نظـره. وجودهـا جـاء بعفويـة، ببـراءة، لـم تقصـد إثـارة اهتمامـه، ولـم تفكـر بشخصـه قـط. الصـدفة والحاجة جعلتها تركن في ذلك المكان.

لكـن بجاحـة نظراتـه أشـعرتها باهتمامـه، فعزفـت لحـن الصـمت علـى أوتـار فكـره، وركبـت موجـة الغـرور. فسـعى خلـف شـاطئها بتوسلٍ وحبور، هزّت كيانه دون أن تعي، ودون أن تعني.

لـم يصـبر علـى هلعـه، انحـدر خلـف غبـار العصـف دون إرادة، يحـاول التشـبث بقـارب النجـاة المنحـدر نحـو شـاطئ الفتنـة الماثلـة أمامـه كـالطود، متحسّـبًا مـن التيـارات الجارفـة، ومـن لصلصـلة الأعين المحيطة بها.

حلّـت بعالمـه كاللحظـة المارقـة، كشـهابٍ أنـار سـماءه. اهتـزت أسـاريره، والتفـت إليهـا بعفويـة، غيـر مـتحكم بإرادتـه. صـار ملمًّـا بأمرهــا، مــدقّقًا فــي تفاصــيل قامتهــا، برشــاقتها وحســن قــدّها، محاولًا تفادي نظرات المراجعين الآخرين.

جردتــه مــن هدوئــه، قلبــت مــوازين كيانــه، وصــارت نظراتــه للمـراجعين تأففًـا بسـبب طـول الطـابور، تختلـف عمّـا كانـت عليـه قبـل أن يشـعر بوجودهـا. مضـت سـهام عينيـه تختـرق الصـفوف كسـهام ودٍّ وتخـاطر، اختلقـت فوضـى فـي خاطرهـا، لتميّزهـا عـن نظرات المتحلقين حول فسيفساء طلتها.

صـار لا يـرى فـي الوجـوه المصـطفة أمامـه سـوى صـورة واحـدة، جـذبت واقعـه. مـا إن شـاهد ملامحهـا، حتـى خـرّ سـاجدًا إلـى أذنيـه، قيدتــه، ومحــت مــن ذهنــه عــالم النســوة العــابرات علــى ذاكــرة الماضــي. ألغـت مـن حياتـه كـل البروتوكـولات والمنـاهج السـابقة التي كان قد التزم بها.

تلـك الرقطـاء، الماجنـة، عبثـت بـروتين عملـه، جردتـه مـن عبوديـة السـياق، ونقلتــه مــن حالــة الرتابــة إلــى عــالم الضــياع والمجانــة، إلــى مســرح الخيــال والرجــاء، دون أن يــتحكم بإرادتــه. نقلتــه إلــى عــالم التجـرد والسـكون، إلـى وهـدة الحيـرة والولـه والتـبجّح، إلـى فكرة الاختبار والاختيار والاستقرار.

صــار يتجــوّل بخيالــه فــي أروقــة تلــك المبــاهج كطيــرٍ مهــاجر، تخطّــى بنظراتــه الحــادة حــدود المنطــق والوظيفــة. تميّزهــا غيــر المعهــود جعلــه يتخطّــى الوجــوه التـــي عرفهــا مــن قبــل، وتلــك المتواجدة في محيط عمله.

مـا شـجّعه علـى المجازفـة، أنـه وجـد فـي لحـاظ عينيهـا الواسـعتين فسـحة أمـل تعينـه علـى قـدره المترهّـل، لإدراك فـردوس حلمـه. وجـد فـي قامتهـا مجـالًا رحبًـا ينطلـق منـه لعـالم الخيـال الواسـع.

تلاقـت مراكبـه، واضـطرب قلبـه، وظـنّ فـي ذوائـب شـعرها المتفحم دليل طيفه، وفي نور وجهها الوضاء مرآة سعده. بات يشـهق فكـره فـي عـالم عـديم اللـون مـن المجانـة والهـوس والصبابة.

أربكتـه بنظـرة عـابرة، بريئـة مـن عينيهـا الملظّتـين، مـا إن استقرت على أوشحة لاحظيه، حتى هجس بلسعة تغزو الفؤاد. لمـس فـي تلـك النظـرة عصـف تجـرد، جردتـه مـن كبريائـه، وجعلته يدور كقشة في دوامة العصف التي افتعلتها داخله.

لمست ارتباكـه، تحسّست ضـعفه واضـطرابه، تراشـقت العيـون، وتشـابكت خيـوط الظنـون. تعشّـقت الرغبـة بجدليـة التحـدي، وصـارت مسـامير وده تطـرق جـدران شـموخها، ليعلّـق سـترة أحلامـه السـادرة عليهـا، عسـى أن تجلـب انتباههـا، أن تضـطرب مجسات خواطرها.

هجس بعصف سحرها من خلال الإضاءة المشاطة في قوامها الرشـيق، وفـي ذوائـب الفتنـة المنفلتـة مـن ملامـح وجههـا، مـن اللمعـة الغافيـة فـوق سـحر البشـرة، والرقـة المتجولـة فـي ثنايـا الشفة. كل شيء فيها مبهج، متوافق مع لآلئ عينيها.

في وقفتها، كانت كيمامةٍ تهجس بالخطر، تئن من خدر القدمين وخـزر أعـين الصـقور المتحلّقـة بهـا. وكـان فـي كرسـيه يسـنّ صـبره، حتـى تـأيّن القلـب بشـرارة فتنتهـا. مـا أن استسـلمتْ جوارحه؛ حتى أعتمل على تسليك معاملات زبائنه بعجالة غير معهودة، وبكيفية ما سرهم بها، أنها الرحمة العاطفية.

ما أن أدركت شباكه حتى وقف على قدميه مرحبا بها، كان مبهورا بفتنتها، مرتبكا بفكره ولسانه، ببحة صوته الخافتة أشار إليها بالجلوس، ليستمع لطلبها ويستمتع بحضورها وأناقتها وجمالها وحسن صوتها.

كانت قد استشعرت اهتمامه وارتباكه، ذلك الالتباس الذي شاب أداءه في العمل. قرأت في نظراته إليها ما لم تقرأه في نظراته إلى المراجعين الذين سبقوها. تلعثمه في الحديث كشف لها عن عقدة خفية، افتقد شيئًا من التركيز والتوازن في حضرتها، فهجست بشتات فكره ومسحة خجل تسللت إلى ملامحه.

باهتمامه المتزايد، بدا وكأنه طرق نافذة روحها قبل أن يطرق باب قلبها. أشعرها بإعجابه، بل تجاوز البروتوكولات المعتادة في التعامل، مستهلًا حديثه بعبارات ترحيب ملونة، وكأنه أراد أن يلفت نظرها عمدًا.

ورغم ذلك، لم تكن المسألة غريبة عليها؛ فهو ليس أول من يقع أسير فتنتها. الأستاذ فؤاد، مثلًا، حاول مرارًا فك شفرة قلبها دون أن يفلح، لأسباب تخصها وحدها. ربما لم يرتقِ إلى مستوى الحلم والأناقة التي رسمتها في مخيلتها.

أما "ميثاق المتوكل"- كما كُتب اسمه بخط النسخ العريض على لوحته التعريفية فوق مكتبه، فقد بدا مختلفًا. ملامحه، جاذبيته، أناقته، وشفافيته، كلها ميزته عن الأستاذ فؤاد وعن كل من داروا حولها سابقًا.

وبقي سؤال يدور في خلدها: لماذا يبدو موظفو البنوك أكثر أناقة وشفافية من المعلمين؟ هل يعود ذلك لشروط التعيين؟ أم للتربية؟ أم لاختلاف طبيعة العمل؟... في الواقع، ينشغل المعلم بالفكرة أكثر من اهتمامه بالأناقة التي تقيّمه. على النقيض، موظف البنك يعتبر أناقته بوابة عبوره إلى المجتمع، وواجهة مؤسسته في استقطاب الزبائن. المعلم يتعامل مع فئة المراهقين، ومع مرور الزمن يتلاشى الحاجز بينه وبين تلاميذه، فيضطر للتنازل عن موقعه وكبريائه، ويتطبع بسلوكياتهم. وهكذا، يقع فريسة لفكرة التجريد، التي تمنح الأولوية للمادة المطروحة على حساب الكاريزما والمظهر الخارجي، حتى تنصهر شخصيته في شخصية التلميذ، فينسى ذاته وقيافته وقدره.

أما موظف البنك، فيتعامل مع طبقات متعددة من المجتمع، وينغمس في روتين المقابلات والبروتوكولات الراقية. يكتسب ثقافته من منابع متنوعة، ويحرص على مواكبة العصر، وينشئ صداقات وعلاقات متعددة، تجعله يعتني بمظهره باستمرار، خاصة إذا علمنا أن نصف زبائنه من النساء.

وفي خضم هذه الأفكار، قدمت أوراق معاملتها له، قائلة:...

- هل هذه الأوراق هي المطلوبة، أم لازال فيها نقصا ما؟ أنا زبونة جديدة أود فتح حساب بنكي عندكم، وارجو أن توضح لي تعليمات البنك وطرق السحب والإيداع، وتفعيل كارت البنك.

- هل أنت حديثة التعيين في دائرتك أم نقلت حسابك من بنك آخر إلى بنكنا؟
- لالا.. أنا تعيين جديد، تعينت منذ شهرين بصفة مدرسة.
- أهلا وسهلا، تفضلي أجلسي.. (صار يقرأ في أوراقها، سهى محمد سعيد، مدرسة مادة الإنجليزية، منسبة إلى وزارة التربية..
- يا سهى: كم تودين أن تضعي من مبالغ في حسابك؟
- كم علي أن أضع ليست لدي فكرة عن الموضوع؟
- أي مبلغ يعجبك ولكن على أن لا يقل عن ما قيمته يساوي مثقال ذهب.
- حسنا دعنا نبتدأ بما قيمته مثقال ذهب = 30 دولار.
- وهو كذلك، عليك أن توقعي على هذه الشاشة التي أمامك بالقلم الموضع جانبها، وأن تختاري في هذه الخانة أربعة أرقام على أن تكون سرية تحفظيها عن ظهر قلب، لأنها ستكون مفاتيح سحبك وإيداعك للأموال، دعيها سرية، لا يطلع عليها أحدا غيرك، سجليها هنا.
- حسنا.. 0000، انتهيت.
- تفضلي: هذا الظرف المغلق، مكتوب في داخله رقم حسابكِ البنكي وكارت البنك. يمكنك أن تستخدميه من يوم غد، حيث يفعل الكارت ورقم الحساب البنكي بعد أن تمر عليه فترة أربعة وعشرون ساعة.
- شكرا لك وعلى حسن تعاونك.

- هل لي أن أراك ثانية..(قالها بصوت هميم فيه شيء من التوسل ما يصعب أن يرد بجفاء).
- إذا أراد الله ذلك.
- مع السلامة.

ظل فكره مشغولًا بها، يتأمل عودتها، يترقب أن تبادله الشعور، وقد شعر بأنها جوهرة لا يُفرّط بها. في المقابل، هجست فيه شابًا متكاملًا، لا تنقصه وسامة ولا ذكاء. ملامحه الناعمة، ولحيته الخفيفة المرتبة، وأناقة هندامه، كلها كانت كفيلة بأن تستحوذ على قلب أي فتاة

حين تحدثت إليه، التمست نعومة أدبه، ورخاء صوته الذي تسلل إلى ألواح مشاعرها، فهزّ أحاسيسها برقة نبراته. هجست بتوسلاته المغلفة بصوته، وترحيبه المبالغ فيه، وخدمته وتقديره لها، كلها التصقت في شريحة ذاكرتها، حتى شعرت بتنهدات جوارحها تهتز وهي تتأمل لقاءً جديدًا في أعماقها.

بعد مغادرتها، تركت في ذهنه صورة متوهجة، كأنها رسالة خفية تحثه على تتبع أخبارها وخطواتها. راودته فكرة أن يواجهها، أو أن يزورها في مدرستها، لكنه تراجع؛ فهي حديثة العهد هناك، وأي تصرف غير محسوب قد ينعكس سلبًا على سمعتها.

لكنها لم تخيّب ظنه. عادت إليه بعد يومين، لتقف أمامه مرة أخرى في ذات الطابور، تتأمله من بعيد وهو منشغل بأوراق مراجعيه. وما إن لمح وجهها، حتى ارتجّت أساريره، وما إن

التقت عيناه بعينيها المصبوبتين عليه، حتى صعقته المفاجأة. لم يشأ أن يدعها تنتظر أو تنشغل بالتفكير، فنهض من مكانه مناديًا باسمها، متجاوزًا ترتيب الدور، وكأن حضورها ألغى كل البروتوكولات.... يا سهى... تفضلي، ما خطبك؟ لم أنت واقفة في الطابور

- أستاذ الكارت لم يفعل كما أخبرتني.
- كيف؟ مستحيل!!! أجلسي لنرى السبب.
- وما أن فتح صفحتها وكشف عن الخلل في الحاسب الآلي؛ حتى صار يبتسم ويضحك بابتسامة عريضة شرخت وجهه، هههههههههه،
- ها يا استاذ؛ ما خطبك؟ لم تضحك؟

كان قد وجد ذاته قد نسيت أن تفعل الكارت، فأدار وجهه إلى وجهها مبتسما.. قائلا لها بصوت منخفض:..

- والله أنت السبب.. والله يا سهى أنت السبب (مؤشرا بسبابته).
- لِمَ...لمْ أفهم؟ ماذا فعلت؟
- لقد شغلتِ فكري بفتنتك فنسيتُ أن أرسل معاملتك لجهة الإصدار وتفعيل الكارت. أنت يا سهى جميلة جدا، وأنا أتمنى أن ....
- أن ماذا؟....
- ممكن تسمحي لي بالاتصال بك بعد أن أنهي عملي، رقم هاتفك موجود عندي على الكومبيوتر.
- لا ضير في ذلك.

- شكرا لكِ، سأتصل بك في تمام الثالثة عصرا.
- مع السلامة.

قالتها وهي خجلة في أعماقها، وفرحة في عالمها الداخلي، هجست بندى الحياء وقد غدا عطرًا يفوح من وجهها، أضحت متورّدة اللون، كأنها أفصحت له عن مخزون إعجابٍ حرثه في قلبها بصمت.

أما هو، فلم يصدق استجابتها، أصيب بتشنج الفرح وانبهار اللحظة، كأن السعادة التي غمرتها تسللت إلى قلبه، فعصف به النشوة. كاد ينسى عمله، لولا أن استعاد رشده برشفة من قدح ماءٍ موضوع على طاولته، وكأنها كانت محاولة يائسة للعودة إلى الواقع.

لا يدري كم من الزمن مر، وكم بقي يلوذ بين لحظة فراقها وحلول ساعة مهاتفتها. كانت فترة عصرٍ زمني، مشبعة بالقلق والتشنج والحيرة، مفعمة بالتهيؤ والاستعداد. بات الوقت يجري كجري السلحفاة، وعاش تلك اللحظات بين شوق وتأمل وخيال، حتى غدت المشاعر تتلظى على أثافي الصبر.

وما إن دنت اللحظة الحاسمة، حتى كبس على اسمها، لتنطلق الإشارة محمّلة بفيض من العواطف الجياشة نحو وهدة هاتفها.

وما إن رأت هاتفها يصرخ بحمله الثقيل، حتى تناولته بحنين ورأفة، ليقبل أسيل خدها. عرفت الصوت من ارتباك نبراته، ومن الرقم الغريب الذي لم تألفه، حينها أدركت القصد، وعرفت الطارق... ومنذ تلك اللحظة، ابتدأ بينهما المشوار.

مجرد لقاء

في ظهيرة متأخرة، حين تجاوز الوقت موعد اللقاء بنصف ساعة، كنت على وشك مغادرة حدود المعهد، حين لمحته يقترب، متكئًا على دراجته التي بدت لي كأنها تشكو ثقل جسده، تئن تحت وطأة وزنه، كحمار أنهكته الأسفار. لم يكن كما وصفته لي سارة؛ خيل إلي أنه سيكون أقصر طولا وأكبر سنًا، لكن الواقع فاجأني بطوله الفارع وبساطته المدهشة.

ما إن أشارت له سارة نحوي، حتى تقدم بخطى واثقة، وقال بابتسامة عريضة:

ـــ أهلاً وسهلاً، أنا سعيد بلقائك... أدعى ديفد.

ـــ وأنا فارس... كنت أترقبك بشغف، تخيلتك أقصر وأكبر... لكنك طويل جدًا، هههه.

ـــ أمي ولدتني هكذا، مترين وعشرين سنتيمترًا، هههه.

ـــ ما شاء الله، أطول مني بنصف متر!

ضحكنا، وتلاشت رهبة اللقاء. دعاني إلى غرفته، حيث أراد أن يطرح بعض الأسئلة حول مشروع مجلة جديدة. وبينما كان يتحدث، شعرت أن في داخله شغفًا دفينًا، رغبة لا تُقال، كأن شيئًا ما يقوده نحوي، يستنطقني، يستكشف ما أود أن أبلغه.

كان مفعمًا بالحيوية، يطرح أفكاره بانسيابية، وكأن وراء جسده الضخم شخصية أخرى، خفية، رقيقة، تتحكم في إرادته وتوجهه. شعرت أنني لا أواجه ديفد واحدًا، بل اثنين: الظاهر والمستتر، وكأنني أتحاور مع قناع يخبئ خلفه روحًا شفافة.

تساءلت في داخلي: هل نحن، كبشر، مركبون من شخصيات متعددة؟ هل نرتدي أدوارًا حسب الظروف؟ تركت نفسي تساير تلك القطة الأليفة التي تسكنني، تلك التي إن خالفتها، تثب بوحشية في وجهي. تركته يسرح بفكره، وأنا أتبعه، كأنني أقرأه بين السطور، بين النظرات، بين الصمت.

ربما كانت تلك القطة قد شعرت بوجوده، فودت أن تهضم معانيه، أن تفسر لغته، أن ترتقي بي إلى ضفة النور التي تلوح في خلده. ربما كل ما قاله كان فصلًا من خيال، لكنه خيالٌ يلامس الحقيقة، يوقظها، يلونها.

حين بدأت أشرح له تفاصيل المجلة، شعرت أن وجهه يطفح بفرائص الغاية، كأنه يود أن يمهد لي الطريق، أن يزيل الغبار

عن فكرتي، لتلمع في حدقات عينيه. ومع كل كلمة، كنت أقرأ توافق ألوان الحلم، وهو لا يزال طيفًا يدور في فلك الذهن.

وفي لحظة صفاء، تشظى الزجاج المموه بيننا، وطلّت الفكرة بلون الغسق، زاحفة على حدود الشك، حتى بدا لي أنني أقرأه كما يقرأني. قبل أن نغادر، بصمت له بالغد، بالعمل، باللقاء المتجدد، وبالانتماء لفكرة المجلة.

ابتسم، وكانت ابتسامته كخاتمة لقصيدة، رغبة في تكرار اللقاء، في الاستمرار. كان اللقاء بيننا كحجر رُمي في بركة ساكنة، فحرّك موجات الأمل، وأيقظ ستائر الحياة.

وبعد أسبوعين، صدرت أول نسخة من مجلة "اللقاء"، ونالت استحسان الجمهور... كانت ثمرة ذلك الحوار، وتلك القطة التي لم تثب، بل استقرت.......

عواصف الشتاء

آلــت الظــروف أن أتــرك زوجتــي خلفــي، تحــت ســقف ظــرف مــوارب، حــلّ بنــا علــى حــين غفلــة، ونحــن نبحــث عــن صــيغة اســتقرار بديلــة لحالــة الــوطن المتوعكــة تحــت وطــأة الاحــتلال الأمريكــي البريطــاني للعــراق. كنــت فــي عنفــوان شــوقي لحبيبتــي، والرغبــة الكامنــة فــي ذاتــي للعــودة إلــى ربــوع الــوطن، لكنــي ســهوت عــن تفاصــيل العقــد التــي كبّلتنــي بقيــود الغربــة، وغــرزت العناء في كل مرافقي.

كنــت أحــاول تســليك الوقــت بالعبــث الــذي ينســيني الهــم، أغرتنــي أمــور جمــة، جعلــت حالــة الشــوق تخفــق فــي ثنايــا الفكــرة، فــي مواجهــة الفشــل والإخفــاق والخيبــة والرعونــة التــي تعلقــت بقــدري

كرغــاء لا مفــر منــه. ســلبتني عزيمتــي، جعلتنــي أرتــع بثنايــا الصمت والسكوت دون حراك.

فـي تلـك الحالـة المتقلبـة مـن المـزاج، والمرهفـة والغيـر المسـتقرة، أودت بـي إلـى الشـرود والتعقيـد، انتـابني وجـس مـن قـدوم الغـد وأنـا أعـيش ذلـك الـروتين المنهـك، كـأن طـائر الشـؤم قـد حـط علـى قــدري. أضــحت نوبــات الشــوق تــراود حفيظتــي كعواصــف الشــتاء، تــزكم أنفاســي، تشــتت ظنــي، وتــدفعني إلــى الانكمــاش والسـكون داخـل غرفتـي، دون أن أجـد مسـلكًا أنفـذ منـه إلـى حـالتي الطبيعية.

كانـت حالـة قسـرية شـكمتني بـالجمود والاحتبـاس، لـيس لهـا شـكل ولا لــون، ســوى أن أتحمــل القــدر الــذي أعمــاني. صــارت تلــك الأوضــاع ترتــاد فكــري بشــكل روتينــي، تثبــر لحظــة حفيظتــي، وتغــز الأمــل قبــل أن تطفــح علــى شــبكة الــذهن كواقــع حــال. تجعلنـــي أستشـــعر بالنـــدم، بطاقـــة ممغنطـــة بتشـــنجات الغربـــة، تمنعنــي مــن التحــرر، أهجــس بهــا كتلــك التــي تســري بأســلاك الكهربــاء، تنتهــي بحــرق فتائــل الشــوق فــي المســالك المظلمــة... هكــذا وجــدت ذاتــي مأســورة بتلــك الطاقــة الســلبية فــي مدينــة كمنــتس الالمانيــة، فلــن يســتقر مزاجــي إلا بلقــاء حبيبتــي. تلــك الطاقــة إن لــم أحرقهــا بــذاتي، ســتحرقني، ولــن تلمــع صــدفية حياتي.

منـذ أن سـكنت ديـار الغربـة، وأنـا أدور فـي دوامـة العقـد، ككوكـب انحـرف عـن مـداره. كنـت أحـاول أن أسـتجمع قـواي علـى إدارة

محور الصبر، بالقراءة، وتشريع حالة الصياغة، لغاية تجاوز الأزمة، عسى أن أشفي غليلي، أو أعود أدراجي لحبيبتي.

وفي ظل تلك الظروف الشظفة، تطلعت عبر نافذة غرفتي إلى المنظر الخارجي، إلى الشارع العام المار بجانب العمارة التي أسكن بها، علني ألهي فكري بشيء ما يشغلني. وإذا بي ألاحظ في موقف الباص طيرين من طيور الجنة، يغدقان حبًا، يرفرفان بأجنحة الشوق، يهدلان بعشق منقطع النظير، في ظل سقوط شفيف من وفر الثلج.

طائران بعمر الورد، دون سن البلوغ، تلميذان من تلامذة المرحلة الثانوية، يرتديان السحر والأناقة كجلباب من الجاذبية. تهجست بهما كفاكهتين مختلفتي الألوان، معلقين بغصن الشوق، بخيط متين من الود والمحبة.

كان الفتى حميمًا، ساحرًا، يحمل حقيبته المدرسية على ظهره، بقوام جسمه الرشيق، وحسن ملامح وجهه. فيما كانت الفتاة تبدو كزنبقة، كفراشة ربيعية لطيفة، جذابة، مغترة بضوع ذلك الشاب الأنيق، تحاول أن تلطف بهاءه ببهاء حسنها الأهيف، تخفق بجناحيها وروحها برقة في ميدان عالمه المغنج، تمسح الثلج عن وجهه وأكتافه.

كانت تدور حوله، طرحت حقيبتها أرضًا، كي لا تربك مزاجها العالي، ولا تثقل كاهلها، كأنها تدور حول زهرة لجاذبيته المبهرة، تعانقه، تقبله، ترقص حوله كفراشة تحت رذاذ الحب.

كانــت لأناقتهــا وســحر جمالهــا تبــدو كضــفيرة طفلــة، مزهــوة بشــريط عمرهــا وربيــع فتنتهــا، متلألئــة، أنيقــة جــدًا، بلبســها العسـكري، وفتنتهـا، ولـون بشـرتها، وحلـو شـعرها الأشـقر. تـود أن تطيـر بـه إلـى فـردوس الأحـلام، وهـي تنثـر شـعرها الـذهبي على كتفيها، يتلاعب به نسيم مائج بوفر الثلج.

أمـا هـو، فكـان يقـف أمامهـا مبتسـمًا، كغصـن بـان، يرفـأ بظـل استقامة الخيـزران. يبادلهـا الأشـواق بحـرارة، يـذلل لسـعة البـرد وقسـوة الطقـس. كـان يزيـدها طـولًا بمقـدار شـبر، لـذا حـين تقبلـه، كانـت تقـف علـى رؤوس أصـابعها، تحلـق بيـديها عنقـه، تجبـره على الانحناء، حتى يدك فاهها فاهه.

كانــت ترتــدي بنطــالًا جرســيًا عســكريًا، مقــورًا مــن الركــب، وبلـوزة خضـراء ملتصـقة علـى الجسـد، وسـترة قصـيرة بنيـة فـوق الخصــر، فيمــا كــان هــو يرتــدي بنطــالًا جينــز أســود، وبلــوزة بيضــاء ناصــعة، تعكـس لونهـا علـى بشـرته البيضـاء، فيبـدو كمـرآة عاكسـة، يثيـر الحشـرات مـن حولـه، فتحتـرق أم الجناحـان بالقبـل تحت رذاذ الحب.

كـان يقـف أمامهـا كـالطود، واثقًـا مـن نفسـه، يفـيض سـحرًا، جـذلًا، مســرورًا، يتطلــع إلــى حركاتهــا ورقصــاتها بابتســامة بريئــة، يحادثهـا، يحثهـا علـى تأملاتهمـا المسـتقبلية، يرفقهـا بشـحنة مـن شواظ الحب المعنى، المفعم بالغرام والوله والصبابة.

وأنـا أراقبهمـا عـن بعـد، كـأني أسـمع حوارهمـا وتهامسـهما رغـم المسـافة، أهجس بـه أشـد فرحًـا بهـا، يكبلهـا بلاعـج أشـواقه وفتنتـه،

متحمّلًا جلد الطقس، رابضًا معها في الموقف حتى يحين موعد الباص لينقلها لقريتها.

ما لفت نظري هو اندماج طيفيهما في لوحة تعبيرية، لم تهتز مشاعرهما رغم زمهرير الريح والطقس العاصف، وكأن الحرارة المشعة من دواخلهما تطرد غثاثة البرد، يتحركان ويتناغمان بشغف كعصفورين يستحمان في بركة، أحدهما يود أن يقضم فتنة الآخر برغبة.

تماديت في مراقبتهما، كأنهما ذكّراني بطفولتي الكئيبة، التي مضت دون أن تبرق فيها بارقة صبح، دون أن تحيل صبري إلى أمل أتغنى به.

وما أن دنت لحظة اقتراب الباص، حتى اشتد التناغم بينهما، صار العزف يرطن بالأحداق والأذان، أدركا لحظة الوداع، فطفقت إليه وسرقت من شفتيه قبلة طويلة، ثم ارتمت بأحضانه، واضعة رأسها على كتفه بلهفة وحنين. ارتدت حقيبتها، ولوّحت له، ثم صعدت الباص إلى قريتها "مارين بري"، فيما عاد هو إلى وكره، يسير على قدميه، يتأمل طيفها في مرآة قلبه، تحت سقوط الثلج الذي اشتد بعد الفراق، ليحرق ذاته بذكريات تلك الساحرة، وهو يتأمل طيفها في حدقات ظنه، بدموع الوداع.

لتبقى تلك القبل كإبر تشك الشفاه حتى اللقاء القادم.

بفراقهما، هجست بأحوال الجو أظلمت، لتبقى أطيافهما في موقف الباص تذكرني في موضع الأناقة، مثل نبتة ترتأي

سقوط المطر. هجست بذلك اللقاء يشبه عواصف الشتاء، وهي تجلد العشاق بين الأحايين.

مجموعة مريم

1- مريم....
2- كرستال
3- وفاء كلب..
4- الدنيء
5- الفراشة..
6- الصورة...
7- فسفساء العقد.
8- آخر المشوار.....
9- زيارة صديق

10- مكتب السفريات..
11- القدر .
12- الكوب ....
13- الكرة .

مريم

جلستُ باكرًا، قرابة السادسة صباحًا، يغشى جسدي كدرٌ خفيف، وما زالت سماجة النوم تضطرب في رأسي. تناولت هاتفي أتصفح الرسائل المعتادة من أصحاب صلاة الفجر، وإذا بي أجد مجموعة رسائل من رقم غريب. فتحتها، وكانت كالآتي:.....

"أنا مريم، رفيقة علاء. الهجرة منحتني قرار رفض الإقامة، وأحتاج رقم المحامي الذي تراجعه، لأقدم طعنًا قبل نهاية الأسبوع."

فهمتُ أنها حصلت على رقمي من صديقنا المشترك علاء. بدوري، أرسلت لها رقم المحامي، وأثنيت على جديته وكفاءته، وذكرت أنه موصى به من قبل منظمات إنسانية. طلبت منها ألا تتأثر بقرار الرفض، فمثل هذا القرار بات شبه متفق عليه بين دول أوروبا ضد بعض الجنسيات، ومن ضمنهم العراقيون.

بعد ساعة وصلني منها ردٌ تشكر فيه مساعدتي. ثم اتصلت لتستفسر عن أتعاب المحامي، وسألت إن كان هناك محامٍ عربي، إذ تراه أفضل من وجهة نظرها. كان صوتها يخنس بارتباك وقلق واضح. شرعتُ أشرح لها، وقلت:

– يا مريم، هل تثقين بي؟

– أكيد، وإلا لما اتصلت بك. لكن صديقتي تقول إن المنظمات الإنسانية قد تساعدني دون أن أخسر أتعاب المحامي.

– لا تسمعي هذا وذاك. لا أحد يدافع عنك دون مقابل. المحامي بخبرته وعلاقاته يستطيع أن يصل لنتيجة ترضيك. تواجده المستمر في المحاكم واحتكاكه بالقضاة يولد علاقة صداقة ومصالح، قد تصل إلى تنازلات أو حتى رشوة. ثم إنه ألماني الجنسية، وهذا يمنحه حضورًا وتقديرًا يفوق المحامي العربي، لأنه ابن البلد، يعرف تفاصيل المحاكم الدقيقة. أما المحامي العربي، مهما كان كفوءًا، فهو في نظر الألمان غريب، والتعامل معه يبقى رسميًا، معزولًا عن المجتمع. أنتِ، هل تشعرين بتقدير الأجانب لك؟

– لا، أشعر بالنبذ والوحدة والغربة.

– هم كذلك ينظرون للمحامي العربي بنفس النظرة. صدقيني، لا ينفعك سوى المحامي الألماني. أتعابه لا تتعدى ألف يورو، تُدفع على أقساط، خمسين يورو شهريًا.

– كلامك مقنع، سأمضي معك، رغم أني مستغربة من قرار الرفض، فقضيتي محبوكة ولا تقبل الجدل.

– الرفض عام للعراقيين، لا تهتمي. لا أحد يجبرك على العودة إلا بتعويض يضمن لك التوازن داخل العراق، وهذه صيغة تفاهمت بها الحكومة العراقية مع ألمانيا.

في اليوم التالي، جاءت مريم برفقة علاء الذي أوصلنا بسيارته إلى مكتب المحامي، ثم غادر لانشغاله بعمله في محل الحلاقة. استقبلنا المحامي دون إطالة، وحدد موعدًا للمقابلة يوم الثلاثاء الساعة الثالثة عصرًا، وشرح لها أتعابه كما ذكرت سابقًا.

يوم المقابلة شهد يوم الثلاثاء وابلًا من المطر، بدأ منذ السادسة مساءً من اليوم السابق، واستمر حتى الثانية ظهرا من يوم الثلاثاء بذات الغزارة. السيول غسلت الشوارع، وجرفت الوديان، وضباب كثيف غطى الأفق. هدأت العاصفة بعد الثانية، وتحول المطر إلى رذاذٍ خفيف أنتهى مع وصولها بيتي. لتطلع الشمس كسفة تداري وجودنا.

مع توقف المطر، وصل الباص الذي يقل مريم من قرى كيمنتس إلى محطتها الأخيرة (Am HART WALD) وهو

مكـان سـكناي. طلبـت مـن ابنـي أن يسـتقبلها ويعـود بهـا إلـى البيـت لنجهـز أنفسـنا للـذهاب إلـى مكتـب المحـامي، الـذي لا يبعـد سـوى أربع محطات باص عن السكن.

حضــرت مــريم والتــي تبــدو جــوهر فــي أناقتهــا ورقتهــا، فتــاة عشـرينية، تهجس بشـرتها مغشـية بسـمرة غنجـة مـن ملـح الشـرق، ومـن رغـاء تـاريخ سـومر وأكـد. فـي ملامحهـا سـحرٌ شـفيف مـن لدانــة البــداوة، ونظــرات تخفــي فــي جوفهــا أســرار جنوحهــا، دون أن تــدرك أن تلــك الأســرار مفضــوحة للمقابــل. لطيــب قلبهــا، وحسـن أدبهـا، وفـيض تعليمهـا، فهـي تملـك شـهادة بكـالوريوس فـي الفيزيــاء، لهــا جاذبيــة آســرة. ملامــح وجههــا تغــص بــالفتن، كــأوراق شــجر الخريــف، وعيناهــا الواســعتان كعيــون المهــا، وأنفهــا شــامخ بهيبــة مغشــية بالخجــل. تفــرش وجههــا ابتســامة شـفافة، تلـوي بهـا أذرع المـارقين، وتبجـل ملامحهـا بإطـار مـن شــعرٍ عكــرٍ مغشــى بصــبغة النــار، يضــفي علــى قوامهــا ألقًــا وجاذبية غضة.

حضــرت إلــى البيــت بروحهــا العراقيــة الترفــة، متحليــةً ببســاطةٍ هــي سـمة العـراقيين أينمـا حلّـوا. تغـدينا علـى عجالـة ممـا أفـاض الله علينــا، نســرق الوقــت قبــل أن يســرقنا. كــان الحــزن يوشــح ملامــح وجههــا، حــزنٌ شــفيفٌ مــن طــلاقٍ أنهكهــا، ومــن قــرارٍ مجحـفٍ صـدر بحقهـا مـن دائـرة الهجـرة. لـم يكـن لـدينا متسـع مـن الوقـت لنغـوص فـي تفاصـيل القـرار أو عقـد الحيـاة، فمـا إن أنهينـا غــداءنا حتــى انطلقنــا مســرعين إلــى مكتــب المحــامي، مرتــدين ملابسنا المطرية اتقاءً لغثاثة الطقس وجلَد المطر.

خلال تواجدها القصير في البيت، وفي طريقنا إلى المحامي، دار بيننا الحديث التالي:

– أين تسكنين يا مريم؟

– في قرية تبعد قرابة ساعة بالباص عن مدينة كيمنتس، أنا وابنتي زينب، عمرها أربع سنوات. وفّرت لنا دائرة الهجرة بيتًا صغيرًا.

– وأين زوجك؟

– تطلقت منه. كان لا يكترث بمشاكل الحياة، سلوكه أودى بنا إلى فسحة الطلاق.

– إن كانت لكِ نية الارتباط، فزوجك أولى بك. لن تجدي من يُعنيكِ وابنتك مثلما يفعل هو، فهو أبوها.

– الأمور تعقدت بيننا، نمضي في خطين متعاكسين. لا أفكر بالزواج، أودّ إكمال دراستي.

– كيف تعرفتِ على علاء؟

– في الكنيسة.

الكنيسة؟ علاء صديقي، من كربلاء، متزمت بعقيدته، يحضر إلى بيتي كل أسبوع.

ماذا يفعل في الكنيسة؟

– ربما يبحث عن ذاته.

– وماذا تفعلين أنتِ هناك؟

– أترنم بترانيم الأحد، أغني.

– أأنتِ مسيحية؟

– لا أعترف بالديانات، لا فرق عندي بين الإسلام والمسيحية.

– إن كان للكِ صوت جميل، لماذا لم تصبحي مطربة؟

– كـان ودي ذلـك، لكـن الخجـل منعنـي. لا أجـرؤ علـى إطـلاق صوتي أمام حشد من الناس.

عنـدها وصـلنا إلـى مكتـب المحـامي، ومـا إن دخلنـا حتـى طلـب قرار دائرة الهجرة للاطلاع عليه. قرأه، ثم قال:

– مبـروك، قـرارك إيجـابي. الهجـرة منحتـك إقامـة ثـلاث سـنوات وجواز سفر ألماني. لا قضية لديك لتدافعي عنها.

– مـاذا تقـول؟ إقامـة؟! الجميـع قـالوا إنـه قـرار رفـض وترحيـل.
– لـم يفهمـوا المضـمون. القـرار إيجـابي لأنـك دخلـت ألمانيـا عـن طريق البر. مبروك الإقامة.

اشـرت لهـا دفـع خمسـين يـورو مقابـل السـاعة المخصصـة، وبشـارته بالإقامـة. خرجنـا مـن المكتـب والفرحـة لا تسـعها، وهـي تقول:

– كنت واثقة من قضيتي، كيف خدعوني؟ ثلاثة أشخاص قرأوا القرار وأقروا بأنه رفض وترحيل. تبين أنهم لا يفقهون شيئًا من اللغة الألمانية.

– ألف مبروك يا مريم، الخير فيما اختاره الله.

الوجه الآخر للحكاية - هي ربحت الإقامة، لكنها في نظري خسرت نفسها أمام الله. لم تحصل على الإقامة إلا بتزكية الكنيسة، بعد أن صبأت وتنصرت. حين أكدت لي أن قضيتها "محبوكة 100%"، فهمت لغزها. هكذا يُحارب المسلمون بالخبث، يُسندون من يغيّر دينه ويصبأ.

قال الله تعالى:

{وَلَنْ تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران: 85]

كريستال

همس لها همسة هائمٍ مجنون، شغل فكرها، ورقّت لملاحته. أرسل هاجسها دفقة من شواظ النار، فتأججت فتائلها رقةً وعذوبةً وألقًا. بتلك الهمسات أنهى جدل شوقه وعاطفته، كمن سقاها كأس نبيذ من نار وجده، فأخلّ بميزان هدوئها، فذابت بين عينيه كالسكرة المغشية في مذهب الكأس.

كان قد استهام بها، وقد استهامت به. سكر من طيب شذاها، وسكرت من شهد رجولته. تهاوى في حسن غواها، وتهاوت في صبّ وجده. أضحى كمن يضبح في جريه خلف جريد حبها، وأضحت كمن تتنفس هباب النار من فرط الشوق والوله.

لم يصبر على عصف فتنتها وصمتها، فاعترف لها بإعجابه، فقابلت اعترافه باعترافٍ وإعجابٍ ومقبوليـة. اتفقا على أن

يمضيا معًا حياةً صادقةً على صراطٍ مستقيم، لملما وشائج الغرام المتناثرة، تلك المنبثّة من لدانة الرغبة وسُنن الأهواء وخترفة الأحلام. جنحت الأنفس إلى واحة العشق، لصياغة إقرارٍ أبديٍّ للفتنة الجياشة في الروح والبدن، بعقدِ القِران، لتزفّ الأفئدة الملتاعة بعضها لبعض على ملتقى الصمت وألق المودة.

لم يطل زمن نضجه وإعجابه بها، فتقدّم لخطبتها. التقيا على سرير المحبة برغبةٍ جامحةٍ من الطرفين، وبمباركة الأهل، ليزيّنا بألق الشباب قفصهما الذهبي. أصبحت له كقوقعة صدفية تصون لؤلؤة عشرتِه، وجعلته من حاجاتها الثمينة، التزمت بتعاليمه، حافظت على كيانه، وجمّلت صورته بين أصدقائه. صار لها دفترًا وقلمًا، سطّرت عليه رغباتها وسعادتها وأهواءها وملاذها ولونها.

اندمجت خلاياهما وتداخلت وشائجهما، وتوارت الفروقات في أنزيمات المحبة، حتى غدت علاقتهما في عيون الآخرين ككريستال يلمع تحت ضياء الشمس. صارت نموذجًا يُحتذى به لشدة الألفة والتفاهم والرقي.

استمرت تلك الحالة حتى حلول ضيفهما الأول، حين أنجبت له صبيًا يشبهه. ومنذ لحظة ولادته، تعلّق الأب بابنه تعلق الروح بالجسد، وكأن الطفل قد سرق عواطف أبيه من حضن أمه.

وبسبب شدة تعلقه به، رفض أن يتربى الطفل على أيدي الخدم، فطلب منها أن تستقيل من وظيفتها لتتفرغ لرعايته.

شرح لها جنوحه وجنونه في حب طفله، وبيّن لها حجم خوفه عليه من الإهمال، لعدم ثقته بإدارة الخدم. وبصفته ربّ البيت، أعلن تحمّله لمسؤولياتهم.

لكنها لم تنثنِ لطلبه، ولم تنحنِ لرغبته. فقد وجدت في وظيفتها شخصيتها، ورأت فيها طاقة إيجابية تقتل دودة الفراغ وتكسر نمط الروتين. كانت متنفسًا حقيقيًا تتجاوز به منغصات الحياة، ومتعةً في إلقاء الدروس، واللقاء بزميلات العمل، ومعرفة تقلبات الحياة. وجدت فيها سعادة مرجوة، وحيوية دائمة، وطاقة تحثها على النشاط والعمل وتنعيم الحياة.

فالإنسان بطبيعته يحتاج إلى متنفس يشغل به خلايا عقله. الجلوس في البيت يعني تجميد الفكر والذاكرة، والانشغال بأمور تافهة، ويؤدي إلى السخط والهم والعقد والروتين. حين يحتك الإنسان بالمجتمع، يستلهم منه سعادة تنسيه هموم الدنيا، وتتجدد أفكاره، ويلتمس اختلاف الثقافات، ويشعر بالاعتداد بالنفس وصفاء الذهن، إضافة إلى التكامل المادي والمعنوي والفكري الذي يحتاجه لديمومة الحياة.

العمل يجلي متاعب النفس ويعالج أمراض البدن، تلك التي تتعفن وترهق الذات مع مرور الزمن كبكتيريا العفن. فالإنسان يولد بالفطرة بلا هوية، حتى يجد له متنفسًا لتكوينها. والعمل بالنسبة لها هوية ترفع من قيمتها في المجتمع، وتشعرها بذاتها وهي تشارك الآخرين. كما أن العمل يجنّب الإنسان الامتعاض وأمراض العصر، لذا تجد العمال أكثر صحة بدنيًا ونفسيًا من الموظفين الذين يعملون خلف الكراسي.

الفـرد لا يمكـن أن يجتـر ذاتـه عـن المجتمـع طالمـا يعـيش ضـمن أطـره. وعجلـة العمـر لا بـد لهـا مـن أن تسـتمر، وفـي نهايـة المطاف، تستقر بخلاصة تجاربه واحتكاكه بمحيطه.

كـان جميـل يشـعر بامتعـاض مـن عنـاد زوجتـه بثينـة، فقـد رأى فـي سـلوكها أنانيـةً تمـس حيـاة وليـده، حسـب تقـديره الشخصـي. هجـس فـــي عنادهـــا تطرفًـــا وإخـــلالًا بالمســـؤولية، وربمـــا أصـــابها اضـطراب نفسـي نـاتج عـن التغيـرات الفسـيولوجية والفكريـة والبدنيـة التـي رافقـت تجربـة الإنجـاب. وربمـا غلبـت كرامتهـا عاطفتها تجاه ابنها.

فـي المقابـل، هجسـت بثينـة بـأن الطفـل قـد سـرق منهـا اهتمـام زوجهـا، رغـم أنـه فلـذة كبـدها. شـعرت بتغيـر طباعهـا بعـد الـولادة، ورأت فـي الطفـل سـارقًا لوقتهـا الثمـين واهتمامهـا بـذاتها، دون أن يعوّضـها زوجهـا عـن تلـك الخسـارة، أو يـدرك مـا تعانيـه مـن عقـدة الإنجـاب. اسـتعانت بالخـدم لتخفيـف وطـأة المشـقة، ورفضـت التخلـي عـن وظيفتهـا التـي وجـدت فيهـا متنفسًـا لهويتهـا واستقلالها.

عنـدها بـدأت خيـوط العقـدة تلتـف حـول عنـق العلاقـة بينهمـا، وبـدأ الفتـور يفصـل بـين نـارين، حتـى ذابـت الطرفـة والكلمـة الطيبـة علـى جمـرة العنـاد، وغـارت البسـمة وسـط جمـود المشـاعر. يومًـا بعـد يـوم، زاد الـورس فـي الوجـوه المتجهمـة، وتكـورت العقـد، ومالـت النفـوس نحـو التحـدي وعـزة الـنفس، وكـلٌّ يبحـث عـن نصرٍ على حساب الآخر.

لم تستجب لرغبته، ولم يتنازل عن طلبه، فارتفعت وتيرة العناد، وهفت المحبة في تيارات التصلب. بقيت الحالة الشاذة سارية، حتى وصلت الألفة إلى مرحلة التفتت والتمزق، وتحول الخصام إلى رغبة في الانفصام. طرقت أبواب المحاكم. هجس كل منهما بأن الحلول باتت عقيمة، تفتقر إلى الإرادة والقرار والتفاهم. فراحا يبحثان عن حل جذري عبر الطلاق.

استمرت الحالة المستعصية عدة أشهر، بين جذب وشد، حتى وجد القاضي هوة شاسعة تفصل بين فكريهما، دون أن يحكم بالطلاق. لكنه لمح في العقدة فسحة أمل ضئيلة قد تعيد المياه إلى مجاريها، رغم سيل العناد والجفاء.

أيقظ ضميره، فلم يواكب تطلعاتهما بقطع صلة الرحم. لمس التلاحم العاطفي بينهما، ووجد صعوبة في البتّ بأمر الطلاق لأسباب غير مقنعة. فأخذ يؤجل القرار شهرًا بعد شهر.

في المقابل، زاد التذمر والتنمر بين الزوجين، حتى تحولت حالة الانفصال إلى صيغة قبول، واختلط سواد الظن ببياض النية، وطغت الرمادية على المشهد العام.

في الجلسة الأخيرة، كان لا بد للقاضي أن ينهي هذا الجدل بعد سلسلة من التأجيلات. وقبل أن ينطق بالحكم، طلب من كلٍّ منهما كتابة خمس خصال في الطرف الآخر على قصاصة ورقية، واحتفظ بها بسرية. بعد أن دوّن جميل خصال بثينة،

ودوّنـت بثينـة خصـال جميـل، طلـب منهمـا تبـادل القصاصـات وقراءتها بصمت.

حينهـا، شـرعا يقـرآن الخصـال ويختلسـان النظـر لبعضـهما الـبعض، وعلـى وجهيهمـا تفتـرش ابتسـامة شـفيفة، تـارة بخجـل ونـدم، وتـارة بشـوق وحسـرة. قـرأ القاضـي هواجسـهما فـي صمت.

غـادر القاضـي غرفـة التحقيـق لخمـس دقـائق، وحـين عـاد، راقـب تغيـرات الحالـة الطارئـة بـين الـزوجين، فوجـدهما غـارقين فـي وشوشـة آنيـة، يبتسـمان لبعضـهما الـبعض. عنـدها اقتـرح علـى جميـل أن يعـزم زوجتـه فـي مطعـم قبـل تقريـر المصـير، علـى أن يعودا بعد يومين لتثبيت أمر الطلاق.

لكـن الـزوجين شـكرا القاضـي علـى حسـن تصـرفه وبعـد نظـره، وقالا له:

"شـكرًا لـك، لـن نحتـاج قـرارك... سـنحل مشـاكلنا بأنفسـنا. لقـد قررنـا الاحتفاظ ببلورة الكريستال."

تأبطـت الزوجـة ذراع زوجهـا وهمـا خارجـان مـن القاعـة، فيمـا بقـي القاضـي يتجـول بـين القصاصـات التـي بقيت سرًّا مـن أسـرار الـزوجين. لقد حـافظ علـى الكريسـتال مـن عبـث الـزمن، لأنـه وجـد فيه لمعةً تبهج العين.

العاشق والكلب

وسط امتدادٍ شاسع من الصحراء، حيث يغلب على الأفق لون واحد لا يتغير وهو لون الرمال، عاش أمير شهورًا ستة كأنها دهرٌ من العزلة والأنكماش. وحدة المشاة المرابطة في قلب صحراء الأنبار لم تكن سوى محطة يعبر منها الجنود نحو قسوة لا ملامح لها. قرفت نفس أمير من مواجهة الروتين وهالة الضغوطات النفسية التي تعرض لها من قبل ظرف الوطن السائد، وسخط الطقس، والحالة القسرية وخاصة أنه كان قد تزوج بفتاة أحلامه قبل أن يساق لوحدته بشهرين.

تكالبت عليه المواجع حتى وشل صبره، حتى أضحت الظروف القسرية المفروضة عليه حاجزا منيعا بينه وبين حبيبته طوال تلك الفترة الحرجة من حياة الإنسان. كان أمير،

ابـن البصـرة، قـد احتمـل كـل شـيء لأجـل إسـعاد زوجتـه: الأوامـر الصـارمة، سـوء الطقـس، العـيش فـي ظـل أمـانٍ شـبه معـدوم. تلـك الظـروف أولـدت ضـيقا وقرفـا فـي صـدر أميـر، فـي ظـل انقطـاع دائـم للتيـار الكهربـائي، بسـبب خلـل فـي المنظومـة الكهربائيـة. لكنه لم يكن مهيأً للفراق والفراغ الذي ينهش روحه ببطء قاتل.

الحـرارة كانـت تبسـط نفوذهـا علـى المحـيط كلـه، الرمـال التـي تمـلأ الأفـق لـم تكـن سـوى صـهريج ملتهـب، جمـرٍ خفـي يتحـرق تحـت الأقـدام، تُطلـق أبخـرةً تخنـق الأنفـاس. فأينمـا يبصـر يجـد سـرابا عائمـا فـي البقـاع.. تلـك الظـواهر الطبيعيـة أغشـته، زادت مـن جدليـة الحالـة المـرة فـي فكـره. العواصـف تكـاد لا تبطـل غثاثتهـا، لا يسـتهويها سـوى الحركـة العشـوائية، تكـاد تكـون شـبه دائميـه خـلال فتـرة الصـيف تتحـرك بعـد التاسـعة صـباحا ولا تهـدأ حتـى الثالثـة عصـرا، تشـتط أجنحتهـا فتثيـر الغبـرة فـي آفـق السـماء مـع ارتفـاع الحـرارة لتقطـع دابـر الرؤيـا والتـنفس، وكـأنَّ الأرض نفسـها تـرفض أن تحتمـل ثقـل البشـر، تـدفعهم نحـو الجنـون، تضـعهم أمـام الحقيقـة المطلقـة: لا مكـان هنـا إلا للأقـوى، ولا نجـاة إلا لمن استطاع أن يغلق مجسات فكره وعقله وقلبه.

وفـي ليلـةٍ مـن ليـالي الإرهـاق الطويلـة، حـين كُلّـف أميـر بحراسـة بوابـة الوحـدة، تقـدم منـه كلـب، كأنـه ربيـب الوحـدة. بـدى كأنـه أنهكـه الجـوع. فـي لحظـة صـمتٍ متبادلـة رحـب أميـر بـه، بـدا وكـأن هـذا الحيـوان قـد فهِـم مـا يعانيـه الجنـدي فجـاء يسـاعده فـي عملية المراقبة، كما لو أن الألم قد أصبح لغةً مشتركة بينهما.

حال الكلب لا يختلف عن حال الجندي أمير إلا في الهيئة، الاثنان جمعهما الظرف والمكان لذات الهدف والغرض. الكلب لم يجد مأوى ومطعم أفضل من الوحدة، فصار يرنوا إلى الوحدة العسكرية ليملأ بطنه بما يجود به المعسكر؛ مقابل أن يعينهم على مبدأ الحراسة ليلا.. فيما أمير هو كذلك لم يجد ملجأ حنان يأويه ويعينه على الحياة سوى أن ينتمي للمؤسسة العسكرية، ليعيل نفسه وزوجته على كف شبح الفاقة.

اقترب الكلب بحذر، فمدَّ أمير يده ببقايا طعامٍ وماءٍ كان قد احتفظ بهما، وكأنها طقوسٌ بين اثنين لا يجمعهما سوى الصراع من أجل البقاء. تحدث أمير إليه كما لو كان صديقًا أو كائنًا قادرًا على الفهم والإصغاء، وكان الرد يأتي دائمًا بتلك الهمهمة الخافتة.

- كيف حالك، يا صديقي؟ ربما أنت أفضل مني.
- أم... جاء الرد خافتًا، كأنما وافقه على معاناته.
- أنت حر، لا تأتمر بأوامر ذلك الضابط المتعجرف.
- أم.
- أنت لست مجبرًا على البقاء في هذه البقعة النائية الجرداء، يمكنك الرحيل متى شئت.
- أم...
- ولكنك بقيت هنا رغم كل شيء. هل أنت غبيٌ لهذا الحد؟ أم أنك أشد وفاءً مما ينبغي؟
- أم...

أمير تنهد بعمق، مدَّ بصره نحو الأفق البعيد، حيث الريح تجرّ ذرات الرمل معها كأشباح تتحرك أمامه ترهبه، كأنها دعوةٌ للهرب. ذلك الشعور الذي رافقه طيلة الأشهر الماضية بدأ يأخذ شكلاً أوضح من هالة الرعب؛ لم يهجس بهذا المكان سوى قبرٍ مفتوحٍ ينتظر أن يبتلع صاحبه في لحظة غفلة. لم يكن أمير لوحده في هذا المأزق، بل كان برفقة كائنٍ آخر قرر أن يبقى وفيا للمعسكر بلا تبريرات عقيمة.

الظلمة سائدة وتلك الكثبان المتحركة بدت له في محيطه أشبه بأوكار شياطين تبث الرعب في قلبه، صفير الريح بدا كانه نداءٍ آتٍ من بعيد يدعوه للقاء، ربما ينطلق من داخله، أو من بوتقة اشتياق زوجته. هناك وسط تلك العتمة ظهر في الأفق طيف زوجته أمامه ينحدر من النجوم، وهي تمد يداها نحوه، تناجيه من خلف الهواجس المكهربة. عندها أدرك أن القرار الوحيد القادر على إنقاذه هو الهروب مع صوت الريح. لم يعد التفكير يعينه على تحدي الظرف، ولم تعد المقاومة حلًا لمعضلاته. وكأنه سمع نداء حبيبته متوشحٍ بصفير الريح؛ لذا قرر أن يجاري خياله ويدخل نفق الهيام وسط هباب الريح، علّه يعثر على حبيبته خلف ستار الهواجس المكهربة..

ترك سلاحه خلفة بمعية الكلب وصار يتبع الريح وعينه تتمعن في المجهول العميق بحثا عن وجه حبيبته، تبع الهاجس المجهول، فيما بقي الكلب يحرس موقعه، يرعاه بضميره، كما لو كان شاهدًا على لحظة استسلام لا تُنسى، راعيا أمير وبما حاق به من سقم ومرار.

أستمر أمير في مغازلة فكره ومراعاة سره، متدحرجا مع الريح وعين الكلب تتبع أثره، حتى غص في ضباب العتمة حين أدرك حدود الشارع العام، لتقلله من هناك عجلة عابرة لمركز مدينة حديثة.

الدنيء

استفاق من غفوته وقرر أن يبدأ تغيير منهج حياته، أن يُحسن من ظرف معيشته، أن يرتقي بحاله لمصاف المقبولية مما يعانيه من سوء تدبير وفاقة.. لذا أخذ ميثم بمشورة والده وقرر الهجرة خارج العراق، إيذانا بتفاقم سوء الأوضاع وانحدار المستوى المعيشي العام وضعف فرص العمل والأمان بعد احتلال العراق. كما رنا الى الآية الكريمة " هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فأمشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور" صدق الله العظيم.

قرر الهجرة سنة 2010 ، خلال الرحلة الميمونة من بغداد إلى تركيا؛ كان قد تعرف على شاب في الطريق أسمه حسن، أبن العشرين عاما، كرفيق له في الطريق. كان قد أحسن إليه بحمل أحدى حقيبتيه خلال مشواره. حسن هذا له دراية جيدة بإسطنبول كونه مقيم بها، يسكن منفردا في شقة صغيرة تقع في شارع فاتيح – الشقة عبارة عن استديو (غرفة متوسطة الحجم فيها سريرين زائدا حمام ومطبخ) قريبة عن مكان عمله.

بعد الاندماج في الطريق واستبيان الظروف المتشابهة التي دفعت بهما إلى الهجرة، ألح حسن على ميثم بالسكن معه في شقته حتى تستقر أموره ومن ثم يقرر مصير هجرته للجهة التي يبتغيها....

في إصراره وملحته؛ التمس ميثم طيبته وحسن سلوكه، كما وجد فرصة سانحة أمامه للتعرف على معلم مدينة اسطنبول وسبل الهجرة منها لأروبا. حينها لانَ لطلبه، كونه بحاجة ماسة لمرشد يعينه في اسطنبول لتجاوز الفترة الحرجة من رحلته، يمكن أن يستعين به، ويحافظ على ما في جيبه من اموال للغد الآتي، كما سيتعرف على أسرار ومنافذ طرق الهجرة.

شارع فاتيح شارع تجاري متخم بالكماليات والألبسة الجاهزة، لذا دائما ما تجده مزدحما بالمارة، كما أنه شارعا حيويا يقع في منطقة حيوية من إسطنبول تكتظ بالسكان وباعة الجملة

والمفـرد ومحــلات الأجهــزة الكهربائيــة، طــول الشــارع بحــدود كيلومترين.

خـلال مرحلـة السـفر كانـت قـد أرتقـت الحالـة النفسـية بـين الأثنـين إلـــى درجـــة الألفـــة، بحيـــث أزيحـــت العقـــد وأذيـــب الاســـتحياء والغرابـة بينهمـا بعـد أن التحمـت الوشـائج حـد الانصـهار. لتقـارب الميـول بينهمـا، كانـت قـد رفعـت درجـة التكلـف بانـدماج فكـر كـلٍ منهمـا بفكـر الآخـر، كـأنَّ كـل منهمـا علـى صـلة بـالآخر منـذ أمـد بعيـد. علـى الأقـل كـان ذلـك مـن وجهـة نظـر ميـثم الـذي كـان يكبـر حسن بعشرة سنوات تقريبا.

مــا أن دخــلا الشــقة؛ حتــى هجــس ميــثم بحاجتــه الماســة للاســتحمام لمـا كـان يشـعر بـه مـن حـرارة فـي الجسـد، ود نـزع كـدر الرحلـة وغـل السـفر وإرهاقـه، كـان حسـن قـد هادنـه خـلال رحلتـه بحمـل أحـدى حقائبـه- لـذا وجـد ميـثم طمأنينـة منــه، حـين خلـع ملابسـه تركهـا علـى أحـد الأسـرة، كمـا تـرك محفظتـه وعلبـة سـجائره فـوق طاولة صغيرة تتوسط السريين ثم دخل إلى الحمام ليستحم.

مــا أن فــتح دوش الحمــام علــى رأســه؛ حتــى ســمع طرقــا علــى البــاب بملحــة مــن حســن، يطلــب منــه تســليمه ملابســه الداخليــة المتسخة ليغسلها، قال له بملحة عجيبة وبترجي!!:...

- يا ميثم أعطني ملابسك أغسلها!!!
- لا مستحيل، هذا غير ممكن..
- لا تكـن جلفـا، أنـا اخـوك الصـغير، ثـم أنـا لا اغسـلها بيـدي، أنـها الة الغسالة التي تغسل الملابس.

- يـا أخـي انـا لا أدع أختـي تغسـل ملابسـي، وبالـذات الداخليـة منهـا، فكيـف أسـمح لنفسـي بـأن تغسـلها أنـت بذاتك؟
- قلـت لـك لا تضـع العراقيـل والعقـد بيننـا، خـذ المسـألة ببسـاطة، أنـا مجـرد وسـيط أضـعها داخـل الغسـالة لتغسـل وتنشـف بسـرعة، دعنـا نكسـب الوقـت لا أكثـر، ثـم أنـك كنـت قـد خـدمتني كثيـرا خـلال الطريـق، وحملـت عنـي أوجار السفر، وأريد أن أعيضك عن ذلك.

بسـبب الحاحـه المتزايـد، ووقوفـه ببـاب الحمـام مصـرا علـى رأيـه؛ أرتخى ميثم لطلبه مسلما إياه ملابسه الداخلية ليغسلها.

وبعد استحمامه؛ أخـذ قسطا مـن الراحـة، ثـم قـرر أن يعـزم رفيقـه حسـن فـي مطعـم قريـب مـن الشـقة، ليملئـا بطونهمـا بأكلـة تنسـيهما جعجعتهـا الخاويـة وعنـاء الرحلـة.. ارتـأت هواجسـهما بـأن يـذهبا لمطعـم يعنـي بـالأكلات العربيـة، وأن يـأكلا ممـا تشـتهيه الـنفس، مضت الأمور بسلاسة حتى امتلأت بطونهما مما جاد به الله...

بعـد الانتهـاء مـن وجبتيهمـا؛ تنافسـا الأثنـان علـى دفـع فـاتورة الأكـل المقـدرة بــ 15 دولار تقريبـا...... ومـا أن فـتح ميـثم محفظتـه كـي يـدفع فـاتورة الحسـاب حتـى لسـعته المفاجـأة، مـا أن دقق فـي محفظتـه حتـى أرتجـتْ ذاتـه علـى حين غفلـة.... لقد وجد المحفظـة تصـفر، خاويـة، خاليـة مـن النقـود!... حينهـا استشـاطتْ أوداجـه غضـبا، صـار أشـبه بالسـمكة المزهـرة لا يـرطن إلـى سكون، مشتت الفكر، مضطربا، تائها في سلوكه وتركين ذاته.

أنتبه عليه حسن وهو يتقلب بين يديه مصفر الوجهه... حينها سأله بخبث وارتياب..

- ما بك يا اخي؟

لم ينبس بشفة، لم يستطع أن يذكر له الحقيقة، غص في غيضه، كتم همه في وحل خجله، لا يستطيع اتهامه جهرة بسرقته، بات يشك بأمر نفسه. صار يتمتم مع نفسه دون أن يفقه من تمتمته شيئا، معرضا وجهه إلى الجانب الآخر، قائلا له بجفاء:...

- لا شيء، كأني قد أضعت نقودي أو صرفتها.

في إجابته؛ كأنه أرسل له رسالة، أوضح فيها معرفته بما حصل.

ببجاحة وغلظ قال له حسن:...

- لا يهمك يا أخي؛ أنا سأدفع عنك فاتورة الطعام.

صار ميثم يسال نفسه ويجيب:...

- هل من المعقول أني أضعت 250 دولار في الطريق.. لا وألف لا، أن ضاع شيء من المحفظة لضاعت المحفظة كلها.. أين ذهبت فلوسي أذا؟ ترى هل ذهبت ضريبة ثقتي به، أم ضريبة الأمان الذي منحني إياه؟ أم ضريبة غسله ملابسي الداخلية؟..هههههههههه...

أصحى يا نائم، لا تثق بكائن وأن كان من صلبك، وبالذات في هذا الزمن الكفيف. ترى؛ لو عرف مقدار ما أحمل والمدفون في جيب سترتي السري؛ لجردني من كل ما أملك، أنها إشارة من الله أن أتمسك بالحذر.

من جانبه حسن كان قد فكر في فرصة سرقة ميثم منذ الوهلة الأولى التي تعرف بها عليه، وقد خطرت في ذهنه فكرة استغلال الفرصة، كونه أضحى ككبش الفداء بين يديه، أنه غشيم وطيب القلب، والفرصة مواتية في استغلاله وصيده، كونه أول مرة يغادر العراق.

بما أنه في ذاته نية الهجرة، إذا لابد من أنه يحمل معه مبلغا دسما من المال. لذا الح عليه على أن يسكن معه في شقته ليقترب من هاجس الفرصة أكثر، وليسهل عليه سرقته ومباغتته.

ترى إلى أين ذهبا بنفسياتهما؟ هذا ذهب لنفسه وبراءتها، وذاك ذهب لذاته وتربيته وعينه الجانحة. هذا تمسك بالقرار والفرار وذاك تبع المكر والإقرار، فالتمس في سره السحن والعذاب النفسي والمرار. فمهما أزفت وتولت النفس؛ فلن تفلح في سعييها تلك النفس الأمارة بالسوء لابد أن تُذْكر وأن ظفرت بغنيمة ما، حتما ستلاقي الويل والمرار.

لقد تمكن حسن من سلت المبلغ من المحفظة بعد أن خاب ظنه في إيجاد المبلغ المخبأ، بعد ذلك حاول التمويه في سلوكه بغسله ملابسه الداخلية، ولكن بدل أن يخفي شنعته الخبيثة

بوشاح الطيبة التي أبداها تجاهه في سلوكه، كان قد عرى ذاته بالخسة والنذالة. لقد أوقع ذاته في شرك مصيدة الرحمن التي لا ترحم....

حينها ختم ميثم على نبذ صداقة حسن بالشمع الأحمر، ليتجنب امثاله الذين كثروا في بلاد الغربة، هؤلاء الذين يعيشون على أكتاف البسطاء كالبكتريا العفنة.

تَغَيَّرَتِ المَوَدَّةُ وَالإِخاءُ--- وَقَلَّ الصِدقُ وَاِنقَطَعَ الرَجاءُ

وأَسلَمَني الزَمانُ إِلى صَديقٍ--- كَثيرِ الغَدرِ لَيسَ لَهُ رَعاءُ

الامام علي رضي الله عنه

الفراشة

ما إن لمحتها في ممر البناية التي نسكن بها، حتى تسللت إلى حشاشة الفؤاد كقطعة حلوى، بسلاستها وعفويتها، راقت لمزاجي، واستحقت الثناء والإطراء. تهجس بها كفراشة تتنقل بخفة بين زوايا المكان، لا يروق لها مقام ثابت، تدور حول ذاتها أحيانًا، ترسم ببراءتها شكل زهرة نرجسية، بثيابها البيضاء وقلنسوتها الزرقاء، وكأنها تدرك حجم الأنظار الموجهة إليها، فتستقطبها دون قصد.

لباسها كان مميزًا: طقم بيجامة قطنية بيضاء، مقلمة بخطوط سوداء دقيقة، تعلوها أحيانًا كنزة سوداء براقة. الحجاب يأكل ثلث وجهها، فلا يظهر منها سوى عينين كعيني قط، وقلنسوة تقيها برد الشتاء، وكمامة بيضاء تحميها من شرر كورونا. كان ذلك في كامب شنيبر، عام 2020.

غريبة الأطوار، باحتشامها وحيائها، كتحفة نادرة تشع منها الأصالة، يشكمها الدين وحسن التربية. لباسها المعتاد يشي بعفتها، بعيدًا عن الإغراءات التي تتبجح بها بعض الفتيات في سنها. ينبثق منها ألق كضياء مصابيح تتشظى من شعل، تبهج أوصال فتنتها، وتستثير الأضواء ببساطتها ونظافتها، كأنها ماسة وسط غيوم الكامب.

في كيانها غيداء، عفراء، هيفاء، ناعمة، فاتنة، مرآة في حشمتها وحيائها، كصفة اللون في الزهرة. كانت تحمل في جيبها هاتفين، وكأنها إن فرغ شحن أحدهما استعانت بالآخر، لكثرة مهاتفتها. تهجس بها كحمامة تلهو خارج السرب، مشغولة البال بأمر خاص، لا تهدأ.

حين تهاتف أحدهم، تدور حول نفسها باتجاه واحد، كعقرب الساعة، في دائرة قطرها متران أو ثلاثة، كأنها مصراع ميكانيكي مبرمج، لا تتعب ولا تكل، لا تتوقف حتى تنهي مكالمتها. خلال دورانها، تهجس بها ترسم في خيالها هدفًا أقرب إليها من ذاتها. راقبتها مرارًا، لأشغل وقتي، وحاولت عد دوراتها، لكني عجزت، فهي مشحونة بطاقة لا تنفد، ككوكب سيّار يسعى لاحتضان قرص الشمس.

في مهاتفتها، تبذل جهدًا مضنيًا، تركّز على إيصال الفكرة بسلاسة، تحرك يديها ورأسها، تصرخ وتهدأ كممثلة بارعة، تتعمق في الفكرة، تبحث عن مغزاها، كأنها ترتب تفاصيل زفاف أو تجهيز بيت الزوجية. تبدو كأنها محور الفكرة، ميزان دقيق للمعرفة، عتلة توازن يعتمد عليها الطرف الآخر في ترتيب شؤونه.

بألقها، كانت تفرض ذاتها على المهاتف، تقرضه حتى يرضخ، تهيمن على الحوار دون عناء. وأجزم أن الطرف الآخر مكبول بها، لا يجرؤ على مخالفتها أو مقاطعتها، مستمع فقط، فهي في مهاتفتها كآلة جرش، لا تسمح للمقابل بالكلام، لثرثرتها وجهرها في الممر كأنها مجموعة عصافير تزقزق في آن واحد، لا تمنح فرصة للمقابل أن يرد.

في اندماجها، تعزل نفسها عن العالم، لا تسمع ولا ترى، كعجلة متدحرجة من قمة جبل نحو سحيق، لا تكف عن الدوران إلا حين تنفد طاقتها وتثبت رأيها.

في إحدى الليالي، بعد منتصف الليل، وجدتها تدور قرب غرفتي، لم أستطع عد دوراتها، فتقدمت منها ممازحًا:

– يا نور، اضغطي على دواسة الوقوف.

قالت بابتسامتها المعهودة:

– لا أستطيع.

فقلت مبتسمًا:

– يا نور، أنت واهمة، الحج والعمرة عدد الدورات سبع مرات فقط، أنت تجاوزت المئة.

ابتسمت برقة وحياء، وكأنها تود أن تقول: لا تشغلني، فأنا الآن في عالم الأرواح والسعادة، أربط وتر العقل والقلب ببؤرة الفكرة، ليكون لصداها نغم عند الطرف الآخر. لا تقطع عني شبكة التواصل الملمة بحيثيات المستقبل.

كما توقعت، كانت تخاطب خطيبها، في أوج ترتيب الزواج والزفة والسكن... كان الله بعونه.

صارت كلما تراني تبتسم، تتذكر اعتراضي على دوراتها المكوكية. تعودت أن أراها بذات البهجة والألق صباحًا ومساءً.

وحين جاءت لجنة حل العقد من دائرة الهجرة، قدمت اعتراضًا على بُعدها عن خطيبها، ثم اختفت مباشرة. توقعت أن اللجنة استجابت، لكنها كانت تهرب من سجن الكامب لتقضي وقتها بين أهلها. هجست بها كطير مهاجر، تختفي ثم تظهر كنجمة سهيل الساطعة.

ما إن غابت، حتى هجست بانزواء الشمس، وكأنها كانت تضيء جدران المكان بحركاتها ونشاطها. رغم كثرة الفاتنات في البناية، إلا أنها حين غابت، تركت برواز فتنتها يؤطر ظلها على الجدران، وطيفها في الذاكرة.

عندها ران لذهني بيت أبي العتاهية:...

وفرز النفوس كفرز الصخور – ففيها النفيس وفيها الحجر

الصورة

كنتُ قد عدتُ لغرفتي في ساعة متأخرة من الليل، جلست على سريري أتأمل الحيطان واللوحة الزيتية المعلقة على الجدار المقابل لسريري، تخزق أذنيَّ ترنيمة الساعة الجدارية التي لا تكف عن إزعاجي بصوتها الرتيب تك – تك - تك، وكأنها تذكرني بالوحدة وحساب العمر الذي يجري لمطافه الأخير...

اللوحة أكثر ما شدهت انتباهي، صرت أشغل بالي بها وأحاول تفسير فكرة رسامها وماذا يبغي منها، أوحت إليَّ شعورا بالحزن وأنا أرى فيها وجه فتاة مراهقة أضناها الزمن، تغشي وجهها خطوط بؤس هميمه جراء عناء الزمن والفقر البائن على محياها ولباسها وعملها، تشقيها باقة حطب محمولة على

ظهرها المعتد، ترتدي لبدة من الصوف، تحمي جلدها الرقيق من خدش خشونة عيدان الحطب، والتي ممكن أن تقرح جلدها تلك النتوءات المدببة.

تبدو جادة بحملها وهي تمشي في ممر ضيق مطرق من قبل السابلة، تربة مليئة بأنواع من أعشاب الشوك والعاقول والصبير والنباتات البرية الصحراوية والورود الجافة الشوكية، التي من الممكن أن تدمي قدميها العاريتين. مع ذلك تبدو في عندٍ وإصرار وعزيمة على مقارعة الطريق والظرف المحيط بها وهي تمضي باعتداد واضح.

ترتدي تحت اللبدة نفنوف شفاف من قماش الشيفون وردي اللون، مفلجة الصدر، يغطي بطنها وجزء من ساقيها حتى الركب، مما يفضي إلى بروز مفاتن الجسد المغرية، المغنجة بالشبق، كإطلالة جزء من ثرى الثدي المنتبذ تحت حمالة الصدر، وذلك من خلال انحناء قوام ظهرها بزاوية منفرجة، لتوازن ذاتها مع ثقل الحطب المحمل على ظهرها خلال المشي. إضافة لبروز واضح في تكور عجيزها المصان بشكل دائري للخلف، وكأن الرسام ركز على مفاتنها ليثير انتباه الناظر بشكل ملفت للنظر، كأن الرسام تقصد في اتقاد شعل المفاتن ليجذب المشاهد للوحاته، بل أنه مريض فعلا بمرض سادي بما يخص أنوثة المرأة..

مع إطلالة مفاتن الجسد وتوافق ابتهاج رمان الصدر بالألق؛ بدتْ في محيطها تجذب النظر كوردة زاهية ترفل الطريق بألقها. فيما تبدو ساقيها المغنجتين بالرقة والفتنة كشطبي عود

بـــان لاســـتقامتها وطـــراوة بشـــرتها، يشـــع مـــنهنَّ حيويـــة وألـــق، مصـقولتان مـن الشـمع، للفـيض الـذي يسـيح فوقهمـا. فيمـا ترتـدي فـــي قـــدميها حـــذاء أحمـــر مـــن الجلـــد، يغطـــي القـــدم إلـــى الرســـغ، ليقيءها عبث الأشواك وقَرَصْ الأحجار الصغيرة المشاكسة.

كانــت تبـدو أبنــة السادســة عشــرة أو الثامنــة عشــرة فــي الســن، أي كانـــت فـــي قمـــة الألـــق والرقـــة والطـــراوة. كأنهـــا كانـــت تحـــارب الـــزمن والحجـــر والشـــجر والحـــر والوحشـــة بتلـــك الأنوثـــة الدبقـــة التـــي تركبهـــا. أو بـــأن تلـــك المبـــاهج تفتقـــر إلـــى الجاذبيـــة دون أثـــر تلـــك الفتـــاة الرائعـــة. إذا مـــا أخـــذنا شـــعرها الاصـــهب يتـــدلى مـــن تحــت وشــاح شــفاف تلــف بهــا رأســها تجنبــا لتعشــق الحطــب فيــه وللحفــاظ عليــه مــن الغبــرة التــي تفتعلهــا الــريح بــين آونــة وأخــرى، وهــو يحــيط اسيل الخــد وتلــك الشــفاه الريانــة البــاهرة بــأنف يبــدو كتمــرة ناضــجة وعينــين عســليتين تجهــد فــي فتحهــا، نتيجــة الحــر المضاع والعرق المتصبب من على الجبين.

وجـدتُ فـي الصـورة تمـازج فـي تركيبـة اللـون والأبعـاد التـي رام إليهــا الرســام، أبهرنــي عمــق المغــزى، وجــدتُ أبعــاد الفكــرة تلتقــي فــي زوايــا الفتنــة توافــق قــدر الفتــاة مــع ســحرها وفظاظــة الطبيعــة، تبدو كأنها ترتدي العزم والرجاء بذات الكيفية.

إبــداعٌ ملفــتٌ للنظــر ســطرته ريشــة الفنــان وبالــذات فــي مواضــع فتنـــة الجســـد، أضـــفى مهـــارة فـــي تجســـيد الفكـــرة، أبـــدع فـــي بـــروز الفتــاة كعامــل جمــال رئيســي فــي الفكــرة التــي يبتغيهــا. تمكــن الفنــان مـــن تعميـــق ذلـــك الخـــط الـــوهمي البـــارز فـــي الفكـــرة بشـــيء مـــن العبقريــة، جســد الفكــرة علــى أنهــا شخصــية هلاميــة قائمــة بــذاتها

تجـول فــي منعطفــات اللوحــة برفقــة الفتــاة، إلــى جانــب التحــدي الواضــح فــي أصــرار الفتــاة المراهقــة علــى المراهنــة بقــدرتها الفتيــة فــي طــي ظــل الوحشــة والوحــدة التــي تعيشــها تحــت جلــد وبأس الظرف.

لوحــة تعبيريــة جسـدت حالــة الفتــاة وهــي تشـقى فـي تجـاوز محنــة الــرزق وجمــود الحيــاة بإصــرار، بــذا كأنــه شــكل مقارنــة وهميــة بـين عمرهـا الفتـي وقسـوة الظـرف.. إلـى جانـب إصـرار الفتـاة فـي تخطــي عجزهــا، أوضــح أمــل زاحــف يــوازي طموحاتهــا، تــراه حلــم مغــروس فــي التربــة يقــاوم الطبيعــة كمقاومــة الشــجر لــذاك الظـرف، مـع تواجـد جربـوع يزحـف بخطـاه خلـف البنـت، كانـه يتبــع حيويتهــا التــي فرضــتها علــى الطبيعــة، فــي تلــك البــؤرة المنعزلة. كأنه غرَّ بفتنة الحياة وجسد تلك الفاتنة..

كــان الرســام قــد أصــرَّ إلــى إبــراز مواضــع الفــتن، ليــدهش النــاظر بقــوة بصــيرته، وضــع اللغــز فــي صــرة الهــدف، جعــل المشــاهد يغــور فــي الفكــرة التــي تجتمــع عليهــا الأفكــار الاخــرى، ليرتقــي بالمشــهد إلــى شــيء مــن البلاغــة، ود جعــل المشــاهد عنصــرا مــن عناصــر اللوحــة، لتتجــاوز الفكــرة حــدود عناصــرها وليســتفيد مــن شكل المغازلة الحية بين الفتاة والمشاهد لها.

كــأنَّ الجربــوع وجــد فــي الفتــاة صــفة إضــافية تضــفي الجاذبيــة علــى الطبيعــة، لــذا تبعهــا لينقــذ ذاتــه مــن الوحشــة والوحــدة المكفهـرة المحيطـة بـه. أهجـس بحالـه لا يختلـف عـن حـالي مـن ناحيـة الوحـدة والحيـرة والتعجـب والالهـام، جعلنـي اتبـع غيـه فـي تتبع فتن الفتاة بحثا عن لغز الحياة في الطبيعة وفي جسد الفتاة.

برع الرسام في أضفاء محيط الفتاة بالعقد، غال في الأدغال والأشواك والأحراش والوديان، أضفى التلول والمنحدرات لتجسيد معنى العناء والوحشة، إلى جانب تأثير عصف الريح على جسدها الملائكي، بحيث أينما تنظر تجد للريشة دور في إبراز حالة تثير بها فكرة المشاهد من خلال العناء والشخصية الوهمية الغائرة في ثنايا الفكرة والألوان المنشة بها، المرفلة في مبدأ الحضور في كل مرافئ الصورة. أعطى لهيئة الصورة إنمازا مبهرا في القدرة والتعبير، تمكن من إبراز روح الحركة في واقع الجمود.

لا أهجس بغموض في اللوحة، أينما أنظر أجد فيها شحنة كهربائية، طاقة إيجابية تضيء فكرة ما، أطرها بجاذبية عامة تشد الناظر إليها، سواء كانت في تجسيد الفتنة وعمر الفتاة أو في إبراز جلد الخريف وسرعة الريح السهجة وكثافة الشجر وعناء الجربوع. من خلال تناسق الألوان جعل المستحيل يذلل المستحيل.

قتامة اللون أضفى طابعا الحزن على ملامح الفتاة، إلى جانب طفح أمل شفق بين ظلال عينيها، من خلال عزمها وإصرارها على تحدي الظرف. كأنه أخذ الفكرة من لوحة موناليزا المشهورة للفنان ليونارد دافنشي، وهي تشد العزم على خصرها لمقاومة جلد الظرف البليد والفاقة، لمقارعة القدر برقة الجسد وخفة الدم والفتنة المراقة.

من جانبي وجدت في تلك السيقان المثيرة للشبق، ثورة فتن تنسحب على الساقين من الكاحل حتى الأرداف، في جاذبية

سليطة تحتك بغريزة النفس الامارة بالسوء، تحث الناظر إلى تأمل إشعاع الفتن لما بعد الظاهر من ذلك، ومع ذلك أظلها الظرف، أعشقها في العمل لتجاوز حالة الفقر المربكة التي أجبرتها على تحمل قسرية الظرف والفاقة.

وجدتُ عناصر القوة مركز في ملامح الوجه وطراوة الثديين وبروز العجيز وطراوة الساقين، كأنها تمشي على حد السيف، بين أن تسقط في هوة العذاب أو تفلح في عبور المفازة لتجتاز عجزها وضعفها وفقرها المريب.

الفتاة تبدو عصامية، شديدة المراس، وكأنها أخذت شراستها من جلد الظرف والطبيعية، فهي لا تنظر لحشرجات ضعفها قط؛ أنما إلى مسجدات(إشارات) إرادتها لتتحكم بالظرف وأمور حياتها، لذا ربطت أحزمة العزم على بطنها، أودعت في ذهنها فكرة صماء تساند الظفر، كي لا تهتز عتلة توازنها، كي لا تكسر وتتقهقر.

كانَّ الفنان حين أودع الألوان في موضع الجاذبية، أعتمد في سره على عقد الطبيعة وإيجاد حلول لها، بحيث من ينظر للوحة من نظرة تفسير أو تخاطر يجد فيها شعلة نار إلى جانب جمود ثلج غارق في وجه الفتاة.. كأنَّه أراد بالنار إذابة ثلوج العجز، لتجتاز خط الرجاء الفاصل بين الشك واليقين، بين وجودها وعالم الوجود.

تلك اللوحة جعلتني أتمعن بأبعاد الجسد وملامح الوجه التي أغرتني، وبالذات التناسق في ملامح الوجه وفي تكور فتنة

الساقين، احسبها كرذاذ مطر تغسل وجه اللوحة بالابتهاج. صرت أهيم بتلك المناظر الخلابة، جذبتني سيقانها، أغرتني فتنتها، هجست بها كحبيبتي تشاكسني بألقها. وأنا في غيي أصابني لاعج الهوى، تخيلتها مطروحة إلى جانبي في فرشتي وأنا أحضن وسادتي، مع إغماض عيني تخيلتها زوجتي، بت اشد عليها بغنج وأنا متدثرا ببطانيتي، لما لها من طلة تركت أثرا جميلا في النفس.

كأني انحدرت في غيي وإسهابي كثيرا حين خاتلت ظني، فأغدقت بتخيلي وخيالي في مفاتنها؛ حتى تهت في توهمي بأنها عارية الجسد مطروحة إلى جانبي، خلتها عاملة النظافة التي كنت قد صرفتها في فترة الظهيرة، وكأني قد ندمت على فعلتي بإبعادها دون أن أجامعها. صرت أرهز بالوسادة بعنف، متلذذا بتلك المفاتن وأنا غارق بإستمناءة واستمالة لا أدري كم طالت وطافت بي، غارق في بحرها الطامي. كم راغت وزاغت في خيالي، فلم أشعر بتلك التفاهة والبلادة التي لازمتني إلا بعد أن تبلل رأسي بالعرق ولباسي بلزوجة ماء الحياة، حينها صحوت وعدت لرشدي الوم ذاتي على خسة فعلتي، عدتُ أجر عربة خيبتي وأقرح عيوبي متحولا إلى عالم التأفف والندم، صرت أكره نفسي الهزيلة، وهي تزحف خلف خيال لا يتوقف.

صرت أتلمس وجهي وأنظر لذاتي بالمرآة.

يا ترى؛ ماذا جرى لي وأنا أزحف دون وعي خلف كل فاتنة؟

حينها هجست كم أنا صغير أمام تلك الفتاة، لما فيها من تحد وإصرار وإيباء وقوة وشراسة لعبور مفازة الفقر نحو النجاح. حينها هجست بعصا الضمير تهفو على رأسي، لأستكشف جوف غابة الوحدة والهجر التي تكبلت بها في لحظة نسيان.

هجست بذاتي أصغر شأنا من تلك المراهقة، وأحقر من ذلك الجربوع الذي يتبع الحياة، لمست ذاتي دون عمق حقيقي. لا أدري أن كان سلوكي الغير متزن يقودني لطبيعة الناسوت أم هو مجرد من الايمان باللاهوت، أم يخضع لـ عسعسة شيطانية تنسيني واقعي.. كأني خارج نطاق المسحة البشرية. حينها صرتُ أستنسأ ذاتي اللحظة الإيمانية، كي لا تسقط في مطبات الشك والقدر سقوط الحجر.

عدت أنظر إلى اللوحة مرة أخرى، تبدت كل التفسيرات من مخي، هجست بها لوحة فقيرة بريعها. كأني أخطأت في تقديري وبعد تفكير....

لكني ما أن ركزت بنظري على وجه الفتاة؛ حتى غمزت لي!!

دهشت، تطايرت من رأسي ظنوني الوانا على اللوحة، تلونت عينيها وشفتيها ووجنتيها بتلك الظنون..... ابتسمتْ لي!! صعقتُ. روح ما تدور في ملامح وجهها، ترى من تكون؟ أتكون متلبسة بجنية؟ أم جنوني شط بها، صار يعيد اداخلها في خيالي ونفسي وجنوني؟...

تركت الغرفة، دخلت للحمام لأستحم وأغتسل، لأجز العقد والارق الراكد عن ذهني وذاتي، صرت أقرأ آيات التعويذ،

كـأنَّ الحالـة مقرونـة بالوحـدة والفـراغ الـذي ركـب فكـري، كـأني لا أسـتطيع تخطـي عجـزي منـذ أن فارقـت زوجتـي، بـت أنـوس فـي ذكراها، تائه بين مفاتنها ومفاتن كل سليطة حسناء من النساء.

فسيفساء العقد

فـي الأسـبوع الثـاني مـن وصـولها إلـى الكامـب، شـعرت مـرام أن الحيـاة هنـاك لا تُطـاق. الجـدران تضـيق، والوجـوه تتكـرر، والـروتين يـنهش روحهـا. لـم تكـن القـوانين سـوى قيـود، والحـرس مجرد ظلال متخمة بالعقوبات.

فكـرت أن تمـتهن سـلوكًا آخـر، أن تخـرج عـن الـنص، أن تهـرب مـن الكامـب لأيـام، علّهـا تجـد فـي نبـع الحـب مـا يشـفي غليلهـا. غابـت ثلاثـة أيـام بكنـف زوجهـا، لـم تصـبر علـى فراقـه، قضـتها خـارج جحرهـا، بـين ثنايـا الشـوق، عـدّتها فتـرة نقاهـة تعيـد لهـا حيويتها وبهاءها.

لكـن الأيــام لا تــرحم. بــدأت العقـد تتكــدس فــي طرقاتهــا كركــام النفايــات، كلمــا أزالـــت إربًــا منهـــا، تفاقمـــت أخـــرى، كخلايـــا الســرطان. تحــول يومهــا إلــى مكـب نفايــات نفســي، تتــنفس فيــه الكدر وتختنـق بالملـل. حاولـت بشـتى الطـرق عـلاج مرامهـا، لكـن الغاية كانت ضبابية، لا تُدرك إلا نادرًا.

تحولـت الحيـاة مـن صـفاء إلـى رجـاء، ومـن رجـاء إلـى ملـل، ومـن ملـل إلــى رتابــة. حتــى مهاتفــة زوجهــا صــارت تكـرارًا للأحاديـث ذاتهــا، طرحًــا للعُقـد دون جـدوى. فــي الفطـور والعشــاء، لـم تعـد نغمـــة الشـــهوة تعلـــو، بـــل نغمـــة الـــروتين. الطعـــام بـــلا تجديـــد، والغـداء باهـت الطعـم، تتبعـه أوامـر صــارمة مـن إدارة الشـركة، أجواء مخلخلة في ظل وحدة سليطة لا ترحم.

صــارت مـرام تمـتهن العقـد: نفسـية، ذهنيـة، جسـدية، اجتماعيــة، وغريزيــة. حتــى تعاملهــا مــع رجــال المــارتيزر، أولئـك الحـراس المتخمـين بعقـد القـوانين العقيمـة، زاد مـن أعبائهـا. المكـان نفسـه كان سلبيًا، ينهش الذات ويقمع التأمل.

كـل ذلـك تحـوّل إلــى فسيفســاء مــن الجـزم والعنــاء، تفقــع قواقــع تأملاتهــا يومًــا بعـد يـوم، وسـط شـرذمة مـن المهـاجرين المختلـة والمختلفــة ألـــوانهم وســلوكياتهم وطبـــاعهم. كانـــت مــرام تــراقبهم، تحـاول أن تجـد فـيهم مـا يعيـد لهـا الأمـل، لكـن الـرتم المحـيط بهـا كان أقوى من قدرتها على المقاومة.

فـي نهايـة كـل يـوم، كانـت تنظـر إلـى سـقف الغرفـة، تتسـاءل: هـل هــذه هــي الحيــاة؟ أم مجــرد نســخة مشــوهة منهــا؟ وبــين ســؤال

وآخـر، كانـت تغفـو علـى وسـادة مـن العقـد، وتسـتيقظ علـى ركـام جديد.

آخر المشوار

مـا أن أنهـى مهاتفتهـا؛ حتـى علـم بانـه قـد أدرك معهـا نهايـة المطـاف، أدرك حـدود العلاقـة الزوجيـة، كانـت قـد شـطبت

السطر الأخير من احتمالية الالتقاء به مجددا والتفاهم معه على أمور الخلاف.

كانت قد أبصمت على ختم مشوارها معه بالشمع الأحمر، بعد أن وجدت قناديل شبابها تهفت نحو الأفول؛ طالما بقيت تنتظر ذلك الفرج أن يحل على يديه وهي على ذمته؛ إلا أنه كان معصوب العينين، لا ينظر إلا باتجاهٍ واحدٍ فقط.

تمكنت حميدة أخيرا من وضع حدا لسلوكه المتعجرف، أوقفت تلك الإهانات التي كان يكيلها لها، وتجاوزاته على أهلها ونسبها بسبب ودون سبب، لقد قررت تنقيط حروف جمل العلاقة التي كانت غير منقطة من يوم زواجها به، والتي كان لا يفقه معانيها. تلك العلاقة المبهمة جزلت سنين الزواج، لذا قررت مواجهته بافتعال الصدمة.

تلك هي الطريقة الوحيدة التي تستطيع بها إيقاف نزف حياتها معه، والتي من خلالها يمكن تقدير سلوكه وتصرفاته الغير مسؤولة تجاهها.

لم يكن يتوقع أن تكون لها جراءة وإرادة حرة تفجرها بوجهه، تحضضها على رفع السيف في وجهه، مواجهته، لم يكن يدرك خطورة عصف المرأة أن وجدت متنفسا في ميدان الصراع ماذا ستفعل به. لمْ تأتِي الصدمة من عبث، أنما نمت وكبرت مع وتيرة إجراء أفعاله واشتداد الصراع واستفحال الجدل، جاءت على ضوء انحراف خط سلوكه العام عن حقوق الزوجة، عن صيغة مبدأ سيطرة الرجل.

لـم يجـارِ مشـاعرها، لـم ينصـف تضـحيتها، كانـت ثقتـه بنفسـه عميـاء، أكبـر مـن حقيقـة سـلوكه وتصـرفاته معهـا. لـذا مـا ان بـدأت تبـرز لهـا مخالبـا فـي الغربـة؛ حتـى غرزتهـا فـي عنـق تلـك العـلاق الهشـة. كـان يعـيش خترفـة أحـلام بعيـدة جـدا عـن واقعـه المريـر، عـن واقـع حـدود الأسـرة ومشـاكلها، وبالـذات فـي متابعـة صـغيره المرهق بالزكام، نتيجة برودة اجواء السويد.

ذلـك المطـاف جعـل حميـدة تكـتم الغـيض فـي نفسـها، غـدت أشـبه بـالعبوة الناسـفة، تنتظـر كشـط صـدفية العلاقـة التـي تجمعهمـا لتنفجـر بوجهـه. تلـك العبـوة هـو مـن صـنعها دون أن يعلـم، هـو مـن زرعهـا داخـل بيتـه دون أن يفهـم، هـو مـن دشـنها فـي سـريره دون أن ينتبه، ودون أن يعي أبعادها وشدة تأثيرها.

هـو مـن شـرع فـي إيقـاد فتيلـة العبـوة، هـو مـن عبـث بشـرارتها، حتـى احترقـت جـدران البيـت، بعـد ان غـال فـي تعسـفه وحبـه لذاتـه على حساب احترام تلك العلاقة..

مـا أن حصـلت زوجتـه علـى الإقامـة الدائمـة؛ حتـى بصـقت فـي وجهه، نبذته، تركته يأن وحيدا بين الجدران.

كانـت قـد بزغـت عُقـد الخـلاف بينهمـا كـورم سـرطاني منـذ بدايـة الـزواج. تراكمـت مخلفـات سـلوكه المشـين فـي ذهنهـا عبـر سـنين الـزواج الأعـرج، اختنقـت خلالهـا أزاهيـر شـبابها تمامـا بـدخان شخصـيته المعقـدة، حتـى أضـمحلت تحـت أسـيدة شخصـيته كصورة دون روح وملامح.

خــلال تحكمــه كــان قــد جــزل حريتهــا؛ عــق بريقهــا، حجــم وجودهــا، دعــس عليهــا قبـل أن تـتمكن مــن أن تسـتنجد بالشـرطة لينقـذوها مـن ضـيم فـرض عليهـا.. حينهـا الـتمس ضـفة قـدره، بعـد ان غربـت شمسـها عـن نافذتـه، اختفـت عـن عالمـه تمامـا، تحولـت حياتـه لقفـار مظلمـة، لـيس فيهـا سـوى ذكريـات يناجيهـا كـالنجوم والقمر.

كانت آخر ما قالته له عبر الهاتف وهي في أوج غاضبها:....

- أنتهـى المشـوار، لا تلزمنــي عشـرتك بعـد اليـوم، لـم تكـن أهـلا لتلـك العلاقـة النزيهـة، لـم أجـد فـي قربتـك الفارغـة سـوى الهـم والغـم والعـذاب. جعلـت حيـاتي كـوة نـار متقـدة مــن يــوم الــذي تزوجتــك بــه، مــرارا حاولــت أن أقومــك دون جـدوى، تحملـت قرفـك وسـخطك وقسـوتك مرغمـة، تحملــت أبشــع صــنوف الــذل والهــوان، تبعــت عبثــك كالعميـاء، مـا كنـت أظنـك أعمـى القلـب والعـين، بحيـث لا تـرى حيـاتي وأنـت تـدعس عليهـا بقـدميك. الأيـام الحلـوة لـم تقلــم أظــافرك، لــم تنســيك جبروتــك، فلــم تتخلــى عــن همجيتـك التـي تطبعـت بهـا..لـذا لـم أجـد جـدوى لوجـودي فــي حياتــك، انتزعـت منــي كرامتــي وشخصـيتي، أفسـدت أنــوثتي، جعلتنــي جاريــة تلبــي رغباتــك، كســرت مــرآة أنوثتي بعصا إهمالك.
- أتركـــي لـــي فرصـــة تصـــحيح المســـار؟ أنـــت عشـــيقتي وحبيبتي، لدينا طفل يحتاجنا معا.

- وأنت لم تقدر ذلك، قسوتك، همجيتك، تجاوزك عليَّ بالضرب المبرح دون مبرر، عن أي شيء أصفح، كنت عمياء، معزولة، وحين وصلت لهنا تفتحت عيناي وبقيت أنت أعمى، لا تبحث سوى عن الجنس.

بعد تلك المحادثة أغلقت الهاتف وغيرت شريحة هاتفها لتنقطع عنه إلى الأبد، لتختفي في خضم زحمة المدن والمسافات، بعيدا عن خط القلق والحيرة الذي كبل حريتها.

كان جمال قد هاجر إلى السويد مع زوجته حميدة نتيجة تفاقم أوضاع الحرب في سوريا، وكانت زوجته قد ولدت له طفلا قبل الهجرة بستة أشهر، فكان ذلك الطفل هو السر الوحيد الذي جعلها صابرة على بخله وجبروته وسلوكه الأهوج الهمجي...

خلال مكوثها معه في حلب، تعودت على نمط حياة الفاقة التي تألفها عائلتها، كان أبوها موظفا بسيطا، يكاد مرتبه لا يسد رمق عيشه. فيما كان زوجها أفضل حالا. كان قد تطبع على القسوة التي استقاها من تربية أبوه وطريقة تعامله مع والدته. أعتبرها جارية في بيته، جعل والده مثله الاعلى.

لبس عادات مجتمعه القروي، تعود على الكسل والتنبلة، في الوقت الذي به كانت تلبي جل طلباته. فهي لم تجد مناصا من عدم تنفيذ أوامره، في ذاتها كانت قد هربت من مذلة الفقر لتعشق ذاتها في مذلة الأوامر، وجدت ذاتها مرغمة على تقبل تلك المعيشة المزرية، خاصة بعد قدوم وليدها، تأملت أن يغير طباعه مع الوقت، لكنه كان حجرا أصم.

تلـك هـي الزوجـة التـي أرهقها عاطفيـا وذهنيـا دون أن تـتمكن مـن فـتح فاهها فـي مدينـة حلـب، لإلا ترمـى رميـة الكـلاب بـين ألسـنة النـاس، فـي مجتمـع لا ينصـف المـرأة المطلقـة بتاتـا، تحملـت وزر زوجهـا بالصـمت والسـكوت، رضـيت بالعيشـة المـرة أكرامـا لفلذة كبدها، الذي أضفى عليها هدوءً وبصيرة.

لكــن عنــدما وصــلت الســويد، وجــدت متنفســا حقيقيــا لحريتهــا، وجـدت متسـعا لفـرض حقوقهـا كمـرأة تحـت ظـل القـانون السـويدي الـذي يسـاوي بـين حقـوق الرجـل والمـرأة. بـل أنـه يحـرض المـرأة علــى الانفصــال، والتمتــع فــي فضــاء الحريــة. لــذا بعــد أن تيقنــت مــن مصــيرها؛ أضــرمت النــار فــي هشــيم العلاقــة بمجــرد أن حصلت على الإقامة.

لـم تنفـع تأملاتهـا التـي ذهبـت أدراج الـريح، بقـي متمسـكا بتلـك العجرفــة والنظــرة الدونيــة التــي ظــل ينظــر بهــا إلــى الزوجــة كخادمة يتحكم بمقدراتها..

غـروره أعمـاه، طفلـه لـم يـؤثر بـه، حتـى اكتشـفتْ زوجتـه بأنـه فـارغ الـذهن، هـش مـن الـداخل، لـم تجـد فيـه ميـزة تجعلـه ذا قيمـة تحترمـه.. وجدتـه غـارب فـي خيـال بعيـد عـن واقعـه، شّخصـيّة مـن النـوع السـيكوباتيّة: تـتحكم بـه شـهواته وأطماعـه، خـالٍ مـن صـبغة المشــاعر والأحاســيس؛ متمســكا بكبريائــه علــى حســاب العلاقــة الحميمة، فاقدا صفة الإيثار.

مـن طبيعـة المـرأة تحـب زوجهـا، تتفـاخر بـه، تلـك الغـرة بقيـت تتحصـر عليهـا، دائمـا مـا تجـدها مهمومـة بوحـدتها، محتـارة فـي

تلبيــة متطلباتهــا ومتطلبــات وليــدها. تهجــس بهــا كمكينــة الحــرث تجـد فــي محاولــة كسـب وده ورضــاه، وإذا مــا تخلفـت عـن أمـر ما؛ يكيل لها الضرب دون مقدمات.

مـن جانبهـا كانـت تحـاول الحفـاظ علـى الرمـق الأخيـر دون أن تفسد الـود، لكونـه أبـو أبنهـا مـن جهـة، ومـن جهـة أخـرى تهجس بأنهـا لا زلـت صـغيرة السـن لـن تحتمـل فجـوة الوحـدة ومشـقة الحياة في ظل غربة لم تتأقلم عليها بعد.

لكنــه قطـع حبـل الوصـل، أحـرق فرصــة تحملهـا ضـيمه؛ عنـدما أختلـق فـي ليلتهـا الأخيـرة عقـدة فـض مخزونهـا العـاطفي، عنـدما كــال لهــا الضــرب لأســباب تافهــة، تلــك الشــعرة قصــمت ظهــر البعيـر، اختنقـت اجوائهـا بسـموم الـدخان. عنـدها بـدأت تبحـث عـن صــرة أمــان تضــفي عليهــا الهــدوء والاســتقرار، لــذا فــي صــباح اليــوم التــالي أرتمــت دخيلــة بأحضــان السوشــيال (المنظمــة الاجتماعيـة) الـذين شـرعوا لهـا الأمـان فـي بقعـة نائيـة بعيـدا عـن زوجها، لتفرض عليه الطلاق إلى الأبد.

زيارة صديق

هاجني الشوق لزيارة صاحبي وصديقي ورفيق دربي "وصفي" في مدينة خانقين، بعد انقطاع دام سنوات طوال، فرضته تقلبات أوضاع الوطن خلال المرحلة الحرجة من عمر الطائفية التي شطرت البلاد نصفين. اتفقت معه على أن أزوره صباحًا وأعود إلى بلدتي مساءً، إذ تفصل بين مدينة بعقوبة، حيث أسكن، ومدينة خانقين أكثر من مئة كيلومتر، تتخللها طرق وعرة وخطرة، تنتشر فيها عصابات السرقة والإجرام، تسعى لإثارة الفوضى وبلبلة الأوضاع الداخلية، وفوضى لغاية في نفس يعقوب.

انطلقت باكرًا، فوصلت داره قرابة التاسعة صباحًا في الأسبوع الثاني من شهر آذار. كان قد استأذن من دائرته (دائرة

الكهربــاء) لســاعة زمنيــة كــي يســتقبلني فــي منزلــه، علمًــا أن الدائرة لا تبعد عن مسكنه سوى عشر دقائق مشيًا على الأقدام.

مــا إن وصــلت إلــى داره المنزويــة فــي نهايــة الشــارع، حتــى تزحلقت قدمي في بركـة طينيـة أمـام عتبـة المنـزل، فزحفت قليـلًا ثـم سـقطت علـى مـؤخرتي وسـط البركـة، وقـد تغطـت ملابســي بــالطين، وطمســت نظــاراتي، وتحطمــت الهديــة الزجاجيــة التــي كنت أحملها خصيصًا له: مرآة جدارية كهربائية راقية.

صــرت ألعــن الشــيطان وأنــا أتمــرغ فــي وحــل الطــين الغرينــي، محــاولًا النهــوض وأنــا أتــرنح. كانــت المــرآة قــد تشــظّت مــن وســطها. وعنــدما طرقـت البــاب وفتحـه وصــفي، هــمّ أن يحتضــنني، لكنــه تراجــع مــذهولًا، وعلــى وجهــه علامــات التعجـب، إذ وجـد أمامـه شـبحًا غريبًـا، مموهًـا بلبـاس مطـين، لا يكاد يُعرف.

تلــون وجهــي بلــون الزعفــران والطــين، خجــلًا وهوانًــا وانكســارًا، فصــرت أشــنف وجهــه بنظــرات شــزره. تفاجــأ مــن دمامــة مظهــري، وشــعري المتشــعث، وملابســي المهلهلــة، وقــد التصــق الطــين بهــا حتــى غــدت مغشــاة بشــناعة العنــاء وغــراء الوحــل. تأســف كثيــرًا لحــالي، وســألني بخجــل واســتغراب عــن شــكلي المقنــع الــذي ظهــرت بــه، إذ بــدا المنظــر كــأنني أحــد المســاكين، لا يسرّ عدوًا ولا صديقًا.

قال مازحًا:

– من أرى؟ شمشون؟! ههههه، ماذا جرى لك يا عادل؟

فأجبته:

– نعم، هذا أنا شمشون! وهذا من شيم الكرم الذي تتصف به، أليس ما جرى لي بسببك؟ أنت السبب! أهملت موضوع الوحل أمام دارك عن قصد، كي لا يزورك أحد، يا بخيل!

ضحك ضحكة لم يستطع كتمها، محاولًا مداراة الموقف بما أسعفه الخجل، وقال:

– والله صدقت، حقك علينا، أنا آسف. المهم أنك بخير، وسنصلح أمر الملابس حالًا، إنها أمور بسيطة. ادخل البيت وسنتدبر الأمر بإذن الله.

أدخلني إلى حمام البيت، وكان في حالة حرج واضحة، إذ لا يملك ملابس تناسب حجمي سوى زي كردي: شروال (سروال عريض محدد من طرفه السفلي)، وشال للرأس (شراوية)، وقميص أو مريول من نفس نوع القماش، مع إزار شيفون تلف على البطن تحزم الخصر، بالإضافة إلى حذاء بلاستيكي رقم 42 يناسب قدمي.

كان ذلك اللباس الوحيد الملائم لحجمي، إذ لا تُؤخذ القياسات الدقيقة في صناعة الشروال. عرضه عليّ بخجل، فقبلت عرضه على مضض، إذ لا مناص من رفضه، فارتديته وأنا غير مقتنع بقيافتي.

بعد أن اطمأن على وضعي، استأذن للذهاب إلى دائرته، على أن يعود بعد الساعة الثانية ظهرًا، وطلب مني اعتبار البيت

بيتي حتى عودته. حمل ملابسي الملطخة بالطين في غرارة إلى مصبغة الملابس (اللاوندري)، لتُغسل وتُجهز خلال ساعتين. كانت المصبغة تقع في رأس الشارع من جهة اليسار، قريبة جدًا من دائرة الكهرباء.

بعد خروجه، وقفت أمام المرآة أستعرض ذاتي بلباسي الجديد، بشيء من الحيرة والعجب. احتجت وقتًا لتقبل هذا الزي، فصرت ألف إزار المحزم على بطني وأفكه مرارًا، حتى شعرت بمقبولية مظهره.

وما إن خرج وصفي إلى عمله، حتى خجلت من بقائي وحيدًا في البيت بوجود زوجته، فقلت لنفسي: دعني أخرج في جولة قصيرة حتى يعود من العمل...

وأنا أتمعن بصورتي الجديدة في المرآة؛ كنت استتند بعجيزي على طاولة خشبية تقع خلفي، وإذ بها تميل جانبا لتنحرف وتسقطني أرضا، مع سقوطها سقطت فوقها لاختلال توازني، وإذ بها ينكسر أحدى قوادمها الاربعة التي تستند عليه، حينها خجلت من ذاتي وكرهت حظي الأسود في هذا اليوم، أضحيت في حالة يرثى لها.

بقيت جالسا على الارض وأنا أشعر بغليان في داخلي وهذيان في فكري وبحالة عينيَّ الغضيضتين المنكسرتين، بتُ لا استطيع رفعهما بوجه زوجته التي جاءت تطمأن عليَّ خجلا وتأسفا. حينها رأفت بحالي وهي تواسيني قائلة لي:..

قالــت لــي زوجــة صــديقي بابتســامة هادئــة، محاولــة تهدئــة اضطرابي وتلطيف الموقف المهزوز:

– لا بأس يا أخ عادل... إنها قديمة، ونحن نود استبدالها.

كانـت كلماتهـا بمثابـة بلسم علـى جـرح خجلـي، محاولـة تطييـب خــاطري المتــأزم، وتخفيــف وطــأة الزنقــة التــي التفـت حــولي وأرهقتنــي. استـأذنتها للخـروج، وعينـاي خلجتـان خجلتـان، جـراء فعلتــي التــي لــم تكـن ســوى رعنــة حــظ بــاغتتني دون إرادة. شــعرت أن بقــائي فــي البيــت دون وجــود زوجهــا غيــر لائــق، فغـادرت وأنـا مثقـل بالانكســار والألـم، وقـد عقـدت العـزم علـى إصـلاح قـدم الطاولـة قبـل مغـادرتي خـانقين، كـي لا أتـرك خلفـي ذكرى سيئة.

خرجـت تائهًـا، كأنمـا أصـابني مسٌّ مـن الغـيلان، يـدور رأسـي فـي دوامـة التيـه، لا أدري إلـى أيـن أتجـه. كانـت تلـك أول مـرة أرتـدي فيهـا الـزي الكـردي بطقمـه الكامـل، وشـعرت حينهـا أننـي نشـزت عـن أصـلي، وأن هنـاك خطـأً مـا يعتـرض قيـافتي، إحسـاس نفسـي أربكنــي. لــم أســتطع وصــف الحالــة بدقــة، لكننــي شــعرت أننــي لســت أنــا، وكــأن الملابـس لا تليـق بــي، أو أننــي لا أليـق بهــا. شـعور بـالاختلال، كمـن يشـعر أن علـى رأسـه ريشـة، بسـبب عـدم تطابق فكرة الملابس مع شكلي ولساني.

كنـت خجـولًا مـن أن يصـادفني أحـد فـي الطريـق ويتحـدث إلـيّ بالكرديــة، فــلا أســتطيع الــرد عليــه، فيتصــورني نطسًــا، فتتجــه أفكــاره نحــو تصــورات بعيـدة عـن الواقـع، وقـد يرانــي مخبــولًا أو

مشعوذًا أو جاسوسًا أو أي وصف آخر يختلقه ذهنه. لذلك، آثرت الابتعاد عن الناس، وقررت التوجه إلى جهة خالية من البشر، نحو نهر الوند القريب من الدار، من الجهة الأخرى، لأستمتع بالطبيعة الخلابة والخضرة التي تكسو الأرض، خاصة ونحن في مطلع فصل الربيع.

اخترت ذلك الطريق لأبعد نفسي عن الشكوك والسخرية التي قد تطاردني، ولأكون في مأمن من التهكم والاستهزاء، الذي قد أشعر به داخلي وأنا أرتدي لباسًا جلب لي حظًا عاثرًا في هذا اليوم. أردت تجنب مواجهة الآخرين بشخصية لا تمثلني، خاصة أن اليوم بدأ معي بعكرٍ ومعاكسة لما كنت أتمناه، وكأن العقد النفسية تجلت في لقائي، فوطأة متني من تلقاء نفسها، أو أن الشيطان وسوس لي فاقترنت به.

شعرت حين ارتديت الشروال أن كياني انقلب رأسًا على عقب، وأن الشخصية التي أراها في المرآة لا تمت لي بصلة، صارت هيولية، مبعثرة، بلا طابع ملموس، مموهة بألوان الطيف، لا تنتمي لذاتي الحقيقية. لذلك، تجنبت إشراكها في أي مماحكات جماعية أو فردية، وتوخيت الحذر بكل ما أستطيع، لأبعد الشك عن صوت القدر الذي يلاحقني.

وعندما وصلت إلى شاطئ النهر، وجدت منسوب المياه مرتفعًا عن مستواه الطبيعي، نتيجة تدفق مياه الأمطار. فالنهر، الذي هو بالأصل وادٍ صغير، تجري فيه المياه القادمة من الأراضي الإيرانية، لا يتجاوز عرضه عشرة أمتار في أفضل حالاته،

لكن في ذلك اليوم كانت المياه شرسة، مستفيضة، بسبب الأمطار الغزيرة التي هطلت قبل يومين.

عند نقطة معينة، وجدت معبرًا خشبيًا يربط ضفتي النهر، عبارة عن مساطر خشبية بعرض قدم ونصف، صنعه المزارعون الذين يزرعون محاصيلهم الصيفية في الجهة الأخرى. لم تكن هناك قناطر تفي بالغرض في تلك البقعة. كان المعبر مكونًا من ألواح خشبية مثبتة بمسامير على مسند يزيدها سماكة لتحمل الأوزان. لاحظت أن المسند يستند على صخرة متوسطة الحجم في نهاية المعبر.

وفي الجانب الأيمن من الصخرة، عثرت على لوح خشبي يشبه تمامًا مسند الطاولة الذي كسرته، مطمورًا في التربة حتى نصف طوله، وكأنه نسخة مطابقة من حيث الحجم والقياس والسماكة واللون. قلت في نفسي: "سبحان الله، كأنّ الله يحبني، فأرشدني إلى هذه النقطة النائية لأصلح الطاولة، وأصلح بها شأني أمام صاحبي".

شعرت وكأنني وجدت القطعة التي كنت أبحث عنها في قرارة نفسي، فصرت أسحب اللوحة من باطن الأرض، مبذلًا جهدًا مضنيًا، حيث كانت مدفونة حتى نصف متر. حركتها يمينًا ويسارًا حتى تمكنت من تحريرها وسحبها رويدًا رويدًا، رغم خشونة التربة وعمق دفنها.

وأنا أجهد في سحب اللوحة، والعرق يتصبب من جبيني، سمعت رجلًا من الطرف الآخر من النهر يهذي ويصرخ

ويسب ويلعن بالكردية. هجست به مجنونًا، كأن الدهر أهوى به إلى شيطانه، يتخيل خصمًا يقاضيه في الطرف الآخر. رأيته يركض ويعربد بصوته الأجش، ناويًا عبور المعبر.

التفت يمينًا وشمالًا، فلم أجد أحدًا غيري في المكان، فتيقنت أنه غير سوي، خاصة أن منظره المشعشع يدل على ذلك، وكان يرتدي فانيلة بيضاء وشروالًا مكفوفًا حتى الركب. لم أعره اهتمامًا، تركته يسب ويلعن، فهو يتحمل جريرة غضبه، ثم ماذا سأقول لرجل يهذي؟ وأنا لا أفهم الكردية أصلًا، ولا أعرف أحدًا في المدينة سوى وصفي.

أهملته، سرت الأمور بسلام وأنا أشنف إليه بنصف نظرة وهو يعبر المعبر، وكان مزاجه عصبياً جدًا. وقبل أن يتجاوز نصف المسافة، كنت قد سحبت اللوح من مكانه، فاهتز المعبر تحت قدميه، ثم مال به جانبًا، وسقط في وسط النهر، هو والمعبر، في مجرى المياه الطينية. صار يطبطب بيديه محاولًا إنقاذ نفسه، لكن دون جدوى، فالنهر كان يجرفه بتياره، وهو لا يعرف السباحة.

هممت بمد يد العون، لكن اللوح كان قصيرًا لا يفي بالغرض، فاحترت في طريقة مساعدته. وقبل أن يغرق، وجدت حبلاً مرميًا على جانب الجرف، فرميت له طرفه، فتمكن من التقاطه والتشبث به، حتى سحبته إلى حافة الجرف. أجريت له تنفسًا اصطناعيًا، حتى عادت له روحه، وبدأ يتنفس طبيعيًا بعد أن أفرغ المياه من معدته.

بعد أن استعاد وعيه، حاولت تطييب خاطره، فقلت له:

– الحمد لله على السلامة، لولا وجودي لكنت في عداد الموتى. كيف تعبر النهر وأنت لا تجيد السباحة؟

– أأنت عربي؟

– نعم.

– لماذا ترتدي الملابس الكردية؟

– آه... إنها حكاية طويلة. قل لي، كيف تشعر الآن؟

– أشعر بالزفت والقرف... يوم أسود هو يوم رأيت فيه وجهك.

– لماذا يا عم؟ ماذا فعلت لك لتسبني؟ للتو أنقذتك من الموت!
– يا غبي! أنت سبب سقوطي. رفعت اللوحة الخشبية من تحت الصخرة، فاختل المعبر. لولا وجودك الشيطاني، ما كنت سقطت في النهر. اللوح الذي رفعته كان مسندًا للصخرة التي بني عليها المعبر، وبرفعك له تحركت الصخرة، فمال المعبر وسقط. هل فهمت جريرتك أيها الغبي؟

بقيت ساهيا في وجهه، لا أعرف ماذا أقول، أتمتم بكلمات آسف تتطاير من شدقيّ. حينها فهمت لماذا كان يصرخ ويعربد، لقد كان يصرخ عليّ، وكان يتحدث بالكردية، لأنه ظنني كرديًا بسبب ملابسي. بينما أنا ظننته مجنونًا، وهو ظنني

مخربًا عبثيًا. لم أرد عليه بكلمة، لأني لم افهم عليه ولم يكن في حسباني.

المسكين اضطر لعبور المعبر ليزجرني ويوقف عبثي، الذي تجاوز حدود القدر والنية دون أن أدرك نتائجه.

هههههههه، آه يا دنيا... كم من حوادث عبثية بريئة تفضي إلى نكبات جسيمة دون قصد، ومن النادر أن يتطابق ما يجري بين يديك مع ما يدور في ذهنك.

من نكد الدنيا أن تجد عبثًا يغلك، وخيوطه تقيدك

مكتب السفريات

ما إن عاد وسام من مشواره، حتى توجهنا معًا إلى مكتب السفر، حيث سألت الموظفة عن إمكانية تغيير التذاكر من فئة الطيران إلى السفر عبر الباخرة. لكن ردها جاء قاسيًا وحازمًا، خالٍ من أي مرونة أو تفهم، إذ قالت:....

- لا يمكن تغيير التذاكر، وتذكرة الطيران أصبحت محروقة. يمكننا فقط إعادة ضريبة المطار البالغة 100 يورو لأنكم لم تسافروا.
- لكننا دفعنا 900 يورو، وهذا غير عادل.
- آسفة، لا أستطيع مساعدتكم. أنا ملتزمة بالتعليمات.
- وكم تكلفة السفر بالباخرة؟

- تكلفة الشخص في الطائرة 120 يورو، والباخرة 70 يورو .

كنا خمسة بالغين بتذاكر كاملة، وطفلين بنصف تذكرة، ما يعني أننا بحاجة لدفع 420 يورو إضافية. اتصلت بسلام وشرحت له الموقف، فطلب أن يتحدث مباشرة مع الموظفة. وبعد جدال لم أفهم منه شيئًا، صرخت الموظفة في وجهه وأعادت إلي الهاتف. قال لي سلام:...

- لا تغادروا المكتب، نحن في الطريق إليكم.

انتظرنا قرابة عشر دقائق، وخلالها حاولت التفاهم مع المدير، لكنه رفض أي تساهل ولم يبدِ أدنى اهتمام. ثم فجأة، دخل سلام وفريقه يزيد عددهم عن عشرة أشخاص، يحملون كاميرات تلفزيونية، أضواء، ميكروفونات، أجهزة تسجيل وإرسال، يرتدون قمصان الأمم المتحدة والصليب الأحمر، وكأنهم فريق صحفي متكامل.

كان دخولهم صاخبًا ومفاجئًا، أحدث ارتباكًا وذهولًا بين الموظفين والزبائن. توقفت الأعمال، وتجمّد الجميع في أماكنهم، مذهولين من هذا المشهد غير المألوف. الكاميرات بدأت تدور وتلتقط الصور، وكأنهم بصدد كشف فضيحة كبرى.

أشار إليّ سلام لأدلّه على الموظفة التي تحدث معها، فوجهت إليه إصبعي. توجهت الكاميرا نحوها، وبدأ سلام يوبّخها باللغة الإنجليزية، بلهجة صارمة ومسؤولة، حتى أخرسها تمامًا.

باتــت ترتجـف وتعتــذر علنًــا، خائفــة مــن أن يــؤثر هــذا الموقــف على مستقبلها الوظيفي.

قال لها سلام على قدر ما فهمت من الانجليزية:..

" مـن أجلسـك خلـف هـذا المكتـب لتعـاملي الزبـائن بعنجهيـة وقلـة ذوق؟ كيـف تـزعقين بـوجهي وأنـت تعلمـين أنـك علـى باطـل؟ (ثـم موجّهًــا كلامــه للجميــع) هــذا بــث حــي لقنــوات التلفــزة، وســيراه العــالم بأســره. نحــن نعــرض عمليــات النصــب التــي تمارســونها بحــق المهــاجرين، هــؤلاء الــذين هربــوا مــن جحــيم الحــرب ليواجهوا هنا جحيم النصب والاحتيال."

أصـفر وجـه الموظفـة، وبقيـت صـامتة. ثـم توجهـت الكـاميرا نحـو المــدير الجــالس فــي زاويــة المكتــب، وقــد بــدا عليــه الــذهول والارتبــاك. لــم يصــدق مــا يحــدث أمامــه. كــان ســلام وفريقــه يملــؤون المكــان بــأجهزتهم، كــل مــنهم يــؤدي دورًا: صــحفي، مصــور، مسـجل، حامـل إضـاءة، وآخـرون يرتـدون زي منظمـات إنسانية.

ادّعــى ســلام أنــه يمثــل عــدة جهــات: الإغاثــة، الصــليب الأحمــر، قنــاة فضــائية، والأمــم المتحــدة، وأنــه مكلــف بنقــل معانــاة اللاجئــين إلى العالم.

توجه إلى المدير وقال له:..

أمامــك 24 ســاعة لحــل مشــكلة هــؤلاء المهــاجرين، أو ســنغلق المكتــب. كيــف تبيعــون تــذاكر طيــران لأشــخاص لا يملكــون

جـوازات سـفر؟ وكيـف تمنحـونهم تـذاكر بهويـات سـورية وهـم عراقيـون؟ تسـتغلونهم لعـدم درايـتهم باللغـة اليونانيـة - كـل هـذا سنعرضه في بث مباشر، أو تحلوا المشكلة الآن.

تلعـثم المـدير، ولـم يسـتطع الـرد. كـان سـلام يطلـق عليـه "رصاصـات" مـن الحقـائق، دون أن يتـرك لـه مجـالًا للـرد. بـدا المـدير كمـن يتلقـى الضـربات تلـو الأخـرى دون مقاومـة، بينمـا سلام واقف أمامه كالأسد الذي هجم على جربوع في وكره.

قال سلام:....

الخطـأ الأول مـن الشـرطة التـي منحـتهم أوراقًـا سـورية، والخطـأ الثـاني مـنكم إذ منحتمـوهم تـذاكر دون التأكـد مـن وجـود جـوازات سـفر لـديهم. مـا ذنـبهم وهـم لا يفهمـون اللغـة اليونانيـة؟ يجـب أن تتحملوا المسؤولية، وإلا سنبث التقرير الآن.

ارتعـب المـدير، وبـدأ يتوسـل إلـى سـلام بإيقـاف التصـوير، مؤكـدًا اسـتعداده لحـل المشـكلة. أُطفئـت الكـاميرات والأضـواء، وقـال سلام:...

- حولـوا تـذاكرهم إلـى السـفر بالبـاخرة، وأعيـدوا لهـم الفروقات.

رد المدير:....

- يمكننـا منحهم تـذاكر بـاخرة علـى حسـاب المكتـب، لكـن لا يمكننـا إعـادة الفروقـات، لأنهـا مسـجلة فـي نظـام الحاسـوب ولا يمكن التلاعب بها. سنخسرها من جيوبنا.

وافـق سـلام بعـد أن استشـارني، ثـم أخبرنـا المـدير أن البـاخرة ممتلئـة، ولا توجـد غـرف شـاغرة إلا علـى سـطحها. فقلـت لسـلام إننـا نسـتطيع تحمـل ليلـة واحـدة علـى السـطح بـدل الانتظـار أربعـة أيام أخرى.

أمـر المـدير الموظفـة بإصـدار التـذاكر، واسـتلمها سـلام، ثـم خرجنـا مـن المكتـب منتصـرين، والفرحـة تمـلأ وجوهنـا. حتـى فريـق سـلام بـدا أكثـر فخـرًا وسـعادة منـا. الفتيـات يبتسـمن، الشـباب مبتهجـون، وسـلام يرفـع يـده ممسـكًا بالتـذاكر، ويصـرخ "Yes!" وكأننا خرجنا من معركة منتصرين.

عندها ودعناهم شاكرين جهودهم الإنسانية، فقال لنا سلام:

- إن واجهتكم أي مشكلة، اتصلوا بي.

شـكرناه، ثـم ودعنـاه هـو وفريقـه. سـلام ذلـك الشـاب مـن اصـول عراقيـة وامـه روسـية وجنسـيته دنماركيـة جـاءوا كمتبـرعين لمساعدة اللاجئين في جزيرة متيليني اليونانية - 2015 ...

القَدَرْ

منذ أن تعينت في مدرستها الواقعة في قصبات ابوظبي، على بُعد أربعين كيلومترًا من مركز العاصمة، راودها حلم اقتناء سيارة خاصة بها. كانت أزمة المواصلات والتأخير اليومي تُرهقها، وتُثقل كاهلها بتوسلاتها المتكررة لزميلاتها اللواتي يمتلكن سياراتهن الخاصة، ويمنن عليها بخدمة التوصيل وكأنها عبءٌ ثقيل.

شعورها بالحرج من طلب المساعدة دفعها إلى تقليص مصاريفها، والاستعانة بزوجها لتفادي الإخلال بتوازن ميزانية البيت الشهرية. انخرطت في جمعيات مالية مع الزملاء والمقربين، واقتصرت على الضروريات، متخلية عن الكماليات كأدوات التجميل، وموديلات الفساتين، والحفلات، والسهرات. كل ذلك لتجمع المبلغ اللازم لشراء سيارة تُنقذها من نظرات زميلاتها المتعالية، وتمنحها استقلالًا طالما حلمت به.

بعد سنتين من التحدي والصبر، استطاعت أخيرًا شراء سيارة بسيطة، تيوتا حمراء تشبه الخنفساء، لتكون وسيلتها إلى المدرسة، ووسيلة استعادة كرامتها. احتفلت العائلة بها احتفالًا بسيطًا، ذُبحت فيه دجاجة قربانًا لدرء الحسد، ولُطخت عجلات السيارة بدمها، وزُينت بالورد والياسمين.

في أول جولة تجريبية، أخذت أطفالها وزوجها في نزهة بشوارع المدينة. كانت تقود بحذر، ملتزمة بإشارات المرور، متجنبة الزحام، حريصة على ألا تُفسد فرحتها بغرامة أو حادث. وبينما الأطفال يصرخون "ماما أسرعي!" وزوجها يضحك ساخرًا من بطئها، كانت هي غارقة في تركيزها، لا تعيرهم اهتمامًا، منشغلة بالطريق، بالرادارات المخفية، وبكمائن الشرطة التي تُنصب بين الأشجار وعلى أعمدة الكهرباء.

كونها مبتدئة في القيادة، كانت تبذل جهدًا مضاعفًا لتفادي الأخطاء. ويُقال إن الشرطي الذي يُسجل مخالفة يحصل على 25% من قيمتها، مما يدفعهم للتشدد حتى مع الأبرياء.

وفي نهاية الجولة، وقبل الوصول إلى البيت، شاهدت كلبًا يعبر الطريق. توقفت على بُعد ثلاثة أمتار من خطوط العبور البيضاء لتفسح له المجال. خلفها توقفت سيارة أخرى، لكن خلفهما كان رجل بدين يقود دراجة نارية بسرعة جنونية، غير منتبه لما أمامه. فجأة انحرف بدراجته ليصطدم بسيارتها من الخلف، فارتفع في الهواء وسقط على مقعده على الزجاج

الأمـامي للعجلـة، محطمًـا إيـاه الزجـاج ، ومُطعجًـا غطـاء السـقف والمحرك.

صـرخت العائلـة فـي دهشـة، وكـأنهم تعرضـوا لهجـوم مباغـت. أغمـي علـى وداد مـن شـدة الصـدمة، بينمـا الرجـل البـدين يصـرخ مـن ألـم فـي عجيزتـه، يحـاول سـحب نفسـه مـن فتحـة الزجـاج، ثـم ينـزل مترنحًـا، ممسـكًا ظهـره، غيـر قـادر علـى الوقـوف.... نزلـت وداد وزوجهـا يصـرخان فـي وجهـه: "مـن أنـت؟ ألا تـرى السـيارة متوقفة؟ كيف لم تنتبه؟"

أجـابهم بـألم وحـرج: "الأمـر خـارج عـن إرادتـي... كنـت شـارد الـذهن، غارقًـا فـي هـمٍّ ثقيـل... ابنتـي ضـربها زوجهـا وهـي فاقـدة الـوعي فـي المشـفى، وأنـا أعـيش فـي دوامـة مـن الحـزن والألـم، لا أدري لماذا ضربها وكيف انقذها"

كـان ذهنـه مشـغولًا، تائهًـا فـي لعنـة الشـرف والسـمعة، فلـم يـرَ السيارة أمامه، ولم يشعر إلا بعد أن اصطدم بها.

وهكـذا، كـأنّ الكلـب لـم يكـن إلا شـيطان الحسـد متجسـدًا بجسـد كلـب، جـاء ليُربـك وداد ويُفسـد عليهـا فرحتهـا. القـدر الـذي حاولـت الهـروب منـه، اصـطادها فـي لحظـة غفلـة. وكأنهـا كانـت تلـك السـهام التـي أطلقتهـا عيـون زميلاتهـا، تبعتهـا فـي الطرقـات دون أن تدري حتى أصابتها.

إذا عقد القضاء عليك أمرًا فليس يحله إلا القضاء

فما لك قد أقمت بدار ذل وأرض الله واسعة فضاء

مجموعة الانتقام

1- الكوب
2- الكرة
3- الانتقام
4- قبل ان تبدأ الحصة
5- مباراة العراق وإيران
6- انذال
7- تياه دورية الحجابات.
8- اختبار الرياضيات

الكوب

فينوكر/ 2018

كان أنس لا يزال يعيش على الفطرة، لم يبلغ رشده بعد، في طور المراهقة بعمر أربعة عشر عامًا، في مرحلة البناء والترقب. في هذه الفترة الحرجة، صاحب شابًا من عمره يُدعى أحمد الصومالي، طالب كسول يشاركه صفه، جمعتهما صفة الهجرة.

اكتشف أحمد ذكاء أنس ونباهته في اللغة السويدية والرياضيات والعلوم، فالتصق به وتقرب منه، وجعله صديقه المفضل، لا يفارقه، خاصة حين وجد فيه معينًا له على فهم الدروس التي يعاني منها. وبعد أن جمعهما الظرف في صف مشترك، لمس أحمد صفاء معدن أنس وبراءته وقلة تجاربه، فوجد فيه اختلافًا كليًا عن نفسه وعن شلة أصدقائه. ومن هنا،

راودته فكرة استغلال تلك البراءة في عملية سرقة وابتزاز دون أن يُعلمه بنيته.

أما أنس، فقد وثق بصاحبه ثقة عمياء، وسايره في مرافق المدينة دون أن يشك في نواياه، فقط رغبةً في إذابة جليد الوحدة التي كان يعاني منها. رأى فيه مفتاحًا لسعادته، ومنظمًا لأفكاره، وبلسمًا لوحدته، ورفيقًا لسراطه. كان بحاجة لتجارب جديدة تعوض نقص خبرته، بعدما اعتاد الاعتماد على والديه في إدارة حياته، حتى أنه لم يكن يتخذ قرارًا إلا بعد استشارتي.

مرت الأيام دون تغيير في نمط علاقته بأحمد، وكنت سعيدًا بسعادته وتغير أجوائه، حتى جاء اليوم الذي انكسرت فيه تلك البراءة على حجر خبث أحمد. حيث طلب أحمد من أنس مرافقته إلى جمعية "الكوب" القريبة من المدرسة، مستغلين إحدى الحصص الشاغرة لشراء بعض الحاجيات، في وقت كانوا يشغلون أنفسهم فيه بالمرح والتخوير.

بالطبع، لم يمانع أنس طلب صديقه، ورأى فيه فرصة لتلطيف الأجواء، رغم أنه خالف وصيتي بعدم مغادرة المدرسة لأي سبب كان. كان تصرفه غير مسؤول، واعتبرته خرقًا لتعهداته لي وللمدرسة، خاصة أن المدارس هناك لا تحيطها أسيجة، ولا توجد رقابة فعلية من الإدارة على الطلاب بعد انتهاء الحصص.

دخـل أنــس فــي صــراع داخلــي بــين طاعــة أوامــري ومجاملــة صـديقه، فاختـار الأخيـر، وذهـب معـه إلـى المتجـر برفقـة زميلـين آخـرين، أحـدهما أفغـاني والآخـر سـويدي. ظـن أن أحمـد ينـوي شـراء بعـض المسـتلزمات، لكنـه فـوجئ بطلـب أحمـد منـه وضـع بعـض المقتنيـات فـي حقيبتـه، ثـم هـمّ بـالخروج دون دفـع ثمنهـا، تاركًا أنس يسير خلفه.

كـان الكاشـير يـراقبهم عبـر الكـاميرات، فشـك فـي نوايـاهم. هـرب أحمـد قبـل أن يُحتجـز، بينمـا وقـع أنـس فـي المصـيدة، ورصـدته الكـاميرا وهـو يحمـل المسـروقات، التــي لـم تتجـاوز قيمتهـا سـبعة دولارات.

أراد أحمـد تنفيـذ عمليـة السـرقة بتحميـل أنــس وزرهــا، مسـتغلًا طيبتـــه وبراءتـــه وقلـــة تجاربـــه، معتبــرًا ذلــك "شــطارة" ولعبــة يـورط بهـا زميلـه. لـم يكـن أنـس قـد مـر بتجـارب خبـث كهـذه، كـان قـدرًا جمـيلًا تـدحرج فـي طريقـي، حلمًـا جمـيلاً تغنيـت بـه، طيـرًا مهـاجرًا سـكن هوسـي وصـمتي، عشـعش فـي فكـري وقلبـي، صـار قدري وسري، قوتي وضعفي وهواني.

كبــر الحلــم مــع مــرور الســنين، صـــار نطيطًـــا علـــى أغصـــان وجـداني، عــاش وحيـدًا، تأمـل الـورود والريـاحين، واكتسـب منهـا صـفاته وسـلوكه، صـار لغـزًا يـدور فـي أروقـة ذاتـي، برعمًـا يمتـد علــى أسـطر حيــاتي، اهتممـت بتفاصـيله، حتــى نمـا وارتقــى، فبـان بزهده وعفته نجمًا ساطعًا بين أقرانه.

ومع مرور الأيام، بان وسط الفوضى كشعلة من الطيب والوله، استقطب رفاقه بشذى طيبه وعطره، بلسانه وقلبه وصدقه، أثر فيهم وتأثر بهم، حتى اكتشف شوائب الخبث والمكر في علاقاتهم، التي لم يألفها من قبل.

كانت علاقاته شفافة من جانبه، فتقربوا منه لتفوقه، ولم يتحسس زيفها إلا متأخرًا، إذ اندفع نحوهم بشدة لكسر حاجز الوحدة، فلم يجنِ منها سوى نتانة الصحبة وخبث النوايا، حتى غُزَّ بأشواكهم.

كان وما زال قطعة قماش خام بيضاء، لم تتلوث بمحيطه، لم يجلده الزمن، بقيت صفاته نجيبة، كريمة، يسودها سحر الخجل، بريئًا، سلسًا، هادئًا. ربما الوحدة صقلت طباعه، فبان أليفًا، صادقًا، يجول بين فكره ولغز أصحابه.

رغم قسوتها، جردته الوحدة من عقدة الخبث والرذيلة والأنانية، هذبته، وجعلت منه صورة ترتقي لمصاف الحلم المراد، منعته من الانزلاق في أزقة العبث والفسوق، قومت سلوكه، وأرشت شخصيته بشيء من الصفاء واللين والدين، بعيدًا عن المخاشنة والمكابرة.

حاول كسر روتين وحدته بصداقات جديدة، لتبعث فيه طاقة تكشط سكونه، وتنقله إلى دائرة التكوين والحركة، لإبراز مفاتنه. خرج عن إطاره المألوف، وكنت أشجعه على ذلك لتجنب أمراض العصر والتوحد، رغبت أن تتفتح أزاهيره بألوان الطيف، وتسمو به إلى مراتب إعداد الذات.

كنت أخاف عليه من شزر العقد النفسية، التي لا يدرك خطرها إذا ما تجرد عن مداهنة المجتمع. الشيء المفرح فيه، أنه يملك قابلية عالية على الاختلاط والاندماج، كان مهووسًا بالرفقة والتحاور منذ صغره، كأن ملكًا يرشده بالفطرة.

بعد الحادثة، أُحيل إلى المحكمة، ولأنه قاصر، عُين له محامٍ صوري لم يتدخل في القضية رغم اطلاعه على ملابساتها. وبعد أن سقط كالعصفور في شباك أحمد، تكالبت عليه المطارق، رغم أنه لم يلمس المسروقات بيديه من خلال الفديو الذي عرض. نصحه القاضي والمحامي بانتقاء أصدقائه بعناية، وحُكم عليه بغرامة قدرها خمسون دولارًا، وتحذير بإنزال عقوبة أشد في حال التكرار.

من الضروري أن ينتقي الإنسان زملاءه في كل مرحلة من حياته، فدائمًا هناك من يحسد أو ينافس أو يضمر مرضًا نفسيًا، يسعى لاستغلال طيبته أو إلصاق الفشل به.

الكرة

عند الساعة الثامنة والنصف صباحًا، رنَّ هاتفي بإلحاحٍ متكرر، كأنَّ هناك خبرًا جللًا ينتظرني، أو أمرًا عاجلًا لا يحتمل التأجيل. كنت حينها غارقًا في نومٍ ثقيل، مثقلًا بكسلٍ خاملٍ تسلل إلى جسدي بعد سهرة طويلة قضيتها في متابعة بطولة أوروبا لكرة القدم. ذلك الكسل قيد أطرافي، وأثقل فكري، ومنعني من النهوض والرد على المكالمات في الوقت المناسب.

وما إن استعدت وعيي وفتحت هاتفي، حتى وجدت سيلًا من الرسائل والمكالمات الملحة من صديقي هشام، الذي لم أجب عليه. ضغطت على اسمه وفتحت خط الاتصال، لأستوضح الأمر الذي دفعه لمهاتفتي في هذا الوقت المبكر من اليوم. وما إن رن الهاتف حتى ناديته:

– خيرًا يا هشام؟ طمئنّي، ما الأمر المهم الذي يدفعك للاتصال في هذا الوقت، ونحن بالأمس كنا في سهرة مشتركة نتابع البطولة؟ لقد أقلقتني، هل حدث مكروه لا سمح الله، ولم يمهلك الوقت لتأجيل المكالمة ساعة أو اثنتين؟

– لا لا، اطمئن، كل شيء بخير والحمد لله. لكن الأمر لا يحتمل التأجيل، إنه مهم جدًا. أريدك أن تحضر إلى المحل قبل الساعة العاشرة صباحًا، لدي موعد مع حبيبتي أنكا، وقد طلبت لقائي، ولا بد أن أكون هناك في الوقت المحدد. لا أثق بأحد أكثر منك، أرجوك لا تتأخر. لقد أخبرتني أنها لن تذهب إلى الجامعة اليوم من أجل لقائي، تنتظرني بشوق، ولا أريد أن أغلق المحل أمام الزبائن، فقد وعدت بعضهم بالحضور. لا تخذلني...

– اطمئن، إذا كانت الأمور بهذه الجدية، فأراك محقًا في سلوكك الأرعن. سأكون عندك قبل العاشرة، وما لك سوى الدلال.

– شكرًا لك يا صديقي الوفي.

لم يقل "العزيز"، بل "الوفي"، وكأنما حين وصفتُه بالأرعن، عاد فوصفني بالوفي، في كنايةٍ لا تخلو من رمزية الكلب الوفي. لا هو بريء من الوصف، ولا متهم به. لكنها أصبحت بيننا استعارة مألوفة، عجينة نلجأ إليها في المزاح والشدة، أخبزها يومًا ويخبزني يومًا، كأنني لم أقل شيئًا ولم أسمع شيئًا، لحجم العلاقة التي تربطنا.

طلب مني أن أحضر إلى المحل لأعوض غيابه فترة قصيرة، حتى يتمم لقائه مع حبيبته. عبارة "أرجو أن تأتي قبل العاشرة صباحًا" تحمل في طياتها خطة جنونه وجنوحه، وقد قرأت مضمونها جيدًا. أرادني أن أفك كربه، فالصديق وقت الضيق.

عليَّ أن أدير المحل خلال غيابه، وأتولى بيع الحاجيات، وهي مسعّرة مسبقًا، فلا تعقيد في الأمر، وقد اكتسبت خبرة كافية من معاشرتي له.

كان قد لمح لي في المكالمة بأنه على موعد مهم مع عشيقته الشقراء، التي ستتغيب عن الجامعة من أجل لقائه. حدثني عنها سابقًا، وأوضح رغبته في الزواج منها. تلك الأشواق أجبرتها على النكوص أمام إرهاصاته، لكبح جماحها. هكذا هو جنون الحب؛ يغزو قلوب العشاق بنبال الوجد ونيران الشوق.

خرجت من البيت تمام الساعة التاسعة، متجهًا إلى المحل الذي لا يبعد عن سكني سوى نصف ساعة سيرًا على الأقدام عبر الطريق العام، أو ربع ساعة إذا ما اختصرت الطريق عبر أزقة متفرعة. فضّلت الطريق المختصر رغم وعورته في بعض الأماكن، بسبب تشعب الشوك والعاقول، وغرين الطين الذي لا يفارق أجواء ساكسونيا الممطرة.

وأنا أسير بين الأزقة الضيقة للبنايات الشاهقة، والتي تكاد بعض ممراتها لا تتجاوز مترًا أو مترين بين الجدران، خطر ببالي أنه لو شب حريق في إحداها، لانتقل إلى جارتها

الملتصقة بها، وكأن هناك سوء تخطيط أو استغلال عبثي للمساحة من قبل المالك.

وفي أحد الممرات، وفي زاوية مظلمة، صادفت كرة صغيرة زرقاء مطروحة عند قاعدة عمود نور. ولولعي بلعبة الكرة، ركلتها بقوة، فأعادتني إلى ذكريات الطفولة والصبا، حين كنت أشارك رفاقي في لعبها بشغف.

وما أن ضربت الكرة حتى شعرت بها فيها شيء من القسوة والغلاظة، وكأنها ليست كرة عادية، حيث دب ألم شفيف في مفاصل أصابع القدم. ثم أن الكرة لم تفل من مكانها، بقيت ملتصقة بعمود النور، كانت معشقة بشبكة خيوط قوية مرتبطة بالعمود كخيوط صيد السمك عديمة اللون لا ترى بالعين إلا عن قرب.

لذا لم أبالي بها وكأن الأطفال تركوها في هذا المكان ليعودوا إليها متى ما شاءوا اللعب، وخاصة موضوعة خلف بناية جانبية قرب فسحة جيدة لممارسة لعبة الكرة.

وصلت إلى المحل قرابة الساعة التاسعة والنصف، حينها أستأذن مني هشام مودعا على أن يعود خلال ثلاث ساعات، وذلك بعد أن قبل خديَّ عرفانا لاستجابتي السريعة لطلبه. كان قد قرأ عليَّ بعض التوصيات بما يخص عملية بيع بعض المواد قبل أن يخرج من البقالة.

كان هشام في هيئته أنيقًا، جذلًا، يعتني بذاته وكأنه متجه إلى حفل زفاف. ولمَ لا؟ فهو ذلك الشاب الوسيم، بلحيته السوداء

الخفيفـة، يرتـدي قميصًـا قطنيًـا ناصـع البيـاض ينسـجم مـع بنطـال جينز رمادي أنيق.

مـا إن دخلـتُ المحـل حتـى شـعرت بازديـاد الزحـام تـدريجيًا، وكـأن دخـولي جلـب معـه الخيـر والبركـة. توافـد الزبـائن بكثـرة، حتـى لـم أعــد قــادرًا علـــى خـــدمتهم بمفــردي، قبــل أن تحضــر دوكانـــا الجميلــة، صــدفة، لتســاعدني فــي البيــع. هشــام تــأخر عــن موعــد عودتـــه قرابـــة ســـاعة إضـــافية، ولـــم يرجـــع مـــن مشـــواره إلا بعـــد الرابعة عصرًا.

خـلال تلـك الفتـرة، بعـتُ معظـم بضـائع المحـل حتـى كـاد يفـرغ تمامًـا مـن مخزونـه. اسـتغربت تلـك الزحمـة غيـر المعتـادة، وكـأن الأســـواق الأخـــرى أغلقـــت أبوابهـــا فجـــأة. انشـــغلت بمحاســـبة المشـــترين علـــى قاصـــة الكاشـــير، فيمـــا الزبـــائن يتزاحمـــون بـــلا توقف.

بعـت كـل مـا عُـرض مـن خضـروات وفواكـه: البطاطـا، الطمـاطم، الباذنجـــان، الكوســـا، الباميـــة، القـــرنبيط، البروكلـــي، الخيـــار، والجـــزر، والبصـــل، والبقـــدونس، والكـــرفس، والجرجيـــر، والرشـــاد، إضـــافة إلـــى المعلبـــات، وأفخـــاذ الـــدجاج، والزيتـــون، والعنــب، والبرتقــال، والليمــون، والأفوكــادو، والمانجــا، والتفــاح، والخبـــز، والـــدهون، والحبـــوب مـــن رز وفاصـــوليا وعـــدس وحمص، والبهارات والزيوت بأنواعها.

كـان ذلـك اليـوم مشـوبًا بحـرارة غيـر معتـادة، كـأن الغيـوم انقشـعت عـن سـماء كيمنـتس فـي حزيـران، وأشـعة الشـمس تلسـع الأجسـاد،

فتهافت الناس على شراء المشروبات الغازية والعصائر والمياه المعدنية. أكاد أجزم أنني صرفت 90% من البضاعة خلال أربع ساعات فقط، ولولا حضور دوكانا التي جاءت صدفة لتتبضع، لما استطعت تسيير الأمور بسلاسة. ما إن رأتني منشغلًا وحدي، حتى عرضت مساعدتها، بعد أن حجزت حاجياتها.

وأنا في غمرة الانشغال، دخل رجل غريب يسأل عن هشام، قال إنه جاره واسمه ماثيوس. أخبرته أن هشام سيعود خلال ساعتين.

ما أفرحني أكثر من الزحام هو حضور دوكانا، تلك الفتاة الجميلة التي أعشق سمرتها وملامحها، والتي افتقدتها منذ انتقالي إلى كيمنتس. كنت قد شغفت بها، مثلما شغفت هي بي، فهي لا تصغرني إلا بثلاث سنوات. لم نتبادل الحديث كثيرًا سابقًا، لكننا كنا متوافقين في الغاية والنظرة والنية.

ما إن دخلت البقالة حتى فرشت لها كرسيًا بجانبي، لتساعدني في الحساب وتصريف الحاجات، وشرحت لها سبب وجودي. فتحت لها قارورة بيبسي وعلبة عصير برتقال، وركنتهما جانبًا لنا. وبعد أن فرغ المحل من معظم مخزونه، وضعت لافتة "مغلق" على الواجهة، لأختلي بها قليلًا.

سألتني بدهشة:...

– هل تعمل هنا؟

– لا، إنه محل صديقي، ذهب في مشوار وسيعود بعد ساعة أو أكثر.

ثم سألتني:..

– لماذا هذا المحل الوحيد الذي فيه كهرباء؟ السوق كله مظلم، كأنّ جميع المحلات أغلقت أبوابها.

– لا أدري، حين يعود هشام سنسأله. على أي حال، أنا سعيد بلقائك بعد غياب طويل. كنت أود مصارحتك بما في قلبي، لكن الظروف لم تسمح، خاصة ذلك الشاب الذي كان برفقتك، عيناه سليطتان، لم يفسح لنا مجالًا للحديث.

– إنه أخي سيروان، وهو متزوج. تصور، أنا أيضًا كنت أتأملك، لأنك تختلف عن من أعرفهم، وأنت ابن بلدي، ومرجعنا واحد مهما ابتعدنا.

– حسنًا يا دوكانا، أنا أحبك، وأرغب بإعلان خطوبتنا الآن، وغدًا نرتب أمورنا مع الأهل. ما رأيك؟

– المشاعر متقاربة، وأنا سعيدة بك، وأقول لك: أحبك.

ابتسمت ابتسامة مشحونة بالعاطفة، مشرقة، فيها ألق وشوق، فتحت لي أبواب قلبها، فحضنتها برقة، وقبلتها على خدها حتى احمرّت وجنتاها. مالت إلى جانبي بشوق، وذُبنا في لحظة عشق كقطعة سكر تذوب في فنجان قهوة.

وكـأن خصـلة مـن شـعرها علقـت بشـعري، نتيجـة الـتلاحم الـذي وضـع حلمنـا علـى جـادة الطريـق. أعـدنا لأنفسـنا تأملنـا وبسـمتنا، ولـم نشـعر إلا وهشـام يـدخل كالصـقر، مسـتغربًا مـن حـال البقالـة التي بدت وكأنها نُهبت بالكامل.

سألني بدهشة:...

– أين بضاعة المحل يا فارس؟

– بعتها كلها.

ارتسمت على وجهه ابتسامة استغراب شفيفة:...

– غيـر معقـول! هـذه البضـاعة بشـهر لـن أصـرفها، كيـف صرفتها خلال ساعات؟ شيء مدهش، وكأنك فأل خير.

– لـولا دوكانـا، لمـا تمكنـت مـن ذلـك. كانـت كالنحلـة، تحملـت مشـاق الزبـائن، وسـاعدتني فـي تصـريف البضـاعة. هـذه هـي التـي شغلت بالي، وقد أعلنّا خطوبتنا، وأنت أول من نخبره.

– مبـروك، ألـف مبـروك لكمـا. بهـذه المناسـبة، سـتكونان ضـيفاي علـى العشـاء فـي أفخـم مطعـم. شـكراً لكمـا، وأتمنـى لكـم حيـاة سـعيدة. كأنـك أغششـتني يـا فـارس، مـن أيـن لـك هـذه الفاتنـة النـادرة؟

– ههههـه، شـكراً لـك، إنهـا ورقـة اليانصـيب التـي ربحتهـا فـي مشوار حياتي.

– مبروك عليك.

– شكراً، أخبرني يا هشام، قالت دوكانا إن السوق كله مظلم، إلا محلك! كيف؟

– ههههه، لأن الكهرباء في محلي مسحوبة من البيت، لا من خط السوق العام.

– هههههههههه يا ثعلب، أحسنت الفعل...

وقبل أن نغادر، دخل ماثيوس، جاره صاحب محل المواد الطازجة، ممتقع الوجه، غاضب، يشير إلى هشام بأصبع الاتهام:...

– شخص خبيث عبث بكرة الجوزة وفصل القابس عن السوق، فقطع التيار الكهربائي عن جميع المحلات. هذا عمل أطفال مقصود!

كان يتهم هشام، دون أن يدرك أنني أنا من ركل الكرة الزرقاء المعلقة بعمود النور، والتي كانت في الحقيقة جوزة الكهرباء التي تربط السوق بالمصدر الرئيسي. ركلتي فصلت القابس، فتوقفت أجهزة الحسابات، وشُلّت حركة السوق.

سألتني دوكانا:...

– لماذا يتهم هشام؟

– علمي علمك، ربما ماثيوس مجنون. ههههه.

ذلك العبث كان دون قصد، لكنه جاء بفائدة عظيمة لي ولهشام: تصريف البضاعة، ولقائي بدوكانا التي كنت أبحث عنها بين وجوه الناس، دون أن أجد وسيلة توصلني بها...

كما قال المتنبي: مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ

الانتقام

لقساوة الظرف وثقل القدر الذي انقض على كاهلها بغتة، تحولت هدى إلى شعلة غضب متقدة في دارها، تصرخ في وجه الظلم المجحف، وتنوح على ما شقته من عناء بعد مقتل زوجها وابنها على يد جنود الاحتلال. العاقبة التي لحقت بها أثقلت روحها، وجعلتها بركانًا من الغيظ، حانقة على الزمن الأهوج، وعلى المحتل الذي أودى بالوطن إلى حتفه، وعلى العصابات التي تسرح في الخفاء، وعلى كل من دنّس تراب العراق.

ظلت وفية لخط زوجها المقاوم، تلك الشعلة التي أوقدها في نفسها بقيت تضيء فكرها وروحها، تسير على ذات الدرب في مقارعة المحتل. لم تنسَ كيف كانت تشاركه في ربط فصائل

المقاومة ببعضها، حين كان التواصل بينهم ضربًا من العسر، بسبب غياب شبكات الاتصالات وندرة الهواتف المحمولة في العراق آنذاك.

الزمن بات يرهق ظنها، يلاحق صفوها، يرعبها ككابوس مارد، إذ أخذت الأوضاع النفسية والمادية والفكرية تتدهور يومًا بعد يوم تحت وطأة الاحتلال. الوحدة كانت تنهشها من الداخل، تفترس أحشاءها، وتطحن فكرها بغلٍ لا يرحم. جردتها القساوة من ألوان الطيف، ضيّقت عليها سبل الرزق، وجعلتها منكمشة على ذاتها كصفيح مطعوج، أسيرة للعُقد، خالية الوفاض، صفراء من الحب والرزق والعاطفة. كبلتها الوحدة بسلاسل الحزن والكآبة، حتى غدت لا تحتمل عصف الزمن.

أصبحت أسيرة الظنون والفكر المشتت، منهكة من نكد الدنيا ونكاية الظرف الذي أرهق مساعيها، وكبّل عقلها بالعُقد. قررت أن تنهي حياتها بطريقتها الخاصة، بعد أن قرأت المشهد جيدًا، وأيقنت أنها باتت جزءًا من حالة ميؤوس منها. الأوضاع المأساوية تلاحقها، تضيق عليها الخناق، وتنبئ بأن القادم سيكون أشد وطيسًا، سيجرف من حضنها ابنتها، ويجعلها أسيرة للرحمة، أو تحت كفالة أخيها قاسم أو عمها فريد.

قررت أن تأخذ بثأر زوجها وابنها من جنود الاحتلال، أولئك الذين دمروا سعادتها وأسرتها، وأفسدوا البلاد، وقلبوا موازين

الحيـاة رأسًـا علـى عقـب. لـم يرحمـوا عزيـزًا ولا فقيـرًا، ولـم يعوضوا منصبًا ولا جاهًا ولا وظيفةً لمن فقدها.

قـال تعـالى: "الملـوك إذا دخلـوا قريـة أفسـدوها"، فكيـف بجـيشٍ جـل أفـراده مـن المجـرمين واللصـوص؟ الـدمار أصـاب كـل القطاعـات، وأثقـل كاهـل الشـعب، مأسـاة لا توصـف، وزعـت كـأرزاق علـى الفقـراء بالتسـاوي. لـذا، لا بـد مـن ردة فعل رادعـة ضد القتلة.

هـدى لـم تُرهـق فحسـب، بـل فقـدت كـل مقومـات الحيـاة. خسـرت أعـز مـا تملـك: زوجهـا، ابنهـا، ومصـدر رزقهـا. الـذل والفقـر أكـل حصـيف فكرهـا، والحـزن أطبـق علـى قلبهـا كوشـاح الليـل، التيـه لـف عقلهـا، وشـل مشـاعرها. هجسـت بالنـار تجـري فـي عروقهـا، تلسعها بلا هوادة.

رغـم قناعتهـا، رأت أن الحيـاة غـدت عقيمـة، سـوداء، لا تـروق لأحـد، وأن خـط الأمـان ينحـدر نحـو الهاويـة. المـوت بـات حتميًـا، سـواء بتتبـع المجـرمين لهـا، أو بسـبب تعاونهـا مـع المقـاومين، أو نتيجـة مـا حـل بهـا مـن قهـر نفسـي وذهنـي. النميمـة والوشـاية تحـيط بهـا، ولـن تفلـت مـن العقـاب، فمصـابها معـروف للجميـع، بفقـدانها زوجها الضابط وابنها المقاوم.

هـذا الخـيط كفيـل بـأن يسـتدل بـه الواشـون للنيـل منهـا، وسيصـلون إليها عاجلًا أم آجلًا.

منـذ دخـول المحتـل، انتمـت وزوجهـا لفصـائل المقاومـة، وكانـت تعمـل كطيـر مرسـال بـين شـعبها، بسـبب ضـعف شـبكات

الاتصـــال. تمكنــت مــن كســب ثقــة المقــاومين، والتعــرف علـــى قــادتهم وأوكــارهم، واسـتمر هـذا التعـاون قرابـة عـام، حتـى دخلـت في أواخر شباط 2005.

مـا منعهـا مـن اتخـاذ قـرار الانتحـار إلا ابنتهـا ريـم، فكـرت فيهـا مليًـا، ووجـدت أن بقائهـا يعنـي مـوت ريـم جوعًـا وتشـردًا. أمـا إن تركتهـا للقـدر، فسـيعتني بهـا عمهـا أو خالهـا، الـذين حـالتهم الماديـة أفضل، وستعيش حياة كريمة لا تستطيع هدى توفيرها.

رأت أن موتهـــا بعـــز وشـــرف خيـــر مـــن موتهـــا فـــي ديـــاجير السـجون، فالوشـاية والعصـابات العميلـة تلاحقهـا، وإن بقيـت ريـم معهـــا، فلـــن تقـــاوم الفاقـــة، وستصـــاب بـــالأمراض النفســـية والمزمنة، وتموت أمام عينيها في ظل انعدام الرعاية الصحية.

لـذا، قـررت أن تأخـذ بثـأر زوجهـا وابنهـا، وتمـنح ريـم فرصـة لحيـاة كريمـة فـي كنـف عمهـا أو خالهـا أو أحـد الخيـرين مـن أبنـاء الوطن، عسى أن تحظى بمستقبل مشرق من بعدها

بعد اليأس هدى... اختارت أن تكون جمرةً في وجه الريح

اتصـلت بـأبي علـي، قائـد إحـدى مجموعـات الفصـائل المقاومـة، وشـرحت لـه رغبتهـا فـي تنفيـذ عمليـة استشـهادية. طلبـت منـه تـدريبها علـى اسـتخدام الحـزام الناسـف ليـومين، وفـي اليـوم الثالـث، احتضـنت ابنتهـا ريـم كمـا لـو أرادت أن تبتلعهـا فـي جـوف صـدرها، أغـدقتها بعاطفـة حـارّة لا نظيـر لهـا، كـادت أن تثنـي عزمهـا لـولا المأسـاة التـي ترسّـبت فـي أعماقهـا، وحشـرتها فـي زاوية ضيقة، تلك التي كحّلت جفنيها بالأرق.

احتارت في اختيار المكان الذي تترك فيه ريم أثناء تنفيذ العملية، ولم تجد أأمن من جارتها أم عائشة. أقنعت ابنتها الصغيرة، وأوهمتها بأنها ذاهبة إلى السوق لشراء بعض الحاجيات، وأنها لن تصطحبها خشيةً من العاصفة التي تعصف بالخارج. أخذت بيد ريم، تلك الطفلة المطيعة التي اعتادت الإصغاء لأمها، وقادتها إلى دار أم عائشة، تنظر إلى براءتها بعينٍ مثقلة بالحنين، بعد أن فقدت زوجها وابنها.

قبلتها قبلة طويلة، والدمع يترقرق في محجر عينيها، ثم طرقت باب جارتها وهي تكاد تنهار من الداخل، نتيجة عصف الشوق والفراق الأخير.

فتحت أم عائشة الباب، وما إن رأت هدى بشحوبها، حتى أصابها الذهول من ملامحها التي تفضح هواجسها، وتكشف حجم الصراع المدفون في أعماقها. كانت هدى في لحظة حرجة، مشحونة بالخوف، مفعمة بالرعب والانتقام، محمّلة بعبء الشجن ولوعة الآهات أمام الجلاد.

كانت تقف على قمة هي أعلى القمم، شامخة تنتظر لحظة العدم، تنظر إلى الفضاء وكأنه ساحة معركة، ترسم طريقًا مستقيمًا بين الدنيا والآخرة، حيث ترى زوجها وابنها ينتظرانها خلف السحب فرحين بقرارها.

قالت لأم عائشة بصوت مرتجف:

– السلام عليكم...

– وعليكم السلام، خيرًا يا هدى؟ أراكِ لستِ على ما يرام، تفضلي بالدخول...

– لا، ليس وقت ضيافة، إن شاء الله بعد عودتي من مشواري. لا تقلقي، إنه مجرد ضيق يعتري صدري. حبيبتي أم عائشة، أود ترك ريم عندك حتى أعود من السوق، الجو عاصف ولا أريد أن أحتار بها، وقد أنشغل بالبضاعة.

– على الرحب والسعة... تعالي يا ريم، أدخلي، العبي مع عائشة.

– خذي هذا الرقم، رقم أخي قاسم، إن تأخرتِ، اتصلي به. الحياة لم تعد آمنة، والطرق باتت مليئة بالمفاجآت.

– لا تقولي ذلك، إن شاء الله تعودين بالسلامة، وأدعو الله أن يحفظك. اقرئي آية الكرسي، تحميك من شر الأشرار.

– شكرًا لكِ، الأوضاع مقلقة، والحذر واجب...

ثم احتضنتها، وودعتها والدمع يملأ عينيها.

– مع السلامة...

– مع السلامة...

قالت ريم:...

– ماما، لا تتأخري...

– لا، لـن أتـأخر يـا ريـم، فقـط كـوني عاقلـة، لا تفتعلـي المشـاكل، سأعود حال إنجاز مشواري.

– صار ماما...

خرجـت هـدى فـي يـوم عاصـف، يتخللـه رذاذ مطـر ينبـئ بوابـل قـادم. بقـي صـوت ريـم يـرنّ فـي أذنيهـا، كـأجراس وداع لا تهـدأ. كانـت قرقعـة القـوارير وصـفير الـريح تثيـر رهبـة فـي الـنفس، لـم تهـدأ طـوال الليـل، مـع ارتجـاج النوافـذ وصـكّ الأبـواب، وكـأن الطبيعة تتآمر معها لتزيد من عزمها.

الشـمس ناحلـة فـي الأفـق، منزويـة خلـف غيـوم سـوداء، خجلـة فـي إطلالتهـا، كأنهـا تشـارك هـدى لحظـة الـوداع. كـان ذلـك الصـباح الأخيـر مـن شـهر شـباط، والريـاح تصـفر فـي أبواقهـا، معلنـة يومًـا ملبـدًا بالمفاجـآت. الأشـجار تحـف الأجـواء بحفيفهـا، والطيـور صامتة، هجرت سماء بغداد، كأنها تبحث عن ملاذ أكثر أمنًا.

شـعرت هـدى أن الـزمن يعـاكس خطاهـا، يسـرّح شـعرها الأصـهب بمشـط الخـوف، ويلبسـها جلبـاب الزفـاف الأبـيض مـن جديـد، لكـن هـذه المـرة زفـاف دون عـودة إلـى المـوت. النـاس منشـغلة بأرزاقهـا، تخـرج ولا تضـمن العـودة، تتأمـل أن يعـود الأمان من سفره الطويل.

رجـل مسـن يـدفع عربـة خضـار، وآخـر يحمـل كيسًـا مـن الخيـار، وأطفـال يلعبـون فـي الزقـاق، والوجـوه بائسـة، تبحـث عـن شـيء مفقـود، عـن كرامـة ضـائعة، عـن أمـانٍ بـين أقـدام المحتـل. الكـل

يتنفس الصبر المر، ينتظر فرجًا لا يأتي، واليوم التالي دائمًا أسوأ من سابقه.

هدى، وسط هذا المشهد، كانت تمضي نحو قدرها، نحو لحظة الثأر، نحو قرارها الذي لا رجعة فيه.

بدأت بعض الدكاكين تفتح أبوابها، والرياح تعبث بأكياس النايلون الملونة المتطايرة في الأفق، وكأنها طقوس مهرجان غامض، مهرجان فرح ستشرع هدى في تدشينه من موقع جنود المارينز. سيكونون أول من يشهد ابتهاج هذا اليوم، يوم الثأر والانتصار، يوم لا تذهب فيه دماء الأحبة سدى.

كانت الطرق تخرّ أمام خطواتها، تحفّها نحو مصير مجهول، لكنها تمضي بأمل أن تلحق بركب زوجها وابنها، تشعر بهما يسايرانها، يحثانها على المضي قدمًا، يشجعانها على العبور نحو حياة أخرى، أوسع وأجمل، تهجس بهما ينتظرانها خلف حاجز الذاكرة، لا يفصلها عنهما سوى هالة ضبابية تغشي عينيها. إنها الجنة التي تشتاق.

قلبها مطمئن، قرارها محسوم، لم تعد تملك من الدنيا ما يدعوها للبقاء. الجهاد ضد المحتل فرض وواجب، كما جاء في قوله تعالى: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ} – الحج 78 {ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ... أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ} – التوبة 20

كانت تقرأ الآيات وهي تجتاز الشوارع متجهة نحو نقطة عبور قرب جسر الأئمة، حيث يتمركز جنود الاحتلال. الجسر

يـــربط بـــين الأعظميـــة والكاظميـــة، نقطـــة اســـتراتيجية تســـهل سيطرتهم على ضفتي بغداد.

لــم تعــد تــرى شــيئًا ســوى هالــة ســوداء، ذهنهــا منصــب نحــو الهـدف، عيناهــا مبيضــتان، والسـيقان تتحـرك كآلــة ميكانيكيــة، لا تعــب، لا تــردد، فقــط إصــرار وتحــدٍ. تمســك بقرارهــا بيــدها وبقلبهـا، لا خـوف يردعهـا، حاضـرة بكامـل كيانهـا، عزمهـا كجبـل لا تهزه ريح.

اشـترت مـن بقالـة ثلاثـة كيلوغرامـات مـن البرتقـال، وضـعتها فـي كـيس شـفاف، ومضـت نحـو هـدفها. تـراءى لهـا الهـدف كتفاحـة تنتظـر القضـم، وضـعت يـدها اليسـرى علـى زنـاد الحـزام الناسـف تحــت عباءتهــا، واليمنــى تحمــل كــيس البرتقــال، متجهــة نحــو سيارة همر عند مدخل الجسر.

صرخ بها جندي المارينز: – Stop!

تحجــرت فــي مكانهــا، رفعــت حاجبهــا كإشــارة ود، وابتســمت ابتسـامة مشـرقة، وجههـا أضـاء كالبـدر فـي ليلـة زبرقـان. تركـت كيس البرتقال على الأرض، ثم دارت عائدة بخطوات بطيئة.

نادى عليها الجندي مجددًا: – Stop. Come back.

عـادت إلـيهم، والغبطـة تغمـر قلبهـا، ابتسـامتها أغشـتهم، فـارتبكوا. شــكهم تراجــع أمــام إشــراقة وجههــا، وغريــزتهم طغــت علــى حــذرهم. ظنــوا بهــا حســن النيــة، ونســوا الحــذر. كانــت الفراســة

حاضـرة، أدركـت نوايـاهم، وابتسـامتها كانـت لغمًـا بعثرتـه فـي أحضانهم.

اقتربـت مـنهم، خمسـة جنـود تجمعـوا حولهـا، وكـل مـنهم يقـرأ فـي وجههـا دعـوة للـود. ومـا إن وصـلت، حتـى تلاقـت الابتسـامات علـى وقـع التفجيـر. عصـف بهـم، تنـاثرت أجسـادهم، احترقـت عجلـة الهمـر، اختلطـت الـدماء الزكيـة بالفاسـدة، ولـم يبـقَ سـوى جزء من عباءتها السوداء.

هـدى... ثـأرت لزوجهـا وابنهـا، وذهبـت شـهيدة مطمئنـة. {وَلاَ تَحْسَـبَنَّ الَّـذِينَ قُتِلُـواْ فِـي سَـبِيلِ اللهِ أَمْوَاتـاً بَـلْ أَحْيَـاء عِنـدَ رَبِّهِـمْ يُرْزَقُونَ} – آل عمران 169

لكـن خبـر التفجيـر سـمع بـه القاصـي والـداني فـي الأعظميـة، تناقلتـه الأنبـاء بسـرعة البـرق، حـرق عجلـة همـر وقتـل عـدد مـن جنـود الأمريكـان. كـان قاسـم قـد سـمع بـالخبر عـن طريـق مكالمـة مجهولـة فـي تمـام العاشـرة صـباحا مـع سـاعة الانفجـار، وقـع الخبـر عليـه كالصـاعقة، جعلـه يـدور فـي محـيط حيرتـه، كـان الخبـر مختصـرا فـي عنوانـه ومفـاده: { مبـروك شـهادة أختـك هـدى}.. الصـدمة هزتـه، أيقظتـه مـن غفلتـه، كيـف استشـهدت؟ أيـن تركـت أبنتهـا ريـم؟ الخبـر يقـول مبـروك فمـن أتصـل بـه؟!! إذا فـي الخبـر تكمـن أسـرار، إذا أنهـا لـم تقتـل مطلقـا، بـل ربمـا قامـت بعملية انتحارية صرفة، ربما ثأرت لأبنها ولزوجها.

كيـف يتحـرى عـن الخبـر؟ كيـف يـذهب للمنطقـة ويســأل عـن أخبارهــا؟ ربمــا بيتهــا مراقــب، بــذلك ســيعرض نفســه للمســائلة، وربما للسجن المؤبد والملاحقة.

بقـي أسير نفسـه ينتظـر الفـرج وهـو يتبـع الاخبـار عبـر المـذياع، لـن يسـتطع أن يبـوح بـالخبر، تكـتم بـه عـن زوجتـه، لربمـا تثـار بـردة فعـل تفضـح نفسـها وتفضـحه، صـار يكلـم نفسـه وهـو فـي ذهـول تـام؛ دعنــي أهيــئ فرصــة لــذلك. لا يسـتطيع أن يسـأل عنهـا فـي منطقـة سـكناها، لا يسـتطيع أن يسـأل مـن جيرانهـا، الخـوف مـن المجهـول والحـذر لابـد منـه، بـل صـار واجـب عليـه أن يتخفـى عن الأنظار، أن يتحفى بالحذر، أن يبتعد عن الناس.

أمــا أم عائشـــة، فقــد انتظــرت عودتهــا حتـــى الأصــيل، دون أن تعــود. ســمعت بخبــر التفجيــر الــذي تناقلتــه الأنبــاء، فاتصــلت بقاسم:

– أخ قاســم، الســلام علــيكم. أختــك هــدى تركــت ريــم عنــدي وذهبـت للسـوق، ولـم تعـد حتـى الآن. أخبرتنـي أن أتصـل بـك إن تأخرت. أنا جارتها أم عائشة.

رد قاسم بصوت مرتبك:...

– شـكرًا لـكِ. هـي فـي المشـفى، تعرضـت لحـادث مؤسـف، وهـي فــي غيبوبــة. أرجــو أن تحضــري ريــم غــدًا صــباحًا إلــى مشــفى النعمان، سأنتظرك عند الباب.

– لا إله إلا الله، وكيف حالها؟

– كما قلت، في غيبوبة.

لم يشأ أن يبوح بالحقيقة، فالجدران لها آذان. وفي صباح اليوم التالي، وصلت أم عائشة، تعرف عليها من خلال ريم، فناداها:

– ريمه، ريمه.

التفتت إليه:

– عمه، هذا خالو قاسم.

فتح باب السيارة، وأجلس ريم، ثم قال لأم عائشة:

– السلام عليكم، شكرًا لوفائك.

– أخبرني عن هدى، هل أستطيع رؤيتها؟

– لا، لن تستطيعي. أرجو أن تمسكي أعصابك، وتخفضي صوتك. هدى تشكرك وتبلغك السلام، لكنها انتقلت إلى جوار ربها.

– لا، لا تقل ذلك...

– يوم أمس، فجّرت نفسها في مجموعة من جنود الاحتلال، قتلت خمسة منهم، وأحرقت عجلة الهمر. أرجوكِ، لا تتصلي بي، ولا تتحدثي عن الأمر. إن عرفوا أن ريم كانت عندك، سيشملك الاتهام. أرجوكِ، اكتمي السر، وادعي لها بالجنة.

– حاضـر، لقـد فاجـأتني. كانـت جميلـة، فرحـة، كأنهـا أرادت أن تقابـل ربهـا بأحسـن وجـه. الله يرحمهـا، هـي أختـي وجـارتي منـذ خمسة عشرة سنة.

مسـحت دمعتهـا، وودعتـه، والحـزن يتقطـر مـن وجههـا، وفـي صـدرها آهـات محصـورة، تكـاد تختـرق جـدار الصـمت المغشـي بلون عباءتها السوداء.

الجوهرة

مـا أن لمحتهـا وهـي تجـري بـين أروقـة أسـواق الكاظميـة حتـى أقشـعر بـدني، لـم أعـد أشـعر بـاتزان قـط، بـدت لـي وهـي تتحـرك أمـام نـاظري أشـبه بالشـعلة الوضـاءة شـغلت البـال والقلـب والجسـد بمفاتنهـا الجميلـة. وأنـا أترقـب خطواتهـا كأنمـا أصـابت خـافقي بمـس كهربـائي، أو بـالأحرى أصـبت بمـس مـن كـرب جنـون تلـك الفتنـة التـي تركبهـا. كانـت قـد حلـت فـي السـوق كعصـف هـائج ضـرب شـواطئ السـوق علـى حـين غفلـة، بحيـث شـتتت مـن علـى غصـن الـذهن كـل الحمامـات التـي كنـت اتـأملهن، هكـذا جـذبتني نحـو واقـع جاذبيتهـا المصـاغة بـالتلألؤ والسـطوع الظـاهر علـى مفـاتن الجسـد رغـم غشـيتها بحجـاب تـام وخمـار لفـع جميـل وجهها.

وهـــي تخطـــو خطواتهـــا بـــاتزان، تهجـــس بهـــا أشـــبه بطـــائر الطـــاووس المبـــتهج بذاتـــه وكبريائـــه، متبختـــرة برهافـــة مشـــييها وتناســـق خطواتهـــا خـــلال حركاتهـــا الاستعراضـــية داخـــل أفـــرع سـوق الـذهب المـزدحم، ترفـق ذاتهـا ثقـة عاليـة بـالنفس، فـلا تعيـر أهميـــة لكـــل الـــذين أصـــابتهم تلـــك القشـــعريرة التـــي ســـرت فـــي جســـدي، لـــم تبـــالي لحـــدقات العيـــون المتلصصـــة والتـــي أنشـــدت لجميـــل قوامهـــا الرشـــيق، أمثلهـــا بفســـحة صـــمت وبهـــاء، تركبهـــا طاقـــة فياضـــة مـــن الســـحر. كانـــت تـــدور بـــين محـــلات الصـــاغة بأنـــــاة، تقمصـــــها رغبـــــة جامحـــــة وروح مستشـــــيطة، تســـــتطرق الأسواق بحثا عن غاية مدفونة في نفسها.

وأنـــا أترقبهـــا عـــن بعـــد هجســـت بهـــا تـــدور فـــي مخيلتـــي كشـــحنة مكهربـــة، كالإلكترونـــات الـــذرة، لا تســـتطيع أن تنفـــك عـــن مخـــي الـــذي أنشـــغل بهـــا ولا أســـتطيع تجـــاوز حـــدها، لا تســـتطيع الثبـــات عنـــد محـــل مـــن محـــلات الصـــاغة، بـــت اتبعهـــا كمجنـــون يســـعى خلـف عقلـه وظنـه وقلبـه وهـي تسـعى خلـف رغبـة جامحـة تسـيطر علـى ذاتهـا وسـحر مفاتنهـا. حيـث مـا أن تـدخل محـلٍ مـن محـلات صـــاغة الـــذهب؛ حتـــى تهـــرب منهـــا الفطنـــة بعـــد أن تهجـــس بهـــا زادت بهجـة وضـياء وزحامـا وقـدرا، كأنهـا بروحهـا الترفـة كانـت تشـــاغل القلـــوب العشـــاق مـــن حواليهـــا دون إرادة، بـــل شـــعرت برهافتهـا قـد مسَّـت حراشـف الظـن والعقـل والفـؤاد دون أن أتمكـن مـن وصـفها وقصـفها وتنبيههـا علـى مـا فعلـت بـي ومـا تركـت مـن هيام في أعماقي.

أرهقت يقيني، شغلت بالي وأجهزة الروح العاطلة بلظى سحرها دون إرادة، لأبقى متيقظا ضمن مجال سحرها، قررت أن أتبع تلك الفتنة المتوهجة قبل أن أتبع خطواتها في تشعبات السوق، لقد لازمتني حالة من الضعف والعند حيال تلك الفتنة التي استفزت طاقة كلٍ من حولها بشكل عبثي، في الوقت الذي به سنفرت مفاتنها بحدة حدقات العيون المنصبة عليها، بانت كجوهرة نادرة تتلألأ بين الجواهر.

لذا تبعها الفؤاد بشغف وهي تجري كفيض بهاء بين شعب السوق المزدحم، متنقلة بين الصاغة من دكان لآخر برهافة، يركبها العجب كنور ساطع يبير دربها، بحيث شغلت كل المحيطين بها الذين تواجدوا في تلك اللحظة في دائرتها، أصابت كل العيون الملظة برمد الشغف والفضول، تلك التي بقيت تراقبها عن كثب دون أن تتجاوز كرامتها واتزانها.

كانت تجري بخفة الريح ورواء رغبة جامحة سيطرت عليها وهي تتنقل بين محلات الصاغة. ما أن لفتت نظري حتى نسيت سبب وجودي وتركت كل من كنت أبحث عنها ونسيت كل صورة مما كانت تدور في مخيلتي، أسرت هواجسي، سحرتني، فتتبعت ذلك الهباء من الضوء المنفلت من ثلم الفتنة المنبثة في ثناياها، والذي بات يرشدني لسر الجاذبية برغبة وشبق.

أضحيتُ كمجنون ليلى اتبع ملاك من وهم، ولا حلم لي الا أن أكون مجنونا بين يديها، هجست حالة الجنون ما هي سوى مرحلة من مراحل التسامي التي تصل بالفرد إلى درجة النبل

والصفاء التام في علاقته مع الهدف، والتي من خلالها يتقبل الحياة بشكل من اشكال البراءة مبجلا حبيبته. حينها هجست بذاتي تحولت لهباب، لضباب، لدخان، من خلاله بت أعبر على عيون الناس وأفكارهم دون المساس بهم أو تغيير مساربهم وغاياتهم، متأملا أن تشعر بغايتي، وددتها أن تفوز بها وتشعرها بمقتضاي.

هكذا صرت أتبع الغاية الملظة في القلب دون تفكير، عسى أن أدخل من ثلم الظن في مجالات الغفلة المغلقة، في عين تلك الفاتنة لأستقِر في الحدق، لتصاب بما اصبتَ به من مس يجعلها تتأمل الجنون في شخصي، حيث جنح بي الخيال لنقطة اللاعوده وأنا أتحرك كظل خلفها دون وعي.

صرت أتبع خطواتها في أزقة محلات الصاغة الضيقة على مدى قرابة ساعة زمن دون هوادة، بحيث تمكنت خلالها من سرقة ذاتي من عالمي، لأجعلها تنشغل بهدف غير مراء، باحثا في مواقع النجوم عن عطرها وانفاسها وجاذبيتها، منشغلا بها بذات الألق الظاهر عليها، متقدا بشواظ سحرها طوال فترة تواجدها في سوق الذهب؛ حتى هجست بالرغبة النائمة في داخلي قد تحررت ومزقت شرنقتها، تسترت بظلال قيافتها، تشبثت ببروج فتنتها، بل صارت جزءا من مقتنياتها وهي تبحث عن ذاتها بتلك الرغبة الجامحة بين لآلئ وجواهر في محلات الصاغة.

يا ترى؛ من تلك الفاتنة التي أجبرتني على تتبعها؟ التي أبرمت خيوط العقد في فكري بمغزلها، تلك التي من دون فتيات

السوق قاطبة قرأت لوحة إعلاناتي، بل أجزمت من دون نساء بغداد كلها أن تنشر عذاباتي في صحف العيون. هكذا سحرتني وقيدت تأملاتي، بحيث ما أن مرت بقربي؛ جعلتني أنشده بمفاتنها، بل أجبرتني على أن أفتتن بكل معالمها من رأسها لأخمص قدميها. جعلتني أشكك بقدراتي وبتقديري للأمور الطارئة، فلا أدري أن كانت تلك الفاتنة هي آية من آيات الوصف والجنان التي أبدع في خلقها الله كحورية، أم كانت زلة شيطانية أشعلت فتائل الوله والإعجاب في مراكز الذهن والقلب، لأجبر على وضع قيدها في معصميَّ؟.

كانت مغشية تماما، من رأسها لأخمص قدميها، تلبس جلبابا أسودا وخمارا من ذات اللون وقفازات قطنية سوداء ترأف بأنامل كفيها. لمحتها تتجول بين محلات الصاغة وهي تمعن النظر في تلك الجواهر من قلائد وأساور ومحابس وأقراط بشغف، تتفحص الأحجال، ترتدي التاج...وهكذا دواليك تجرب الجواهر على مفاتنها البضة ومقاسها وكأنها لا تدرك بان تلك الجواهر لا فتنة فيها إلا ما تسرقه من مفاتنها، لا قيمة لها إلا حين تترصع بمعاصمها وحجلها وحين تتحلق في جيدها أو أنيها.

من خلال ملاحظاتي عن ما رأت عيني داخل السوق المزدحم والذي يضم من النساء أضعاف الرجال، أهجس بها غريبة الأطوار عن كل المتواجدات، كأنها غريبة عن الحي، أو ليست من سكنة المنطقة ولا من أهل بغداد، لما للبسها من احتشام محكم يغشيه الألق البارز عليها، وكأنها فصلت لذاتها تلك

المقاييس لتكون مميزة عن غيرها في البنية والقوام، حيث المتميزون دائما ما يحيطون ذواتهم بحلقة يعجز الآخرون على تقليدها، لذا تجدهم في المجتمع يحاطون بجمهرة من الأعجاب دون أن يهتموا بتلك الهالة، وفي الأحرى عدم اهتمامهم ظاهريا لا يدل عن ما يصيبهم من نشوة داخلية تعطيهم دافعا ليكونوا أكثر إثارة ونضارة ولمعة في الحدق.

هكذا هجست بها وهكذا فرحت كثيرا بها، تأملتها مليا، تمنيتها رفيقتي، زوجتي، حبيبتي، سليلتي، أعجبني شياكتها ورشاقتها وقوام قدها الفارع، رغم سلطان الحجاب الذي أخفى معالم وجهها وطراوة جسدها الممشوق تماما.

هجست بالحجاب لم يكن حجابا سوى ظاهرا فقط، كان أشبه بالكشّاف الكهربائي أو السحري في مادة الكيمياء، بحيث أبهج مفاتن الجسد كلها بدلا من أن يضمرها، بانت لي معالم الأنوثة مثيرة بدقة غير متاحة، كان الحجاب لا يغطي من الجسد سوى لون البشرة فقط، وذاك ما أثار العقل، بحيث يجعل المتبع يتخيل لون البشرة بما تهوى وتتأمل النفس؛ حتى تثير في داخله النزعة الجنسية والشبق الذي يتأمله في حبيبته.

الحجاب سمح لمرافئ الفتن من البروز والتكور والتهيج تحت غشاء العباءة بشكل ملفت للنظر، أظهر تقاسيم الجسد بشكل ما، جعل رقائق الأنوثة تسطع تحت إنارة مصابيح السوق، سَوَّرَ القوام الممشوق بالجاذبية، جعل ذلك الجسد الحلزوني يرتق بعذوبة، كأنه جسدٌ هلاميُ يتحرك بلا حجاب وبلا عظام لنعومتها وفتنتها. بتلك المعالم كانت تبدو كحورية نزلت من

السماء لتشغل بالي، وكأن الحجاب اشعل براكين الفتن في جسدها، فأثارت بهن حفيظة الجميع وهي تنثر شواظ الفتن في العيون المبحلقة بها.

كنت أهجس فوق ذلك الجسد المرمري تتحرك أمواج الأنوثة المبهرجة بالجذابة والخفة والألق، مضت تختال الأنفس الملظة بها تحت وقع سهام الانظار المبحلقة بقوامها. كأني أصبت بلهفة شيطانية انحدرت مع تموج ذلك الجسد المتقد من الرأس حتى القدمين، اشاطت في الأنفس ندب للآهات والحسرات التي باتت لا تحتملها الصدر.

وأنا في غيي أتتبع خطواتها، بت أراقب المشهد بحذر وأن كنت مقرونا بمشهد من أول الحدث، حيث ذلك الفيض حل كقدر في دربي لابد منه، أضحيت قشة تتلاعب بها أمواج تيارات متلاطمة. لذا كانت تثير أعصابي كلما لامس القلب شطط من تلك الأمواج العاتية، ما عاد يصبر على صخب المشهد المراق من تلك الجميلة، أضحيت أسير الهوى، لا أبغي أتحرر من واقع المشهد.

بدقاته المثيرة شاطر القلب حدقات العين صيغة الاعجاب والوله، وذلك بوقع العزف والغنج الذي تأبطه، بوقع تأثره الواضح بتضاريس الجسد وهي تتحرك بخفة وألق في اروقة السوق..

بت أتنقل فوق تلك الأحجار من الظن، متأملا ذلك الجسد عبر الخيال الذي لازمني وأطبق على تفكيري، بل صرت أتنقل من

خيــال لواقــع ومــن واقــع لخيــال وبــين هــذا وذلــك صــرت أفتقــد أتزانــي كــأني أقــف علــى حــد النهايــة دون أبــالي لمــا يحــيط بــي أو يــأتيني مــن فــيض مــن البشــر، غــدت الرحلــة متعبــة وأنــا أبحــر عكــس تيــار الشــوق إلــى أعمــاق الرغبــة التــي اصــطفت تغــور فــي الوسط بصمت، كذوبان الثلج، دون أن تنتبه على سرها.

وأنــا أنظــر لهــا بــذلك الشــغف، هجســتُ بــأني قــد أدركــتُ مرامــي، كأنهــا هــي التــي كنــت أبحــث عنهــا طــوال فتــرة عزوبيتــي فــي قــواميس الترجمــة وكتــب المغــامرات والتــاريخ وابجديــة اللغــة، كأنهــا هــي التــي جرجــرت شــبابي لواقــع العجــز بعــد أن تــذيلتُ العَقد الثالث من العمر.

مهمــا تكلمــت لا يمكــن وصــف مفاتنهــا، جســدا مكــورا مــن نــدف القطــن، ينــزوي خلــف حــاجز شــفاف مــن غبــار الغســق، وكــأن تلــك العبــاءة التــي ترتــديها مــا هــي ســوى مــرآة تعكــس مــا فــي داخلهــا، زجــاج شــفاف يســمح لفوتونــات النظــر والخيــال مــن أختــرق حــاجزه.. صــرت أنــبجس بــذلك الغــراء كشــاهد علــى لدانــة الوجــد وأنــا أشــاهد حقيقــة المفــاتن متلألئــة، تبــرق بعــالم الخيــال، حتــى أنــي بمعاينــة معانيهــا صــرت أتخيــل نــدب الوشــم أو الخــال فــوق الصــدر كنقطــة عنبــر فــي صــحن مرمــر، والشــامة فــوق ناصــع الخــد كحبــة هــال فواحــة، بــت أرى الصــرة تترقــرق فــي مــوج الــبطن، ترتــع بضــياء مشــع كالبــدر، معشــوقة فــي الســماء الصــافية.. هكــذا أنحــدر بي الخيال لعالم الجنون والشبق والجنس.

أيــه... يــا هــذا! أيــن ذهبــت وأنــت واقــف بــين المــلأ تراقــب عــن كثــب ظبيــة بــان بــين شــطط غــزلان الفــلاة، تحــاول ان تفلــت مــن قيــد

شـباك العيـون المتلصصــة بهــا، أن تملــص ذاتهــا دون ان تســتطيع والوحوش يحيطونـها من كل جهة.

بـين جنـوح ورغبـة؛ صـرت أتصـور شـكل جسـدها اللـولبي بعقلـي وظنــي، أحفظــه بســري، أصــوغ لــه قصــائد ود وأنــا أراه يتــراقص أمـامي كخـيط دخـان ينفـذ مـن لظـى وجـدي، لا أسـتطيع الإمسـاك بـه ولا الابتعـاد عنـه. كـأنَّ الحجـاب الـذي يفصـلني عنهـا مـن ورق شـفاف، بحيـث صـرت أهجـس بخفقـان قلبهـا وبقشـعريرة جسـدها وهـي تلـتظ تحـت العبـاءة نتيجـة العيـون الماحقـة خلفهـا، بـل صـرت اتحسس مكنوناتها ودقة تكور مفاتنها والنار المضرمة فيها..

جسـدا يميـل مـع سـجدة الأنفـاس المسـكرة، يـرتعش مـع شـهقة الآه فــي صــدر المتــيم، أهجــس بــه كضــباب يمــرق بــين العيــون الشاخصــة، تضـفي عطـر مـن ولـه الشـوق علـى الانفـاس المحيـرة، اسـمع صـدحها كطـائر يَعْبـرُ عـالم الشـبق والحبـق هائمـا بسـره، يلهــث خلــف غايــة محبوســة تكــتم علــى أنفاســه، تــواق بشــوق للحرية.

مـع مـيلان الجسـد الممشـوق باتـت تميـل أنفاسـي، تشـهق بسـحر مــوج بحرهــا الطــامي، تعــزف بســر عــزف أوتــار خطواتهــا. لرهافـة الإحسـاس؛ تنهـدت الـروح تنهـد المكلـوم، مضـت خلفهـا تحبـو علـى أثـر الشـوق والرغبـة، لتتشـبث بطـراوة روحهـا، لِمـا بـت ألـتمس فيهـا مـن هيافـة وفـيض وقطـران يشـهد علـى فتنتهـا، هكذا أوصـفها، جملـة جـواهر معلقـة فـي شـجرة المـيلاد، تـتلألأ فـي حدق العين بفيض ذلك الحسن الطاغي عليها..

بشــيء مــن العنــاء تمالكــت نفســي أمــام مــا بعثــرت مــن ســهام أصــابت بهــا وجــدي، بــذلك التناســق المبهــر المكنــون فــي ذوائــب الجســد، تمكنــت مــن فــرض قيــدها فــي معصــمي، تمكنــت مــن إقحــامي فــي دوامــة ذاك الســحر الظــاهر عليهــا؛ حينهــا التمســت فــي برجهــا العــالي يشــع لــون الرضــا، كصــفة النــدى الطــافح فــوق ظاهرها المترف، فاقتنعت بملاحقتي لها في أزقت السوق.

بعـد أن تمكنـتْ مـن أسـر هواجسـي؛ تمنيتهـا زوجـة لـي وحبيبـة، فصـيانة الشـرف غايـة أهواهـا، أتـوق لهـا، فالأنسـان إذا مـا أسـتقر ذهنيـا سـيعمر طـويلا، سـيتفرغ لعملـه بشـكل مـريح، سـيبدع فـي كل مجالات الحياة، ستميل له الدنيا والسعادة وراحة البال.

لقـد شـغلتْ بـالي بتفاصـيل أنوثتهـا وسـحر القهـا، شـدهتْ بـالي بلغـز الفـتن دون تخطـيط مسبق، صـرتُ أتبـع خطواتهـا وهـي تـدور بـين أروقـة السـوق بشـغف، كـأني كثـور هـائج أتبـع ملاكـا الطـاهر دون شعور مني، دون أن أشعرها بوجودي.

تبعتهــا كظلهــا فـــي متاهــات أفـــرع الســوق، مارقــا بــين شــعب الأســواق المتداخلــة ومحــلات الصــاغة والتــي فــي واقــع بنائهــا تكـون أشـبه بالمتاهـة لكثـرة افرعهـا، كانـت تتنقـل مـن صـائغ لآخـر ومــن فــرع لفــرع، ومــن رغبــة لأمنيــة دون كلــل وملــل. صــرت أراقبهـا بـنهم وعـن كثـب، أتمعـن بهـا عبـر الواجهـة الخارجيـة لتلـك المحـلات، أتمعـن فـي رغباتهـا المختلفـة، فـي حركاتهـا وتفاصـيل ثناياهــا دون أن أُجــرِئ الاقتــراب منهــا، أو الــتلاحم معهــا. فلــم الـــتمس اهتمامـــا منهـــا بالعـــالم الخـــارجي الـــذي يحيطهـــا، أو

بـــالأحرى كانـــت لا تبـــالي بمحيطهـــا والمهتمـــين بهـــا، لا تلتفـــت لتحرشات وإرهاصات الاخرين كأنها من صنف البكم والصم.

مـــا أن تـــدخل محـــل مـــا؛ حتـــى تشـــغل الموجـــودين بهـــا، تلفـــت الانظـــار لشخصـــها، تجعـــل مـــن المحـــل ورشـــة عمـــل لمتابعـــة طلباتهـــا، وكـــأنَّ فـــي طلتهـــا ســـطوة تجعـــل مـــن الحضـــور ينحنـــي لرغباتها، وقد تكون ربما زبونة دائمة يعرفونها.

كنــت أهجــس بــذاتي واحــدا ممــن يخضــع لســطوتها دون إرادة وأن كنــت اراقبهــا دون الاحتكــاك بهــا، لــذا جعلــت نفســي أنشــغل بــأمر ثـــانوي فـــي المفـــازة الخارجيـــة أمـــام المحـــل، وكـــأني أوحـــي بهـــا لغيــري بــأني مكتــرث بــأمر خــاص يخصــني لــيس لــه علاقــة بمــا يحيطنـــي، بحيـــث صـــرت أمضـــي أمـــام المحـــل الـــذي تـــدخل فيـــه جيئــة ورواحــة فــي ذات الشــارع المــزدحم المكتظ بالبشــر وبالــذات النســاء مــنهم حتــى تفــرغ مــن تبضــعها. ربمــا كنــت عرضــة للهمــز واللمــز والهــزر والقــبح والنميمــة دون أن أعلــم، وربمــا غيــر ذلــك مــن الأمــور كــاللوم والســفه، كــوني شــاب فــي عمــر تجــاوز حــد المراهقة...

هكــذا خيــل إلــيَّ ومــع ذلــك لــم تهزنـــي شــارة كــي أغيــر مــن خــط ســـلوكي، لأنـــي مـــن لحظـــة مشـــاهدتها افتقـــدت علاقتـــي بالعـــالم الخـــارجي، بقـــي فكـــري مـــرتبط بهيكلهـــا والأنوثـــة التـــي ترفقهـــا. بقــرارة نفســي كنــت أشــعر بــأني مراقــب مــن قبــل الجميــع، مــن المـــارة وأصـــحاب الـــدكاكين ورجـــال الامـــن والمعنيـــين والمـــراهقين والســذج وأصــحاب الشــهامة، لــذا بــت أمــتعض مــن شــذوذ ســلوكي

وتصرفاتي المهينة دون أن أغير شيء منها، كنت أهجس بالقيد في معصمي وما أني سوى سجين هواها..

حقا كانت تصرفات غريبة تلك التي عنيت بها، ولا أعلم ما الذي كان يسوقني ويدفعني خلفها، ربما لأني أشعر بذاتي قد قطعت مشوارا طويلا من العزوبية فوصلت حدا لا تحتمل خطوات أخرى إضافية، ربما صار العمر يحرجني، يشمت بكسلي وسلوكي، يلوي خجلي وتقهقري، يحاسبني على انزوائي وطول صمتي، يعاقبني على برودي وخنوعي وخذلاني، ربما...

في ذلك الوقت كنت أشعر بالألم يحز الفؤاد حين أردد كلام المطرب ياس خضر مع نفسي وهو يقول في أغنية روحي "عمر وتعدى الثلاثين لا يفلان"، كأنه أهجس به يتقصدني بأغنيته، لذا وددت أن أنهي مشوار العزوبية قبل أن يأتي الثلاثين القابع على محراب العمر...

في الواقع لا أحد يكترث بشخصي في سوق الكاظمية لشدة الزحمة، بحيث باللحظة المارقة تمر موجة من البشر من أمامي، ثم أن المنطقة بطبيعتها ولموقعها الجغرافي المميز وسط بغداد، تعتبر سوقا مفتوحا أمام من يرومه ويطرقه من الناس، كمٌ هائلٌ من البشر الزاحف يؤم السوق في كل يوم، بحيث في اللحظة المارقة تتغير الوجوه أمام عيني لحيوية المنطقة، فلا استطيع حفظ الوجوه، لذا لا أحد يكترث بالآخر أو يسأل عن حاله وظنه وهويته وهواه قط.

فالغيمــة المــاطرة التــي أغشــت ظنــوني؛ تخطــت حــواجز الظــن والمشــاعر؛ أبرمــت ضــفائر العشــق فــي كنفــي بــزخم زخاتهــا، بسـنارة الغـزل، كأنهـا أمطـرت علـى رواق فكـري فضـة وذهبـا، فأصـابتْ بهـا مقتلـي. كأنهـا بسـحر مفاتنهـا وبطيـب حسـنها بللـت مرافــئ الــود المتيبســة علــى ثغــري، تلــك التــي جعلتنــي لا أتــذكر كلمـات الـود التـي افتقـدت لمعانهـا منـذ زمـن، بفتنتهـا كأنهـا سـقت تلــك الكلمــات مــن نــدى ســحرها الشــفاف، جملــت الشــفاه بلظــى الآهـات، فعـادت لـي ذاكـرة الشـغف والكـلام الجميـل مـن جديـد، وبـذات الوقـت فتحـت للقلـب تـرع سـبل الحـب لتعيـدني إلـى الواقـع المنفلــت مــن جديــد، جعلتنــي وأنــا مكبــل بــالهم أســيرا دون أن أتمكــن مــن تحريــر ذاتــي، بســبب ضــعف علاقــاتي وقــدراتي الماديــة، لــذا صــرت أهــيم فــي دوامــة العنــاء وشــف المصــاعب دون أن أستبيح فضاء الأحلام بغمزة.

المهـم جعلتنـي أتحـرك عـن موضـعي، طفقـت تتلاعـب بضـفائر صـبري وهواجسـي، جعلتنـي قـدرا مخضـوبا فـي وصـل رجاءهـا، ألــوذ لــوذ العصــافير فــي وحــل غِواهــا، فراشــة تســتكين علــى زهرتهــا، متــأملا هيافــة الحســن أن تَــرُق، ولظــى الوجــد أن تتقــد في هواها.

بقيـتْ تـدور فـي السـوق قرابـة سـاعة زمـن مثلمـا اسـلفت، جابـت بهـا معظـم محـلات الصـاغة، كنـت خلالهـا أراقـب المشـهد بشـوق وبنهم، لـم أمِّلْ من جورهـا ولـم أكلْ مـن نـار الصـبابة التـي كـوتْ أحشــائي، أججــت نــواميس صــمتي باســتبداد وقعهــا... شــعرت خلالهــا بــأني مســافر فــي رحلــة اســتمتاع نــادرة أدور بهــا فــي

متحف الفتن، هجست بذلك الجسد الرخامي ممتد بين لاحظة عينيَّ وشغف قلبي كجسد آلهة سومرية وملكات العروش بابلية عبر التاريخ الطويل لتوقظ احاسيسي النائمة، أهجس بثديها تعبر ثدي عشتار البابلية، وعجيزها يرق بتجاذبات عجيز تويا الهيروغليفية، ونورها انعكاس من نور بلقيس اليمنية، قامتها من قامة فينوس الرومانية، كل تلك الفتن جمعت في جسدها، فبدت لي حورية من حواري الجنة.

مع أنه لم يظهر من وجهها سوى عينين براقتين فيروزيتين؛ إلا أنهما توحيان بأن خلف ذاك الخمار يختفي قمرا منيرا، لم يحن ولادته بعد في عالم العرف. أهجس بها تمشي بهالة ظل من الجاذبية، توحي للناظر بجبروت الفتنة المدفونة في حجابها، فتنة يعجز الوصف عن بسطها وفلِ عقد معانيها.

بصراحة بعد الكرامة التي تمثل قيافة الأنسان، لا قيمة للإنسان أن فرط بها؛ هي عماده وشخصيته وهدوء فكره وحلوله الناجعة. وأني من خلال مراقبتي لها وبحكم أعجابي السليط بها، كنت أبحث بين ثنايا الحجاب عن السحر الغافي والكرامة التي تقيم الذات، ابحث عن هدوء بالي واستقراري، عن غيرتي ولون صفاتي، عن حقيقة وجودي في عالم الحس بين طيات تلك المعضلة من العقد الحياتية، التي تتفجر دماملها على حين غفلة في مسارب الحياة.. لذا تعلقت بتلك الفاتنة بشكل خطي من أجل صيانة الكرامة التي أبحث عنها في عالمي الشائك، من أجل الاستقرار الذي أبتغيه للنفس المضطربة..

ذلـك مـا دفعنــي أن أقـدر حشـمتها ونـوع لباسـها وقرارهـا وبأسـها الـذي أصـابتني بهـوس انسـيابي نحـو أعمـاق الـرؤى التـي جزلـت رغبتي في قوامها وفي ذلك الكيان.

رغـم الخجـل المعـروف بـه، سـار ذلـك الهـوس فـي رواق وأزقـة القلـب، بحيـث أجـج مستشـعرات الحـب وهـيج الأعصـاب، مـرغ أنـف كبريـائي فـي وحـل تلـك الهزيمـة دون أن أسـتطيع أن أفعـل شـيء حيـال ذلـك القـدر، هجسـت بالحالـة أضـحت كتلـك الأزمـات مـن الفشـل التـي مـررت بهـا فيمـا سـبق دون أن أصـل لشـاطئ الأمان.

كـان ظهورهـا أمـامي أشـبه بلغـم تفجـر دون أن يمهلنـي صـبرا للتفكيـر بهـا، أدركـت شـظاياه منابـت الأعجـاب فـي عقلـي وقلبـي بلحظـة غفلـة. بظهورهـا أرهقـت ذاتـي، طفـق طبـق الأعجـاب ينـزف تبـرم واغتمـام مـن كـل صـوب، لا اسـتطيع الصـبر حيـال الموقـف، بـت أرتـع بحضـرة الرغبـة دون أن تبحـث عنهـا ذاتـي، دون أن أجِّـدُ فـي دفـاتر الـذاكرة صـور تتـرجم لـي حجـم هيـافتي، كأنهـا قـد اختلقـت مـن واقـع الصـدفة قـدرا لـي، فعتتنـي كحجـر فـي وسط ذلك القدر.

فـي الحقيقـة كانـتْ سليطة بكـل مـا للكلمـة مـن معنـى، بحيث أنهـا لـم تتـرك لـي فرصـة البحـث عـن مـا تقـره ذاتـي ويقـره وجـداني، ببروزهـا المتـألق والمتـأنق كانـت قـد سـفطت كـل أفكـاري وأقـرت أمـر عـذابي وشـقائي، قـدرت مـا يحزننـي ويشـقيني ويسـليني، فحضرت كقدر لابد منه.

ما ألهم خيالي وقادني أتبع جريرتها في دروب الشوق والخفة والشقاء؛ هو عنفوان طلتها التي بها أوصدت كل الأبواب أمامي الا باب عذابي، حيث التمست تلك الأناقة المدفونة في بروج حجابها، وذلك الصخب المتأجج والتعفف المسترخي في فيض شبابها، رغم الخواء الدائر بيننا، وكأنها حلت من كوكب آخر لتلهمني اليقين في تحريك مشاعري الراكدة وتتبع فتنتها.

جلدتني بصمت، جررتني لوهدة التفكير بها، دخلت فكري بسرعة تفوق جريها في عيون الآخرين. نثت عبق رحيقها فوق كنفي دون الآخرين. أغشت فؤادي بالشوق قبل تلظ الحدق؛ حتى وجدت نفسي أسيرة هواها مرغمة، حاولت أن أسرر هواني لها دون أن أفلح، وأن لم أبح بذلك علنا.

وأنا أتبعها هجست بها قد قرأت طالع فنجاني، فأوقدت شعلة الرغبة والعذاب في نفسي، غرزت الغموض والعناد في صمتي وصبري، كحلت عيني برمد الشوق وبقوام قدها المزدان، فلم استطع التنصل من ذاك القدر.

ما أعجبني فيها أنها كاملة الأوصاف، كحسان راهبات الدير. السحر ينفث من الخمار الذي يأويها، كشذى العطر الشذي الذي ينفث من ثنايا عطفها وقامتها المهفهفة الممشوقة بالاستقامة والدهشة كعود الخيزران، تزاور الشوق بثني خطبها وسحر أوامها وهيَّ تمشي برقة النسمة بين شعب أسواق الكاظمية بخطوات ملهوفة فاترة، كأنها لا تريد إثارة غبار العصف خلفها لتجلب الأنظار إليها كما هي الجواهر البراقة..

بدتْ لي بجسد مصان بالسحر والوزن القياسي، فلا هي ممتلئة ولا هيَّ نحيلة، ولا هي طويلة ناشزة ولا هي قصيرة مدغمة. تهجس بالفتن تنتبر قامتها في موضع المفاتن كفاكهة ناضجة، تترقرق في مواضع الإثارة كالنجوم المتلألئة، حيث تبرز عنجرة الارداف ورمان النهد المغشي بتلابيب القميص بإذكاء، تتراقص تحت ضنين العباءة المنكمشة على الجسد الناهد برواء. تلك معالم تشع بالفتنة من الداخل، تستفيض بالسحر والألق لتثير ما في خارج الحجاب.

بقيت النفس تراوغ الذات في سيح الظن وهباب العصف الصريم، تتبع خطوات سرها بنهم العاشق، تبحث عن فرصة تستهويها لتحتك بها بشكل من الأشكال، أملا أن أثير أنتباهها أو مشاعرها بشرارة مشاعري المستفيضة، أن أشد وثاقها بوثاقي إلى الأبد...

إلا أنها كانت لا تبالي بمحيطها كما ذكرت، كانت تجري في واد سحيق وأنا في واد آخر، لا تبالي بعيون الذئاب التي تتبعها، لا تهتم بما يصيخ أذنيها من عبارات الأعجاب والتهليل، رافعة حاجب عينيها عن جادة الطرق، ماضية بسلاسة، بهدوء، وبعفة ورزانة نحو هدفها... منسلَّه من بين أفواه الحيتان المحيطة بها كسمكة دون أن تعير اهتماما للحيتان الدائرة حولها، كأنها آلة مبرمجة بتعاليم محددة..

كنت أهجس بها وهي تمضي في مساراتها؛ تتطاير خلفها الأنفاس كقصاصات الورق، بأثر عصفها وجريها وعدم

اهتمامها بمحيطها. لم تمنعها وهدة ولا هوة ولا صدع ولا شجة من أن تتخطى سجايانا بهدوء وبخطوات ثابتة.

.. حين أفرَغَتْ من التبضع، أخَذَتْ حاجتها وانسلتت بلدانة من بين أيادي الجموع، حتى راغ ضوع الطيب والسحر ينسل خلف قدها الرشيق بفيض الألق، مضت لغاية حدود الشارع العام، حين إذ انزوت في سيارة فارهة بيضاء نوع مرسيدس، كانت تنتظرها خارج حدود السوق، كان يجلس خلف مقودها شاب وسيم تظهر على سحنة الرضا والغنى والأناقة، بثوب أبيض فضفاض ناصع، وهو يفترش كرسي القيادة، يروب وجهه نزق حمرة وتعفف، كأنه قد تأثر بلفحة الشمس الماجنة... ذلك ما بدى لي، كأنه كان بمثابة زوجها أو أخوها أو ما شاكل ذلك.

ما أقلقني ودعاني أن أتوه في أزقة الشك، كونه كان ينتظرها خارج حدود السوق داخل سيارته الفارهة دون أن يرافقها. بت أسأل نفسي وأجيبها وأحلل ما رأته عيني:..

- ترى؛ لِمَ لمْ يجاريها خلال فترة التبضع؟ لِمَ لمْ يحرسها من عيون الذئاب؟ لمَ لمْ يرافقها وسط زحمة السوق بـ ذات الشبق الذي كان ينتظرها داخل سيارته؟ هل هي صاحبته؟ أم خليلته؟ أم أخته أم....

.... لِمَ تركها وحيدة تخض المبازل وتزيح المطارح من واجهتها بعزم أنوثتها؟ هل كان يتوجس خيفة من مصادفة أحد معارفه وهو معها؟ كون السوق ملغم بفرق وطوائف مختلفة

مـن أطيـاف الشـعب العراقـي؟ هـل كـان يتجنـب أن تلتقطـه أجهـزة المجهـر للتجسـس والمراقبـة والخبـث وهـو متلـبس بمرافقتهـا؟.. هـل؟.. هـل؟ .... هـل كـان خائفـا مـن أن تلتقطـه ألسـنة الضـباع فـي خضـم تلـك الزحمـة التـي تعـج بـالأراهيط؟، هـل كـان خائفـا علـى سمعته من أن يشيع خبره بصحف السلوك بين الملأ؟....

.... لكنـي حـين نظـرت إليـه مـن وجهـة نظـر أخـرى؛ مـن بـاب الرأفـة، عذرتـه. أوعـزت تخلفـه عنهـا جـاء كـون الشـارع مـزدحم جـدا، لا توجـد مرائـب عجـلات قريبـة مـن موقـع الحـدث، حيـث أقـرب مـرأب يبعـد عـن السـوق سـيرا علـى الأقـدام قرابـة نصـف ساعة أو تزيد من الزمن.

والظـاهر كـان دخولهـا السـوق دون تخطـيط مسـبق، والنسـاء إذا مـا دخلـن سـوقا لـن يخـرجن منـه إلا بإنفـاق خـزائنهن مـن المـادة، لـذا تجـد أسـواق النسـاء عـامرة بالبضـائع المختلفـة، ويزيـد عـددها عـن أسـواق الرجـال فـي العـالم أجمـع، كمـا تزيـد أسـعار بضـاعة النساء عن أسعار بضاعة الرجال!!!.

إضـافة إلـى أن المـرأة منقوعـة بهوايـة التبضـع لحـد العظـم، فأنهـا لا تمـل ولا تكـل مـن الـدوران خلـف حاجتهـا، لا تعـر أهميـة للإرهـاق والتعـب البـدني أو النفسـي جـراء هـوس التبضـع... والمثـل يقـول أذا مـا وددت أن ترضـي زوجتـك قـل لهـا دعينـا نخرج للسوق نتبضع...

..... وربمـا ودهـا تختـار البضـاعة بنفسـها، وعلـى رواق، ومـن غيـر أن يفـرض رأيـه عليهـا. فـأذواق الرجـال تختلـف عـن أذواق

النساء في كل شيء، وخاصة فيما يخص البضاعة النسائية، لذا تركها على سجيتها كي لا يلام فيما بعد. كثيرات من اللاتي يمشين خلف أذواق أزواجهن ثم يخالفن آرائهن بإعادة عملية التبضع للحاجة مرة أخرى فتصبح الكلفة مضاعفة على الرجل.

في اللحظة التي ركبتْ مع صاحبها سيارته؛ تأجَجَتْ في داخلي انفعالاتي، بت أشعر بتأوهات غريبة، بت الوم حظي الذي لا يركن على حجر.. كأنه قد عصعص القدر في دروب المتاهة إلى الأبد.

في تلك اللحظة التي أنزوت بها؛ أجهشت على الفكرة الوليدة التي تخضبت بها تأملاتي، والتي أراقت مشاعري خلف خيال ظَلَّ يدور في أروقة المخ، بحيث مع انزوائها وغيابها بت انفث الآهات والحسرات خلف تلك العجلة الزاحفة بالتواءات الطرق. هجست بهسيس النار يطرق مخابئ الفؤاد، بان ذلك من دخانه الملفوظ كحسرات خلف طيفها الزاوي...

ركنت جسدي على جدار حائط أحد المحلات وتركت عينيَّ تنزف نظرها خلف تلك العجلة الفارهة، مضت تمخر العباب وتختزل طيات الطرق في غورها الأخير.

برحيلها طويتُ سجل شعوذتي الأنية وجنوني الرعوي، الذي أنتفض في لحظة غفلة عابرة. جعلتني لا أصدق شذوذ نفسي المراهقة والتي تخلت عن رزانتها وأخلاقيتها بلحظة، بحيث

تركـت أصـل البـراءة الكتومـة فـي أعمـاقي جانبـا، وتلـك الناهـدة في تعابير وجهي بتلك اللحظة المغلة.

لـم أكـن أتوقـع أن تكـون فـي أعمـاقي طفولـة ومراهقـة ملثمـة بـذاك الإغـواء والانـدفاع والشـده، وأن تبـرأ بالشـبق واللهفـة الماجنـة. فـي واقـع نفسـي شـكرت تلـك المحجبـة التـي أثـارت حفيظـة الطفولة في داخلي وجعلتني أشعر بمراهقتي من جديد..

جميـل أن يكـون الشـخص مراهقـا بلحظـات جنـون عـابرة، لحظـات حفـزت ذاكرتـي، سـجلت انفعـالات حضـور بـارزة، وبالـذات فـي تلـك الأوقـات الحرجـة مـن سلوكي.. حيـث كانـت قـد حضـرت دون تخطـيط بألـذ الخطـوب وأشـهى المـذاق، بزغـت كشـعلة ود أنـارت أروقتـي المظلمـة، تلـك التـي لـم أكـن أدرك معالمهـا قـط، لـم أكـن مكتشـفا مخزونـي الـداخلي وطـاقتي الكامنـة مـن فسـيولوجية الحـب التـي أمتلكهـا قـط. لـذا بقـي تأثيرهـا يـدور في فلكي، بحيث صرت أمني النفس أن اراها مرة أخرى.

قبل أن تبدأ الحصة

قبل بدء الحصة، كنا مجموعة من التلاميذ ننتظر بشوق طلة الأستاذة ميشيل، لما عهدناه فيها من بشاشة وجمال طلة وتميز في الحضور. كانت دائمًا تبدو كزنبقة الصباح، مشرقة، مرحة، تنثر حولها طاقة طفولية محببة.

لكن في ذلك اليوم، دخلت الصف بوجه مكفهر، عبوس، وكأنها تحمل همًا ثقيلًا. وضعت حقيبتها بانزعاج، وأشارت إلى كلمة كانت مكتوبة على السبورة منذ يومين، خلال حصة الأستاذ ماثيوس. الكلمة كانت بالألمانية، ومعناها بالعربية مكتوب بقلم لا يُمحى إلا بالكحول.

كنا قد نسينا من كتبها، خاصة أن من كتبها لم يكن حاضرًا، ولم نكن نعرف بعضنا جيدًا بعد، كوننا جدد في صف تعلم اللغة الألمانية. لكننا تذكرنا لاحقًا أن الأستاذ ماثيوس هو من طلب كتابتها.

الأستاذة ميشيل لم تكن حاضرة حينها، لكن بدا وكأنها تحمل غضبًا غير مبرر، وتصر على معرفة من كتب الكلمة. كان أسلوبها في ذلك اليوم مختلفًا تمامًا، حادًا، خاليًا من اللباقة التي عهدناها فيها. حاولت فرض سلطتها بطريقة غير موفقة، مما أفسد جو الصف وأثار استياء الجميع.

حين شرحت لها أن الأستاذ ماثيوس هو من طلب كتابة الكلمة، لم تتقبل التوضيح، بل قاطعتني بانفعال قائلة: "لا أريد تبريرًا، ولا أسمح لأحد بالكلام أثناء وجودي."

شعرت بالإهانة، ورددت عليها بانفعال، مما زاد التوتر في الصف. تدخل أحد الزملاء محاولًا تهدئة الموقف، لكن تدخله جاء في لحظة حرجة، فزاد من احتدام النقاش.

في النهاية، خرجت الأستاذة من الصف وهي منزعجة، ورفعت الأمر إلى إدارة القسم، التي طلبت منا مغادرة الصف والعودة في اليوم التالي.

كانت الأزمة بسيطة، وكان يمكن تجاوزها بابتسامة أو توضيح هادئ، لكن سوء إدارة الموقف أدى إلى تصعيد غير مبرر. ما حدث كان درسًا في أهمية الحوار، والاحترام، والتعامل بحكمة مع المواقف الحساسة.

بعض المواقف لا تتطلب الغضب والعناد لأنها تافهة وعادية جدا، فتنعكس على من يثيرها.

مباراة العراق و إيران

اكثر المباريات تشويقا وإثارة للأعصاب هي لعبة الفريق العراقي وإيراني على الإطلاق، لما تحمل في طياتها من نكهة فنية وطابع سياسي ووطني بين الطرفين، بحيث الشعب بأكمله يتابع تفاصيلها بنسائه ورجاله ومن صغيره لكبيره.

كانت قد أقيمت مباراة بين الفريقين ضمن التصفيات المشتركة لكأس أمم آسيا وكأس العالم في عمان عاصمة الأردن بدلا عن بغداد، بسبب تفجير إرهابي سابق وقع في بغداد قبيل المباراة بشهر، وقد أستفاد الفريق الإيراني من قرار الاتحاد الاسيوي الظالم بعدم اللعب أمام الجمهور العراقي. شاء القدر أن يفوز الفريق العراقي على الفريق الإيراني في تلك المباراة بنتيجة هدفين لهدف، وقد سجل أهداف العراق كل من مهند علي (ميمي) وعلاء عباس (الاباجي(

المباراة أقيمت في نهاية سنة 2019 ، وقد علق عليها عددا من المعلقين العرب والعراقيين وبضمنهم المعلق القطري خالد الحربي للأبداع الذي أظهره في تعليقه.

وبسبب جائحة كرونا التي تفشتْ على حين غفلة في الصين ثم انتشرت في العالم؛ تم إيقاف دوري المجموعات لفترة طويلة إلى أن وضف الاتحاد الاسيوي دورة تجميعية لتصفيات كاس العالم والامم الاسيوية لمجموعتنا في مملكة البحرين، وفي بداية شهر حزيران من عام 2021، وذلك لمعرفة الفرق المتأهلة لخوض التصفيات النهائية للبطولتين.

كان ترتيب فرق مجموعتنا قبل خوض التصفيات الأخيرة كالتالي:....

العراق بالمركز الاول، تليه البحرين، ثم إيران ثم هونك كونك وأخيرا كمبوديا.

لذلك كان على الفريق الإيراني أن يحكم أمره في جميع المباريات المتبقية له بالفوز ليضمن فرصة صعوده، وكان قد فاز في ثلاثة منها قبل ان يواجه العراق، وهي المباراة الأكثر إثارة وصعوبة في نفس الوقت.

كما كان قد أصبح ترتيبه الثاني بـ 15 نقطة بعد الفريق العراقي الذي يملك 17 نقطة، أي في حالة فوز الفريق العراقي أو تعادله سوف يخرج الفريق الإيراني من الحسابات نهائيا، فلم يبقى أمامه من احتمال إلا الفوز.

وفـــي يـــوم الثلاثـــاء 15\6 \2021 بـــدأت مبـــاراة الـــذهاب وبـــنفس أصـــوات المعلقـــين الـــذين علقـــوا علـــى مبـــاراة الإيـــاب. وكانـــت أحدى المواقع قد بثت مباراة الإياب الذي فاز بها العراق

(2 – 1) مـع بـدأ مبـاراة الـذهاب المنقولـة حيـا مـن البحـرين، تشجيعا للفريق العراقي....

حينهـا أتصـلت بـي زوجتـي عبـر برنـامج الـواتس آب تـذكرني ببدء المباراة لمعرفتها بشغفي في مشاهدتها، فكتبت لها:....

أنـا أتابعهـا الآن وكنـت قـد تقصـدت بعـدم أخبـارك بهـا، لمعرفتـي مـدى تـأثرك وانفعالـك خـلال المبـاراة، لـذا خفـت عليـك أن تتعبـين نفسيا إذا ما أخفق فريقنا.

وبقينـا نتـابع المبـاراة كـلا مـن موقعـه، هـي تتابعهـا مـن البصـرة وأنا أتابعها من بغداد.

فـي الدقيقـة 35 تمكـن الفريـق الايرانـي مـن تسـجيل هدفـه بعـد أن وجـد خلـلا فـي جهـة المـدافع عـلاء مهـاوي، الـذي كـان تاركـا موضعه بتقدمه الغير مبرر، وهو دائما ما يقع بنفس الخطأ.

حينهـا أغلقـت الهـاتف وعـدت لغرفتـي حزينـا، كئيبـا، بسـبب تقصـير عـلاء مهـاوي وإهمالـه لموضـعه. إهمـالٍ بسـيط أودى بـالفريق الـى الخسـارة.. وبعـد نصـف سـاعة مـن اللعـب عـدت أكمـل المبـاراة مـرة أخـرى، ومـا أن فتحـت الهـاتف؛ حتـى نقلنـي إلـى موقـع بـث المبـاراة الأولـى، ولكـوني أعـرف تفاصـيلها، لـذا بحثت عن البث الحي للمباراة الثانية..

بصراحة؛ كان اللعب رتيبا من الجانب العراقي وكأنَّ لاعبي الفريق العراقي في سكرة من أمرهم، بسبب ضعف اللياقة البدنية من جهة والرطوبة العالية في البحرين من جهة إضافة لتدني مستوى البعض منهم. ذلك ما أثر على جهد الفريق كمجموعة، بعكس المباراة الأولى التي كان فيها الفريق العراقي هو الأفضل وهو المتسيد أشواط المباراة. هكذا انتهت المباراة بفوز الفريق الإيراني بهف سردار اليتيم.

بعد المباراة قلت في نفسي دعني أتصل بزوجتي لأرى فيض مشاعرها بعد الخسارة، وما أن بعثت لها برسالة عن الواتس أب طالبا منها أن تتصل بي؛ حتى رن هاتفي عبر برنامج التواصل الاجتماعي الواتس اب، لأرى وجهها وهي تبتسم والدموع تترقرق في محجر عينيها من الفرح، كانت تشهق وهي تحاول أن تعبر عن مشاعرها، ماسحة دموعها بأتراف كفيها، فقلت لها محاولا تهدئتها؛...

لمَ هذه الدموع، الفريق لا يستحق هذا التأثر عليه، لم يكن لعبهم بالشكل المثالي، لذلك خسرنا، ومع ذلك صعدنا لخوض تصفيات كأس العالم وأمم آسيا..

لا لا لم نخسر... نحن اللذين فزنا، سجلنا عليهم هدفين....

صرت أبتسم بوجهها وأضحك قائلا لها:.....

إذا هذه دموع فرح وليس دموع حزن؟ هههههه، ما بك يا حبيبتي؛ الظاهر أنت شاهدت تسجيل المباراة الأولى القديمة والتي اصحاب المواقع يبثوها ليضحكوا عالناس..هههههههه..

اسكت الله يخليك لا تمزح معي..

لا والله ليس الوقت وقت مزاح، لقد خسر فريقنا بهدف، ومع ذلك نحن صعدنا لخوض تصفيات كأس العالم وأمم آسيا.

الله قلبت فرحي لحزن، هيا أذهب عني، دعني أبحث في الفيس عن الحقيقة، لقد نغصت فرحي...

هههههه، تمام، أذهبي وتأكدي بنفسك، مع السلامة...

تركتها وأنا مشفق عليها، وقلت الحمد لله أنها شاهدت المباراة القديمة ولم تشاهد الجديدة؛ وإلا في وحدتها لأصابها مكروه جراء انفعالها.

بعد ساعتين أتصلت بها وجدتها تبتسم بعد أن هدأت أعصابها، وقلت لها:...

كيف الان مشاعرك؟.... قالت:..

أسكت وخليها؛ وانا أشاهد المباراة أنقطع البث عن هاتفي، حينها صرت أبحث عن المباراة في مواقع آخرى، وإذا بي أسمع نفس المعلق واشاهد نفس الفريقين وبنفس الملابس التي يرتدونها، وبذلك تابعت المباراة ولا أعرف أنها مباراة قديمة ههههههههه.

ما حز في نفسي، لم يكونوا لاعبي الفريق العراقي بذات الحرص الذي تأجج في حس المواطن، لذاك كان الهدف باهتا دون طعم، كان الإهمال والتقصير واضح من قبل مدافعي

الفريـق العراقــي بشــكل عــام، وبالــذات مــن قبــل عــلاء مهــاوي، ذلك ما حز النفس إلى الكآبة.

سجين التذكرة

حــين يُحنَــى الظهــر بفعــل الــزمن لا تعبًــا فحســب، بــل استســلامًا لانحنــاءات الحيــاة، تــنكمش روح الإنســان كمــا يــنكمش الظــل مــع هــروب الضــوء. هكــذا بــدا حميــد الفرادنــة ظلــه فــي عــين معارفــه وهــو شــيخًا تعــدّى الســبعين مــن العمــر لائــذا فــي الطرقــات، تســاقط منــه ألــق الفتنـــة، تبخّـــرت بقايـــا الكرامـــة فـــي فصـــول الشـــتات المتعاقبــة. لــم يبــقَ لــه مــن الــدهر إلا بضــع تجاعيــد تُشــبه خــرائط العناء والهزيمة المتكدرة في الحياة.

كــان قــد لســعه جمــر الفقــر الــذي يشــتعل تحــت جلــده، ليــذكّره كــل صــباح مســاء؛ فالحيــاة لا تهــب دفئهــا لمــن لــم يؤازرهــا ببيــتٍ يســتره أو أســرة تحتضــنه أو يــدٍ تواســيه وتــنعم ظرفــه. بقــي قــابع فــي زاويــة الوحــدة فريــدا، كعــابرٍ ســبيل فــي هــذه الحيــاة فــي قصــة لــم تُكتــب لــه، وهــو يتجــوّل فــي أزقــة وشــوارع الموصــل بــات كطيــف

فـي ذاكـرة معارفـه، لا أحـد يعيـره اهتمامـا، ولا صـدى صـوت لـه إلا أنين جزع يتعبه، لا يسمعه أحد.

فـي لحظـة مـا تصـالح مـع الهـوان، اختـار أن يلجـأ إلـى آخـر خـيط يربطـه بالماضـي، عسـى أن يعينـه علـى جلـد الـزمن، إلـى رفيـق العمـر ماجـد القـاطن فـي بغـداد، والـذي عصـفت بـه الظـروف يومًـا كمـا عصـفت بحميـد، لكنـه تجـرأ وتغلـب عليهـا حتـى تجـاوز سـخطها، صـار تـاجرًا مرموقـا فـي شـورجة بغـداد. فكـر أن يلتجـأ لصـديقه، يحـاول إشـعال شـمعة فـي عاصـفة الماضـي، ود أن يتكئ ولو مرة على ذكرى آزرته يوما ما.

لكـن حتـى الرحيـل لابـد لـه مـن ثمـن، حيـث حميـد لا يملـك فلسًـا أحمـرا فـي جيبـه، لكنـه أقبـل علـى محطـة قطـار الموصـل كمـن يُسـلّم نفسـه للقـدر وعسـى أن يشـمله بعطفـه، تمنـى ألا يرفضـه القطار كما رفضته الدنيا.....

عنـد بـاب العربـة أوقفـه الجـابي بسـؤاله البـارد الـذي كـان كحـد السـيف علـى قلبـه. طالبـه بتـذكرة السـفر.. لكـن حميـد لـم يشـتري تـذكرة، بصـوته المبحـوح المشـظى بـين الرجـاء والانكسـار، قـال له: ــ --

- لا أملك مالًا.

عنـدها أعـرض الجـابي عنـه، علمتـه التجـارب أن لا يلـين مـع هـؤلاء المتكلـين، أغلـق البـاب علـى حلمـه، لـم ينحنـي لانكسـاره تجنبا للعقد....

وبينما كان ينكفأ في عتبة المذلة دون أن يجد حلا لعقدته، سمع حديثه مع الجابي شرطيان كانا يقتادان سجينًا لبغداد. لم يلتقطا الصوت فقط، بل شعرا بحجم الانكسار والعناء في عين الرجل. وبعد همسٍ وتشاور، عرضا عليه فكرة:...

- يا عم، ما رأيك نصحبك معنا كسجين، نقيدك بالأصفاد، لكنك ستصل بغداد.

ضحك حميد لأول مرة منذ أعوام، لم تكن ضحكة فرح، بل انتصار صغير على الجابي والأبوابٍ التي أوصدتها عليه الأقدار، أنها فكرة مجنونة.

- أنها فكرة ذكية شكرا لكما.

وهكذا وضعوا القيد في معصمه، صار سجينا رغمًا عنه، أجلسوه إلى جانب السجين الحقيقي وشرطيين يخفيان في داخلهما ابتسامة العبث. كان المشهد سرياليًا، كأن الحياة تختبر خيال الرواية.

خلال الطريق سأل السجين الحقيقي حميد الفرادنة:.....

- يا صديقي قل لي ما تهمتك؟ هههههههه.

- أنت أدرى مني بالتهمة، لا أملك تذكرة سفر. ههههههههه.

- والله يا عم هذه الأصفاد لن تحزم معصم يد إلا وهو في حياته قد أرتكب جرم ما، قلي بصدق؛ ماذا فعلت في حياتك؟ سرقت؟ أم زنيت؟ أم قتلت بريئا؟..

- تراك صاحب خبرة يا صديقي، عنوة تود أن تضع حبل المشنقة برقبتي. هههههه... قلي ماذا عنك أنت؟ لم هذه الأصفاد في يديك؟

- قتلت زوجتي في بغداد، بعد أن مسكتها تزني. هربت للموصل وتم القبض عليَّ.

- انصحك لا تعترف، ابقى صامتا قدر الإمكان.

- وهو كذلك.

وبين المزاح والغفلة مع صاحبه، كان قد سقط مفتاح الأصفاد من يد الشرطي من نافذة القطار وهو يجري بسرعته. سقط دون قصد، ككل القرارات التي غيرت حياة حميد الفرادنة. وهكذا، لم يبق أمامهم سوى أن يفكان صفده عند الحداد. المشكلة التي حصلت لا تخص السجين الحقيقي أنما تخص حميد الفرادنه المصفد ساعديه. حيث لا يستطيعان فك اصفاد اغلاله في داخل مراكز الشرطة، لأنه فيها مسؤولية تقع على عاتق الشرطيين، قد تنزل بهما العقوبة وقد تصل إلى أن يطردا من العمل أو يسجنا على فعلتهما النكراء والغير مسؤولة.

وعندما وصلوا بغداد احتاروا في فك صفده، استأجروا عجلة أجرة يقودها سائق خبيرٌ في المدينة بشغف المؤمن. أرشدهم إلى حدادٍ في منطقة العلاوي قرب المحطة العالمية للسكك، كأنّه كان ينتظر هذا اللقاء منذ سنين ليكتب فصلاً جديدًا في حياة حميد.

مع محاولة الحداد فك القيد، اوقفه وشم على كف حميد، أضاء في ذاكرته شرارة لم تخمد، فسأل الحداد حميد: –

- من أين أنت؟

- من الموصل.

- من أي عمام؟

- من عرب الفرادنة.

- ما اسمك الثلاثي؟ –

- حميد جبار علي الفرادنة.

وهنا، انتفض الحداد من مكانه، وتسارعت نبضات قلبه. قال له وهو يحنق عليه: ...

- أنت قاتل أبي. قتلتَه وسرقت أمواله، وهربت منذ ٣٥ عامًا. عرفتك من الوشم... وها أنت الآن جلبك الحق إليَّ.

حاولا الشرطيان إقناعه بفك القيد، لكنه أصر أن يُسلّمه للعدالة. على ضوء ذلك أعيد حميد إلى الموصل، وهناك تم تأكيد

القضـية. اعتـرف، وواجـه حكـم الإعـدام الـذي صـدر عليـه غيابيًـا منـذ ثلاثـة عقـود ونيـف. هكـذا، تمخضـت الأحـداث، وانتصـرت العدالـة بصـبرها، ونُفذ فيـه قـول الحـق: "وبُشّـر القاتـل بالقتـل ولـو بعد حين".صدق الله العظيم.

المارجيوانا

في كييـف، حيـث الـثلج يكسـو الأرصـفة كوشـاح أبـيض، عشـت أيامًـا لا تُنسـى مـع عائلـة أوكرانيـة، مـدفوعًا بعاطفـةٍ جموحـة نحـو ابنـــتهم الجميلـــة "بيكـــي". كنـــت قـــد زرعـــت نبتـــة القنـــب " الماجيوانـا" فـي حـديقتهم، وادّعيـت أنهـا الزعتـر البـري السـوري، فصـاروا يعتنـون بهـا كمـا يعتنـون بـي، يسـقونها، ينقّـون جـذورها، غيـر مـدركين أن تلـك النبتـة تحمـل فـي طياتهـا نشـوةً لا تشـبه نكهـة الزعتر أبدا، لا يدركون هي من نوع المخدر تستخدم طبيا.

فـــي الحقيقـــة يســـتخدم لعلاجـــات طبيـــة نفســـية أو ترويحيـــة وترفيهيـــة، كمـــا يمكـــن اســـتخدام القنـــب بالتـــدخين أو التبخيـــر كالحشـــيش للمتعـــاطين أو وضـــعه داخـــل الطعـــام أو عصـــر أنزيماتـــه كمســـتخلص. للقنـــب تـــأثيرات عقليـــة وجســـدية ســـريعة،

مثـل الشـعور بالنشـوة والنسـيان، يـؤدي إلـى تغيـر الحالـة الذهنيـة مـن حـال لحـال مـع الإحسـاس بالوقـت، كمـا تـؤدي إلـى صـعوبة التركيــز وتحســين المــزاج لــدى المتعــاطين، كمــا تــؤدي إلــى احمــرار العينــين واســترخاء البــدن وزيــادة الشــهية والبهجــة والشـعور بالنعـاس. وهـذه التـأثيرات تصـبح ملموسـة ومحسوسـة فـي غضـون دقـائق بعد التدخين، وبعـد حـوالي سـاعة عنـد تناولهـا عـن طريـق الفـم. تسـتمر الآثـار الجانبيـة لمـدة سـاعتين إلـى سـت ساعات وحسب الجرعات المأخوذة.

فــي أحــد الأيــام، وبينمــا كنــت أتهيــأ للخــروج مــع صــديقي "أميــر" ورفيقتينــا الجــامعيتين، عــدت إلــى بيــت بيكــي لأخــذها، فوجــدت والــدها جالسًــا فــوق البلكونــة كطــائرٍ اللقلــق، غريــب الطبــاع، يرتـــدي شـــورتًا أزرق وفانيلـــة، يضـــحك ويغنـــي رغـــم البـــرد القارس.

سـألته إن كـان قـد شـرب الكحـول، فأشـار بـالنفي وهـو يضـحك ضحكةً هستيرية.

صار يضحك ويتغنى وهو يقول:

- شـعرت بالضـيق وبـالحرارة فـي الـداخل، هنـا الطبيعـة جميلة.

دخلـت البيـت، فوجـدت الأم فـي المطـبخ، شـبه عاريـة، تـرقص وتضـحك بجنـون، عنـدها صـاحبي سـحبها نحـو الفـراش كمـن يـود مشـاركتها رقصـةً مـن عـالمٍ آخـر. أمـا بيكـي، فكانـت مسـتلقية علـى الأريكـة دون هـدم، تشـاهد أفـلام كرتـون. قلـت فـي ذاتـي ربمـا قـد

أكثروا من شرب الويسكي والخمرة. قلت لها:...

- ما بكم يا بيكي؟ هل شربتم الجعة؟

- لا ولكن هل تعلم بأن هذا الفلم الكارتوني هو من اخراجي أنا......

- أنت متأكدة، هههههههههههههههههههه.

- هل عندك شك بقدراتي؟

- لا مجرد أريد أن افهم؟

- اذهب للمطبخ تغدى وتعال نم إلى جانبي.

في المطبخ وجدت دجاجًا شهيًا وسلطةً غريبة، أوراقها ليست إلا من نبتة القنب التي زرعتها. عندها سألت بيكي:...

- هل حشتم اوراق الزعتر البري؟

- أجابت ضاحكة: "لم نجد زعترا في البيت، فحشنا من نبتتك المباركة!"

خرجت أبحث عن جدتها، فوجدتها تركب دراجةً صدئة، تجوب بها الشوارع كفتاةٍ مراهقة، تضحك وتغني وتدعوني للركوب خلفها.

عـدت إلـى البيـت، ضـاحكًا، تغـديت واحتضـنت بيكـي، بينمـا والـدها لا يـزال يحرسـنا مـن فـوق السـطح، كـديكٍ منتشـي بنشـوةٍ لا يعرف لها سببًا.

مفتاح الظهيرة

فـي ذلـك المقهـى العتيـق بسـاحة المدينـة، حيـث الحجـارة تشـهد علـى قـرونٍ مـن أسـرار العـابرين عليهـا، جلـس عمـر وحسـن يناقشـان فـرص الغـد فـي شـراكتهما. بينمـا همـا مشـغولان فـي أمـور فكريـة؛ كانـت القهـوة قـد فقـدت حرارتهـا، كمـا لـو أنهـا استسلمت لصمتٍ دار بينهما أثقل من الكلام.

عيـون حسـن زحفـت خلـف حركـة النـاس بـلا هـدف، بينمـا عيـون عمـر تبعـت عيـون حسـن دون أن تفقـه غايتهـا، هجـس بـأنَّ خلـف

النظرات الخافتة تكمن عاصفة، غامضة ومؤجلة. أما حسن، فكان يتأمله بصمتٍ محتقن أن يتجاوز صمته، عندها شعر عمر بأنَّ صديقه لم يعد كما كان، كأنه قد تغير فيه شيء جوهري دون أن يعلم، لكن لا يعرف كيف يبادر بسؤاله كي لا يخسره.

عندها قطع حسن السكون بنبرة لا تخلو من غموض قائلا:.....

- تظن أننا نعيش بالصِدف؟

أجاب عمر بهدوء مرتبك:....

- ربما أحيانًا الصدفة تكون معبرا لجهة الأمان، وقد تحضر لتغيّر مجرى الحياة.

هنا، ابتسم حسن ابتسامة لا تُفصح عن شيء، ولكن أخرج مفتاحًا صغيرًا من جيبه، مفتاحا صدئًا وضعه أمام عمر على الطاولة. قال بصوتٍ بالكاد يُسمع:....

- الصدفة؟ يمكن... ويمكن في أمور انكتبت منذ زمن بعيد وأغلقت أبوابها، واليوم جاء وقت فتحها.

عندها شهق عمر بصمت، شعر بغصّة في حلقه وبدأ يشك إن ما يعرفه عن حسن ليس سوى سطح لا يكشف ما تحته، كأنّ ذلك المفتاح لا يفتح بابًا، بل ماضيًا كان يظنه قد أغلق إلى الأبد، وأن ما يعرفه حسن عنه أكثر مما يعرفه عن حسن.

صياد النساء

في عام 2010، بدأت حكايتهم مع دخولهم إلى الحرم الجامعي في باكو عاصمة أذربيجان كتلاميذ مرحلة جديدة. أربعة شباب عرب اجتمعوا من بلدان مختلفة؛ حسن من العراق، تركي من السعودية، أحمد من سوريا، ويوسف من لبنان. سرعان ما توطدت العلاقة بينهم، فوجدوا في صداقتهم متنفسًا من الغربة وعونًا في الدراسة والحياة اليومية، خصوصًا أنهم كانوا يدرسون ذات التخصص إلا وهو الاقتصاد.

سكنوا في شقق مريحة وسط المدينة إلا حسن، كان قد اتخذ مسارًا مختلفًا عن زملائه؛ اختار الإقامة في الأقسام الداخلية داخل الحرم الجامعي بسبب ظروفه المادية. في سكنه قرب الجامعة وفر مصاريف الذهاب والإياب وأكل المطاعم إضافة لسلاسة الوصول لكليته. القسم الداخلي كان مقسمًا إلى منطقتين؛ سكن الطلاب يليه بعد نحو مئتي متر سكن الطالبات، وبين المبنيين كانت تقع المطاعم والحدائق المشتركة. كان وصول الطالبات لسكنهن يتطلب أن يمروا بسكن الطلاب في مدخل الجامعة.

في أوقات فراغه، سواء كان بمفرده أو برفقة أصدقائه، اعتاد حسن زيارة سوق "البالة" للملابس المستعملة. ما لفت الانتباه هو تركيزه على اقتناء الملابس الداخلية النسائية، النظيفة والنوعية الجيدة. وعندما سأله زملاؤه عن سلوكه مستغربين اهتمامه بهذه النوعية من الملابس، أجابهم بكل بساطة قائلاً:...

- في ظل الأوضاع المتأزمة التي عصفت ببلدي جراء الحرب واختلال التوازن السياسي والاقتصادي، أصبحت هناك حاجة لكل شيء، الأزمة تُغرز أنياب الفقر في جسد الشعب العراقي المسكين دون رحمة.

في هذه الظروف، بدأ صديقه السوري أحمد يشك بسلوك رفيقه العراقي، إذ لم يجد تفسيرًا منطقيًا لتصرفاته الغريبة. ورغم تبريرات رفيقه، لم يقتنع أحمد بما يدعي، فقال له بصوت عالٍ:...

- يا رجل، أنت كذاب! هل النساء وحدهن تأثرن بالحرب؟ ألم يتأثر الرجال والأطفال؟ ثم لماذا تشتري فقط الملابس الداخلية النسائية؟ لمْ أرَك تشتري قطعة ملابس نسائية أو رجالية واحدة منذ أن عرفتك! لأكثر من ستة أشهر وأنت على هذا المنوال، لقد بتّ أشكّ في كونك إنسانًا سويًا. ولسوء الحظ، نتيجة معاشرتي الطويلة لك وجدتك طيبا، لكني سجلت هذه الملاحظة عنك. أخبرني، ما سرك؟

ردّ عليه الآخر بهدوء:.....

- ولمَ أُطلعك على سري؟ هل أنا أعرف أسرارك؟

أجابه أحمد باستياء:......

- أنا لا أملك أسرارًا، فأنا واضح وصريح.

- وأنا كذلك، ليست لدي أسرار... وكل إنسان حر في تصرفاته.

انتهى النقاش عند هذا الحد. افترقا دون أن يصل أحمد إلى مبتغاه. ظل اللغز عصيًّا على الفهم، رغم مراقبته الدقيقة لرفيقه، ولم يتمكن من فك الشيفرة المحيّرة التي تحكم تصرفاته.

بمرور الوقت، لاحظ زملاؤه سلوكيات غريبة، بل وصفوه بالأرعن. وأكثر ما أثار شكوكهم هو استغلاله فرص دخول المقبرة عند مساء الأحد والجمعة، حيث يجمع الزهور التي يضعها أقارب الموتى على القبور، ثم يبيعها عند تقاطعات

طـرق العجـلات أو فــي المواقـف العامــة المزدحمــة. بـثمن تلــك الزهـور، كـان يشـتري ملابـس النسـائية مـن البـالات - حمـالات صــدر، وكلسـونات، وحواضــن صــدر - دون أن يعــرف أحــد سبب هـذا السلوك الغريـب. واكتشـفوا أنـه يملـك قـدرة رهيبـة علـى الإقنــاع والتلاعــب، إذ تمكّــن مــن إرشــاء الشــرطة ومســؤولي الأقسام الداخلية وموظفي الجامعة والحرس الجامعي.

كــل ذلــك جعلهــم يصــفونه بأنــه ذا تركيبــة هجينــة لا تخضــع للمنطـق. بـات فـي نظـر الجميـع لغـزًا محيـرا، حيـث لا تفسـير لسـلوكه، ولا فهـم لمـا يفعلـه بكـل تلـك الملابـس النسـائية. وعلـى الـرغم مـن مراقبـة أحمـد لـه لوقـت طويـل، لـم يصـل إلـى أي نتيجـة واضـحة. بقـي الغمـوض يلـفّ تلـك الشخصـية، وبقيـت خفايـاه فـي طيّ الكتمان...

بينمــا كــان يوســف وتركــي يتشــاركان مــع أحمــد فكــرة التــدقيق والتمحـيص، متتبعـين الحـذر فـي سـلوك حسـن بصـمتٍ وتمعّـن، كــلٌ مــن جانبــه صــار يتتبــع لغــزه، مســتعينًا بمهارتــه الخاصــة، بهـدف كشـف مستور حسـن الـذي بـات شـغلهم الشـاغل. فقد سـمي من قبل الجميع بالرجل الغامض الوطواط.

ولتشـدده وسـكوته؛ اتفقـوا فيمـا بيـنهم علـى التعـاون فـي كشـف سـره وفضحه على الملأ، إن استطاع أحدهم فك طلاسمه.

رغـم هـذا، كـان حسـن يملـك الفطـرة فـي الطرفـة والنكتـة، مـا أن يجلــس بيــنهم حتــى تشــتد الألفــة والضــحكة، فلــم يســتطيعوا الاسـتغناء عنــه لأنــه يشـغلهم بوجـوده وغيابــه، فقـرروا الاقتـراب

من حسن قدر المستطاع. حسن لم يكن غافلاً عن نواياهم، ظل متيقظًا كالقط. لكنه، في الوقت ذاته، كان بحاجة إلى صاحب يخفف من وطأة الغربة والوحدة. وكان قد اعتاد زيارتهم مرة إلى مرتين أسبوعيًا، يطبخ عندهم، ويغسل ملابسه، ويأنس بهم ويسهر معهم، دون أن يُفصح عن طبيعة سره.

كان يستغلهم ليأكل ويشرب دون أن ينفق، وإذا اضطر للمبيت، لن يتردد بذلك، ليحافظ على بعض الدولارات في جيبه. وهم، بصفتهم أصدقاء، لم يبخلوا عليه بالعطف، خاصة بعد أن رسم لهم صور مأساوية عن وضعه الاقتصادي المتدني، وأنه ينحدر من عائلة فقيرة، بل إن الملابس التي يشتريها كان يرسلها إلى ذويه في العراق.

في إحدى المرات، باغت أحمد السوري صديقه حسن بأسئلة أحرجته، قائلًا له:

- يا حسن، أنت فقير الحال، أحيانًا لا تجد في جيبك ما يكفي قيمة عشاءك، ومع ذلك تذهب يوميًا إلى سوق البالة وتشتري ملابس نسائية! دعني أسألك بصراحة، وأرجو أن تجيبني بصدق: من أزّمته الفقر، يحتاج إلى حاضنة أثداء وبكيني؟ أم إلى ملابس تستر بدنه الخارجي وتصون كرامته؟ ثم إنك مرتين في الأسبوع تغسل ملابسك عندنا، لأنك لا تملك غسالة. لمَ كل هذا الإسراف واللف والدوران؟ لماذا لا تشتري لنفسك غسالة بدل العناء والمذلة؟

رد حسن بنبرة جدية ممزوجة بغموض:...

- لو أخبرتك بالسر... هل تحفظه؟

- أكيد، وهل تظن بأخيك سوءًا؟

- أعلم خبثك، لكنك الأقرب إلى قلبي من بين الشلة...

ضحك أحمد وقال.....

- وأنا أعتز بك يا نذل، لأنك لا تثق بي!

- ولكن عليك أن تصمت، أن تخرس تمامًا، لا أريد أن أسمع منك لغطا ولا فرفشة ولا حرفًا واحدًا.

- والله سأصمت... وأخرس.

قال له ذلك وهو يبحث عن مخرج من هذا الجدل المتكرر مع أحمد، فأخذه إلى القسم الداخلي من الغرفة، وأشار إليه بالدخول إلى خزانة الملابس وترك الباب مفتوحًا قليلاً ليتمكن من مراقبة ما سيحدث أمامه. كانت غرفة حسن مميزة بتنظيمها، حيث عرض ملابس البالة على الجدران والنوافذ بطريقة محترفة، تنم عن حسٍ تجاري رفيع.

في قلب سكن جامعي تغلي فيه الأحلام أكثر من إبريق الشاي على نار هادئة، عاش حسن دور "العالم المجنون"... لكن بدل أن يخترع الذرة، توصل لفكرة عصت على رفاقه تفسيرها، جعلته يقبع في حوض جاذبية لا يمكن تقليده في جذب النساء، دون أن يخلع حذاءه، ولا حتى يرفع حاجبه. بينما كانوا أصدقاؤه- أحمد ويوسف وتركي- يتقلبون بين الديسكوهات

وزوايا الحوارات البائسة، يحاولون اصطياد فتاة أو يحضون بإعجاب عابر، فلا يحصدون سوى إحباطات تصلح لكتابة ديوان شعري عن الخيبة.

كان حسن يهجس بالنساء كصنف الأسماك**!** فلابد واحدة منهن تسقط في الشباك الخفي الذي نصبه لهن، وهنَّ يتبعنَّ الطُعم المرمى أمامهنَّ... فلم تمضي سوى دقائق معدودة حتى دخلت أحدى الفتيات الجميلات بفتنتها وطولها الرشيق الغرفة، بخفة اللص بخطوات هادئة، أغلق الباب والنافذة دون أن يلفت انتباهها، كان حسن يراهن على فضول الزائرات، عارضًا بضاعته بأسلوب ملفت، متقنًا فن التأثير. ما أن دخلت حتى سلّمت عليه برقة، فردّ التحية بلباقة... ثم بادرها الحديث بنبرة ودودة:.....

- أنا في الأصل ابن تاجر، تعلمت فن التجارة منذ الصغر. إذا أعجبتك أي قطعة من هذه الملابس، يمكنك أخذها مباشرة، أو بالتقسيط، أو حتى مجانًا إن كان ذلك يؤثر على جيبك.

نظرت إليه بدهشة قائلة:....

- أكيد؟

ابتسم حسن:....

- طبعًا، الأمر بسيط.

انتقت حاضنة ثدي وبكيني وبنطلون جنس. حينها تقرب منها وصار يتلمس جسدها ثم بدأ يداعب الأماكن الحساسة، ثم احتضانها، ثم صار يقبلها ويخلع ملابسها وهي لا تفعل حيال سلوكه شيء، ثم بدأ يدعك جسده بجسدها ويتحسس ردة فعلها حتى ارتخت بين يديه وذابت في حجره كشمعة أفل ضوئها، طرحها على فرشته وصار يدعك بها حتى أفرغ طاقته وأحمد لم ينبس بشفة، كأنه يشاهد فلما سينمائيا. بعدها ارتدت ملابسها وأخذت حاجتها وخرجت دون أن تلتفت للخلف وكأنَّ شيئا لم يحصل.

أما أحمد المحبوس داخل الخزانة والذي كان قد شط هو الآخر وهو يرى جسدا من مرمر أمامه، استشاط دون أن يتنفس أو يتحرك عن مكانه قيد شعرة، لزم الصمت وفاءً بوعده لحسن، لكن عينيه صورت الحدث وأودعته دماغه. دهش وذهل من سلوك حسن، مستغربا مما رأت عينيه، عندها تفهم ذكاء حسن... فيما كان وزملائه يتبعونهن كالكلاب دون جدوى..

لم يكن حسن يعلم أن سرّه سيكون قصاصة تُتداول بين رفاقه. ما إن غادر أحمد الخزانة، حتى فرّط عقد السر بين يوسف وتركي. في اليوم التالي اختلفت الأمور، وكأنها انعطفت إلى مسرحية جماعية، إذ تحول الثلاثة من شققهم إلى القسم الداخلي، راحوا يتبعون ذات النهج الذي رسمه حسن لنفسه هههههههه.. لكن بأساليب أكثر تطورا وفتنة.. حيث تركي المدلل ذا ثراء فاحش، كان قد قلب المعادلة لصالحه، صار يشتري الملابس الجديدة الجاهزة والإكسسوارآت والاسوار

والأقـراط والمحــابس الذهبيــة بـدلا مـن ملابـس البــالات التــي كــان يجلبهــا حســن، بــذلك صــار يجــذب الفتيــات إليــه، مــا أشــعل فتيــل النفـور فــي قلـب حسـن. عنـدها انسـحب مـن المشـهد مسـتأجرًا شـقة خـــارج أســـوار الجامعـــة، يجـــرّ وراءه خيبـــة ســـرّ أفشـــي وعلاقـــة زمالة تصدعت.

بقيــت تلــك اللحظــة تــدور فــي فلــك الــذاكرة حــين تحطّمــت جــرة حســن، لتكــون فرصــة هــزر ومــرح وأنــا ســاخرة تثيــر فــيهم البهجــة، بــدا عصــر جديــد مشــوش بــالجرأة.. عنــدها ضــحك الجميـع، لا لأنهـم فهمـوا اللعبـة، بـل لأنهـم أصـبحوا نسـخًا طبـق الأصل من حسن في صيد النساء.

فصيل الاستطلاع

فــي أحــدى ليــالي العتمــة مــن آذار عــام 1983، كنــت والمخــابر ســالم نتبـع الهـدوء السـائد بحـديث عـن أنـواع التمـور فـي الزبيـر، حيـث دائمــا مــا يكرمنــا ســالم بتمــور مــن بســاتينهم. كــان الهــدوء كــان مخادعًــا، بــين فتــرة وأخــرى تنــذرنا قذيفــة أو إطــلاق رشــاش لا نعـرف مصـدره، كـان الظـلام يبتلـع كـل شـيء... حتـى الرجـاء لـم يعـد سـقفا نحتمـى بـه لسـواد الأفـق. غطّـت الغيـوم وجـه السـماء فأغشـت القمـر والنجـوم بخمـار داكـن. فـي تلـك العتمـة التـي لا يُبصـر فيـه المـرء صـاحبه عـن بعـد خمسـة أمتـار كانـت قـد تاهـت

دوريــــة اســـتطلاع للفــوج فـــي أرض الحـــرام. أرض صـــحراوية مسطحة مـع النظـر، بحيث لـو وضـعت بيضـة علـى بعـد كيلـومتر تشــاهدها بــأم عينــك لاســتوائها تمامــا. وأغــل مــا فيهــا الأَتَاوِهَــة المتشـعبة فـي الأرض وفـي الـنفس. حيـث لا عبـث بهـا سـوى تلـك السـواتر المشـيدة مـن قبـل الوحـدات العسـكرية لتحمـيهم مـن عبـث الشظايا وغل الرصاص العشوائي المطلق عليهم.

كانــت الســاعة تشــير إلــى الحاديــة عشــرة والنصــف حــين اتصــال بـي آمـر الفـوج الثـاني بلـواء 503 مشـاة يطلـب مـن إنقـاد الدوريـة مـن التيـه. فُقدت مسـارها فـي وسـط حقـول الألغـام فـي متاهـة مـن طرق بين حجابات الجيشين. حيث قال لي:....

- دوريــة الاســتطلاع تاهــت بــين حجاباتنــا وحجابــات العــدو، وأمامك مهمة إنقاذهم يا بطل عبر الناظور الليلي.

- حاضر سيدي دقائق فقط...

الدوريـــة، المؤلفـــة مـــن مـــلازم وعشـــرة جنـــود، دخلـــت أرض الحــرام للاســتطلاع، لكــنهم تــاهوا كمــن عصــبت عينــاه فــي دجنــة لا يُعـرف فيهـا اليمـين مـن اليسـار. كـأنَّ العشـو الليلـي سـلبهم القـدرة علــى الإدراك والتبصــر، بــاتوا يــدورون حــول أنفســهم فــي حلقــة مفرغــة مــن الخــوف والحيــرة دون أن يصــلحوا حــالهم، تقيــدهم هــواجس الخــوف مــن انفجــار لغــم يلحــق بهــم أو نــواظير العــدو تكشـفهم. حتـى جهـاز الحـك النجمـي(البوصـلة) عجـز عـن إنقـاذهم لقتامة الأجواء.

في المرصد، جلست أمام الجهاز الذي يعمل تحت الأشعة الحمراء السينية لرصد الأجسام ذات الانبعاث الحراري، الجهاز كبير الحجم يقارب قطر العدسة 25 سم وارتفاعه 50 سم. يعمل لكشف البشر والحيوانات والعجلات والدبابات المتحركة.. عندها رصدتُ تجمع الدورية كأشباح فقدوا توازنهم، جلسوا حول الضابط في حالة إنذار داخلي، ينتظرون خلاصًا يأتيهم من السماء.

لم تكن المهمة سهلة. حقول الألغام تحيط خندق الممشى الذي يسيرون فيه، العتمة أغلقت المنافذ عن البصر.. عندها تمكن الجندي سالم من الاتصال بهم عبر الجهاز اللاسلكي، عندها طلبت من الضابط اتباع الرشد لأنقذهم من المتاهة.

بدأت بإرشادهم، خطوة بخطوة:

- اتجه يمينًا عشرين متراً... هناك منعطف، خذ يسارًا... قف، تراجع، أنت تتخذ الاتجاه المعاكس تسير باتجاه العدو...

الكلمات كانت خيوطًا من نور تشق عتمة الليل. في البداية أتخذ الملازم قرارات عكسية، والجنود يتبعونه كأنه أعمى يقود مجموعة مكفوفين. كانت المسافة بين أوّلهم وآخرهم لا تتجاوز عشرون متراً، لكنها بدت كمئة عام من التوجس والحذر. كانت الدورية في وضع مزري عبثي، بحيث إذا ما أرشدهم يمينا يتجهون يسارا واذا ما وجهتهم للأمام يتراجعون للخلف، وأن طلبت منهم أن يتخذوا يدهم اليمنى دليلا لهم

يتشتتون في الاتجاهات الأربعة لأنهم لا اتجاه لهم في وقفتهم، وهكذا دواليك تعسرت الحالة عليهم، عندها طلبت من الضابط أن يصغي بإمعان.

- ارجع عشرة خطوات، خذ الجهة اليمنى، أمامك مدخل باتجاه حجاباتنا يوجد بجانبه شاخص خشبي، أدخل منه، الطريق ينحرف باتجاهين يمينا ويسارا، أنحرف لجهة اليسار، بجانبك اسلاك شائكة تابعة لحجاباتنا، سر بمحاذات الأسلاك عشرين متر، الآن أتجهه يمينا ستدخل لبوابة الحجابات، احسنت امضي في طريق انت باتجاه الصحيح.

كلماتُي كانت قناديلَ ضوء في ممرات العتمة. كنت أرشدهم كأنّي أمسك بأيديهم. ارتفعت ثقتهم، تلاشت العشو الليلي، واستعادوا رشدهم. وحين وصل الملازم إلى مدخل الحجابات، قال لي:...

- شكرًا لك يا طيب، وصلت.

- أصحابك خلفك، لم يدركوا الفتحة بعد..

وهكذا، نادى عليهم الملازم، واستدلوا على الطريق بصوته، وتتابعوا واحدًا تلو الآخر، حتى اكتمل العدد وعادوا سالمين. لم تكن لحظة عابرة، كانت ولادة جديدة لأرواح هؤلاء وقدر ومسؤولية لي، أعطتني ثقة بذاتي رغم حداثتي في الميدان.لم تكن مجرد مهمة، بل موقف إنساني استثنائي أظهر أن البطولة لا تحتاج إلى بندقية دائمًا، بل إلى قلب يقظ، وعقل صبور،

وروح لا ترتجف أمام العتمة، تلك الليلة صنعت مني رجلًا يعرف قيمة وجوده في المكان.

رصيف الانتظار

مرّت الحرب كقطارٍ أعمى يدهس كل ما يصادفه، لا يفرق بين حجرٍ وحلم، بين طفلٍ ونخلة، بين قلبٍ ينبض وعقل ينزف منذ الأزل. ولم نكن سوى حفنة من الحالمين نقف على دكة الأماني، ننتظر أن تقلّنا قاطرة الأيام إلى المستقبلِ المجهول أشبه بصورَ أحلامنا، تلك الصور التي صارت شاحبة بفعل التكرار والصمت.

كنـا هنـاك، نجلـس علـى الرصـيف الأجـرد، لا ظـلّ يظلنـا إلا ظـلّ أحلامنـا. نحـدّق فـي السـماء، لا نسـألها شـيئًا، بـل فقـط نُبقـي أعيننـا معلقـةً بهـا تترجـى يقينـا يغيـر واقعنـا. خبـرا يبسـط غـدنا. تمـرّ أمامنـا العجـلات العسـكرية وهـي تـدهس الوجـوه والآمـال دون أن تراعـي الشـعور، تاركـة لنـا المكـان سـاكناً إلا مـن صـدى أنفاسـنا المختنقة.

" همـس أحـدنا بـأن الاحـلام طويـت، دون أن نعلـم إن كـان يتحـدّث عـن مـا مضـى أو عـن مـا سـيأتي. كنـا نعـرف أن الدولـة تُحكـم قبضـتها علـى كـل منافـذ التحـرر، علـى الأبـواب والنوافـذ، وحتـى على الأناشيد.

ومـع كـل هـذا، كـان هنـاك طفـلٌ يرسـم علـى الجـدار قـاطرةً خضـراء، وامـرأةٌ تغنـي فـي الليـل بـلا موسـيقى، ورجـلٌ يكتـب علـى ورقٍ مسـروقٍ مـن أرشـيف القهـر. كنـا نحـاول، ربمـا لا لننتصـر، بـل فقـط لنُثبـت أنّ الحيـاة لازالـت نديـة، وأنّ الحلـم حتـى لـو دعـس، لا يمـوت أبـدا. عنـدها وجـدنا الرصـيف فيـه روح يطاوع البقاء، وإن القاطرة القادمة ستأتي لتقللنا لمآربنا.

عين الصقر

في حيٍّ صغيرٍ تحاصر جدرانه أحلام الأطفال كما تحاصر العيون نور القمر، كان سامر ينمو كشجرة صغيرة لا يعرف أحدٌ نوع ثمارها بعد، لكنه كان يرى نفسه من الأعلى، يرى الغد بعين الصقر لا بعين العابر.

لم يكن العيد مجرد مناسبة؛ كان طقسًا مقدسًا يتشح فيه بالدشداشة البيضاء التي تشبه صفحة المستقبل. تلك الليلة، ظل

يتقلب بين أمانيه، يرسم على جدران غرفته صورًا لأماكن لم يزرها، يبتسم كلما خطر له أنه في يومٍ ما، سيصبح اسمه لامعًا كنجمةٍ في سماء المعرفة.

كان يحب الصعود إلى سطح بيتهم في الليالي الصافية، يتأمل القمر كأنهما صديقان يتبادلان الأسرار. حدّق ذات ليلة طويلة وهمس:....

- سأصبح شيئًا يُذكر، سيتحدث القمر عني في غيابي، وستقرأ النجوم قصتي في نورها.

وخبأ تلك الكلمات في دفترٍ صغير بين كتبه المدرسية، لا يعرف أحدٌ أنه كان يرسم وجه فتاته هناك، يكتب اسمها بحذر كمن يبني قدره بحرفٍ حرف.

مرت الأعوام وسامر يكبر... تتغير المدينة، الناس، الأصوات، لكن عينه لم تتغير. لا زال يحمل نظرته الحادة، يحفر فيها طريقه رغم كلّ الشكوك التي تتلون. يقولون عنه "غريب"، لكنه كان يعرف أنه ليس غريبًا، بل متقد، لا يشبه الذين رضوا بالقليل من الحلم.

وذات يوم، التقى بها. فتاة بعينين تحملان الضوء ذاته الذي رآه ليلة العيد. لم تكن تشبه أحدًا؛ كانت تشبه الجواب الذي ظل يبحث عنه بسؤال تلون بالحيرة. عشقها كما يعشق الحالم حلمه قبل أن يتحقق، وتشاركا في بناء حلمهما بضحكة، بكتاب، بليلة على سطحٍ مُضاء.

لكن الحياة لا تهدي الورد بلا شوك... واجها العزلة، الفقد، ونوباتٍ من شك الذات، حتى أصبح الحب بينهما امتحانًا، لا يُنجح فيه سوى من آمن تمامًا أن القمر لا يخون البشر.

وفي النهاية، كتب سامر روايته التي بدأت بدشداشة العيد وانتهت بنورٍ لا يُطفأ. في آخر الصفحات، كتب:....

- كنت أحدق بالغد بعين الصقر، وها أنا الآن، أكتب عنه بعين القلب الذي لن يفتقد نبضه.

على ظهر الضوء

في تلك الليلة الطويلة، اختلط الكدر بجلودنا، كأنَّ البحر أراد أن يختم على أجسادنا توقيعه الأزلي. إحدى عشرة ساعة من المسير في البحر، كنا نتجول فيها بين أنصاف النوم وركلات المقاعد التي ضيّقت على أجسادنا الراحة وعلى أرواحنا التنفس، وبين نسمات بحرية تُرغم العيون على الاستيقاظ لحضور مشهد ساحر لا يتكرر فوق سطح الباخرة.

كانت الباخرة تمضي، والماء خلفها يرسم شريطاً من زبد البحر كضوء متجدد الطاقة، كما لو أن البحر نفسه يعيد رسم الحدود بين الواقع والحلم. وكانت السماء قد بدأت تبسط نجمها على الأفق. لم يكن الصمت سوى موسيقى خفيفة تعزفها أنفاس البحر، وعيوننا تتجول بين المجرات، نبحث عن حكايات الفلك في أفق متألق.

كل نجمة كانت وطنًا لنا، كل كوكبٍ كان صديقًا، وكل مجموعةٍ نجمية كانت أسطورة تنتظر أن تُروى. الزهرة استقبلتنا بابتسامتها، وعطارد كنقطة حمراء خجولة نائمة في الأفق، كما حيّانا من بعيد الدب القطبي الذي أضحى دليلنا لبيان الجهات الأربعة، وبنات نعش كأنهن يرقبن خطوتنا. سهيل أضاء الطريق، والجوزاء والعذراء والأسد والسرطان والثور كأنهم أدركوا وجودنا فاشتد البريق فيهم وهم يحرسون باخرتنا من العبث من أماكنهم.

في زاوية السطح، جلس "سالم" بجوار "هدى" يتأملان النجوم بصمت، ثم قال: سالم: ....

- هل تشعرين وكأننا نسبح فوق السماء لا البحر؟

- كأننا نُختبر. كل نجمة تتساءل في صمت: من هؤلاء التائهون على ظهر الضوء؟

- ربما نحن الحكاية التي سقطت من مجرّة ما، ونسيت أن تعود.

- أو ربمـا مجـرّد عـابري حلـم، يُقـاس نـورهم بمـا يشـتهيه الظلام من نجاة.

وفـي لحظـة مـا، شـعرتُ بأننـا لسـنا فـوق البحـر فقـط، بـل فـي أعمـاق أنفسـنا متجهـين إلـى تلـك المجـرة، فـي رحلـة تسـتنطق النجـوم، وتمـنح السـماء وجهـاً جديـداً كـل دقيقـة. كانـت البـاخرة علـى ضـخامتها، مجـرد نقطـة ضـوء تكشـف لنـا فضـل النجـوم علـى البشـر وهـي تجـري بـين تلـك النجـوم فـي وسـط شـارع طويـل وعريض يدعى درب التبانة.

طريق الجحيم

فـي مدينـة لا تنـام إلا علـى صـوت الطلقـات وتسـتيقظ علـى رائحـة الـدم والخيانـة، سـار "آدم" علـى الطريـق الـذي اختارتـه لـه الخطايـا القديمـة. كـلّ خطـوة كانـت تقرّبـه مـن حـدود الجحـيم، وكـلّ ذكـرى تحفـر فـي ذاكرتـه ندبـة وجـع لا تُشـفى. لكـن، فـي زقـاق منسـيّ بـين الرمـاد والخـراب كانـت تنتظـر اللحظـة هنـاك، عنـدما التقى بها "ليلى" وهي تتقد كشمعة في مهبّ القدر.

لم تكلمه، ما أن رآها اختفت من الواجهة بلحظة غفلة..

لم يكن الليل في تلك المدينة مظلمًا... بل كان يلمع ببقايا حريق أزلي لم ينطفئ منذ سنين. آدم يمشي بخطوات ثقيلة، عيونه عالقة في صور قديمة تتقافز على جدران الذاكرة. مد يده في جيبه، وجد فيه صورة ممزقة لطفلٍ يبتسم، وفي قلبه سؤال يحرقه:.....

- هل يمكن أن نعبر قنطرة الخلاص المشبعة بالدماء؟؟؟؟

عند المنعطف الأخير وقبل الولوج في نفق الجسر، ظهرت أمامه ليلى مرة أخرى. لم تكن كما تأملها، بل كانت أقسى من الريح، وأصدق من الدعاء. قالت له دون أن تبتسم:.....

- كلّنا سلكنا طريق الجحيم بطريقتنا... لكن القليل فقط من عادوا ليرووا القصّة لذويهم.

- ظننتُك وهما في طريقي.

- لا... أنا الحقيقة التي دائما ما تأتي متأخرة.

ثم استدارت واختفت كما ظهرت، تركته واقفًا أمام بوابة القرار الأخير وحده، والطريق ينأى بالغرابة والفجع.

جمراتٌ البرد

داخل خيمةٍ يتخللها خوار الشخير ويختلط فيها البرد بالرائحة، تحوّلت ساعات الليل إلى زنزانة من صدى يُعيد تشكيل الروح بنفورٍ مقيت. حاولت أن أتسلل إلى حلمٍ وديع، لكن أصوات الأنين وقرقرة الأنفاس لعدد يزيد عن عشرين شخصا كانت كطلقاتٍ تصيبني في مَقتلي. ضممتُ جسدي في محاولةٍ الهروب من المكان، لكن عناكب البرد كانت شرسة، باتت تنهش أطرافي وتلاحق دفئي بشكل لا يصدق. جسدي بدأ

يتحـوّل تـدريجّيا إلــى جمــرات خاملــة، تحتــرق بصــمت وتــئن ببطء، إلـى أن غلبنـي النعـاس عنـوةً... رأيـت ذاتـي تمشـي وسـط حقـولٍ مـن الجمـر، وكـل خطـوة تشـعل أخـرى، وكـل جمـرة تهمـس باسـمٍ فقدتـه لسـبب مـا. وعنـدما أفقـت، خـيّم الهـدوء بشـكلٍ غريـب، كـأن الليـل نفسـه قـد أُصـيب بالـذهول. لا أعلـم إن كـان الصـخب قـد انتهـى أو أننـي أصـبحت جـزءًا مـن المجـال كصـيرورة، لكننـي أدركـت شـيئًا واحـدًا... أن فـي كـل خيمـةٍ، هنـاك دائمًـا جمـراتٌ للبـرد، تحتـرق بصـمت ودون صـوت، وهـي تُصـغي بصـبرٍ لا يملّ.

وفـي نـومٍ مفـاجئ، عـدتُ إلـى الحلـم... إلـى الحقـول المتّقـدة، أمشـي فـوق الجمـرات، أسـمع مـن كـل جمـرٍ نـداءً باسـمٍ أعرفـه، أحببتـه، أو فقدتـه. الأحـلام تنقلـب إلــى محطـات ذاكـرة، والجمـر يصـير رسـالة شـجن مـن الماضـي، كـل خطـوة تلتهـب لتـوقظ فـي داخلـي لحظـةً عشـتها ورحلـت. الحقـول المتوهجـة باتـت دفتـرًا مفتوحًـا، أدوّن فيه خساراتي بلغة الصمت الحارقة.

ثـم عـدنا إلـى تلـك اللحظـة الموحشـة... أنـا والنـار وبعـضٌ مـن رفـاق الطريـق، نتحـدث بصـوتٍ يكـاد لا يُسـمع، نبحـث عـن قشّـاتٍ للنجـاة، عـن فكـرةٍ قـد تنقـذنا مـن عتمـة المجهـول. بعـض الكلمـات كانـت مـن نـور، وبعضـها مـن رمـاد، لكنهـا كلهـا حملـت معنـا طيفًـا من الأمل، من ثقةٍ نحاول أن نخدع بها صقيع البرد.

وفـي نهايـة كـل هـذا، حـين هـدأ الشـخير، وسـكنت الريـاح، بـدا أن الليل نفسـه قد دخـل فـي صـدمة. خـيّم صـمتٌ غريـب، كـأن الأشـياء تراقبنــا... أو كأننــا نحــن صــرنا حكايــة يُــروى عنهــا. لــم يعــد

الحريـق داخلنـا يحتـاج إلـى لهيـب، لقـد أصـبحنا نحـن الجمـرات، نحترق بصبرٍ، ونَنير بهدوءٍ، وننتظر ما بعد هذا الليل الطويل.

النار والصقيع

وقفـت معهـم أشـاركهم وأتسـلى بتلـك النـار البائسـة، وهـي تحـاول أن تزجـر البـرد بلطافتهـا، تتلـوّى أمامنـا فـي صـراعٍ واضـح مـع الرطوبـة والعجـز. مـا جمعنـاه مـن أعـواد الحطـب لـم يكـن كافيًـا، كانـت سـيقانها ضـعيفة ورطبـة، لكنهـا حاولـت أن تنصـف أحوالنـا بشـيء مـن المقبوليـة. تبادلنـا الأحاديـث الهامسـة حـول مصـيرنا، نحـاول أن نستسـقي الأفكـار مـن بعضـنا، ونغـزل شـيئًا مـن الأمـل فـي هـواءٍ لا يـرحم. لـم تكـن النـار مجـرد دفء، بـل تحولـت إلـى حـوارٍ داخلـي، رمـادٌ يـتكلم بلغـةٍ لا يسـمعها أحـد غيرنـا. تلـك النـار

الهزيلـة تشـبهنا تمامًـا، تقـاوم بصـمت، تشـتعل بشـيء مـن الأمـل، وتذوب أمام نوبات الخوف من المستقبل والصقيع.

صـــارت الـــريح تجلـــدنا بـــلا رحمـــة، فيمـــا النـــار تحـــاول ردّ الصـفعات بالصـفعات، كجـلادٍ يحمـي آخـر ذرات الـدفء. فـي تلـك اللحظـات، قفـزت إلـى ذهنـي لعبـة "الجـلاد والحرامـي" التـي كنـا نلعبهـا فـي دربونـة المحلـة. كنـا نحـيط الحرامـي فـي دائـرة، يحميـه جـلادٌ وهـو يحمـل بيـده حـبلًا بطـول متـرين ونحـن نحـاول النيـل مـن الحرامـي... واليـوم، النـار هـي الجـلاد، نحتمـي بهـا مـن طقـسٍ شـــرس، نحـــاول التســـلل إلـــى قلبهـــا دون أن تُلســـعنا أطرافهـــا. الطقـس يعاكسـنا ويهيننـا، وأنـا أهـرب إلـى دفئهـا كطفـلٍ يرجـو حضـن أمّـه، أتنقـل بـين وهـج النـار وسـخط الخيمـة، دون مـأوى يريحنـي. لـم تغـفُ عينـاي. حاولـت أن أتوسّـد الحقيبـة، فشـعرت بهـا كالصـخر تحـت رأسـي... لمـا فيهـا مـن حاجـات غلظـة تشـبه غلظـة الأيـام. وحـين رأفـت بنـا الشـمس، هجسـت بهـا كـأمٍ تعتـذر، تمسح بوهجها ما تراكم علينا من الشقاء.

غشاء القارب

في ليلة أظل بها القمر طريقه، جلس خالد على الحافة المطاطية للقارب، يطالع البحر وكأنما يطالعه الموت ذاته. بجانبه طفلاه نائمان في حضن زوجته، يراوغهما القلق في يقظة دائمة. لم يكن خالد مجنونًا، لكنه كان يائسًا... واليأس هو أعقل المجانين.

كان البحر واسعًا، أوسع من كل الحكايات التي سمعها وهو صغير، أعمق من صمت الرجال، وأشد قسوة من عيون الحراس. ورغم طمأنينة القارب في أول المشوار، سرعان ما

بـدأ الغشـاء يهمـس لـه بكلمـات مرعبـة، كمـا لـو أنـه لا يريـد أن يكون المنقذ هذه المرة، بل مجرد شاهد على العناء والغرق.

تـداخلت أصـوات الـريح المـوج مـع بكـاء طفلـة فـي طـرف القـارب، ليصــبح الليــل ســاحة صــراخ ومعركــة بــين النجــاة والمــوت المتـربص كلـص خلـف الهـواجس المتعبـة، وتحـت كـل هبّـة ريـح. شـعر خالـد بـأن البحـر قد فهم نوايـاهم، لـم يعـد خصـمًا طبيعيـاً، بـل كأنه اختبر مئات القوارب مثلهم، وأدرك أين ينفث سمه فيهم.

ومـع كـل موجـة، كانـت تتعـالى صـيحات الأمومـة، وتهتـز أعمـدة الصــبر. أحــد الركــاب، وقــد خانــه الخــوف، وقــف وهــو يصــرخ كــأن الشــيطان تمثــل فــي نبــرة صــوته. لكــن خالــد، الــذي حمــل أطفالـه فـي قلبـه قبـل يديـه، ظـل ممسـكًا بحبـل القـارب كمـن يمسـك بخيط أمل يوشك أن ينقطع.

ثم حـل ذلـك الصـمت الـذي يـأتي بعـد الصـراخ، والـذي يكـون أكثـر ضــجيجًا منــه. لا مــوج ولا حركــة، فقــط ظــلام البحــر وهمســات الشـك. عنـدها فهـم خالـد أن القـارب لـم يكـن عـدوهم، بـل كـان مـرآةً ضــعفهم، وانعكاسًــا لكــل رعونــة ومخــاوف خبأوهــا الــزمن فــي الداخل.

ولأول مــرة، لــم يُــرد أن ينجــو... بــل أن يفهــم. أن يفهــم لمــاذا خـذلهم القـارب، ولمـاذا بـدا المـوت ينحـدر الـيهم كصـوت مَـن تحبـه وهو يهمس لك وداعًا.

وفـي قلـب هـذا الصـراع، عـرف خالـد أن العبـور لـم يكـن عبـور بحـر فقـط، بـل عبـور مـن الهزيمـة إلـى الخـذلان، لكـن الرجـاء ضاع بين الخوف والإيمان، كان غشاء القارب هو الثمن.

رماد اللافندر

فـي زاويـة الكافتيريـا، كانـت تجلـس علـى كرسـي أبـيض كأنهـا نُصـبت بـوعي، كمنحوتـة جماليـة لا تخطئهـا العـين. بشـرتها، المملّحـة بالسـمرة والمشـعة بلـون الصـيف الصـحراوي، تخفـي خلفهـا سـلطانًا لا يُقـاوم. شـفتاها، المطليـة بحمـرة عنّابيـة كأنهـا مستخلصـة مـن دفء اللافنـدر، تتـوهّج كجـذوةٍ مشـظة فـي بسـاط وجهها الغني بالجاذبية.

يركب ملامح وجهها أنف شامخ، لطيف، كشراع يطفو برشاقة فوق أمواج الوجه، يضفي ظلاله على المعالم الأخرى بأناقة. عيناها تترصدان المشهد من زاوية واحةٍ زرقاء، يتساقط من حدقتيهما شواظٌ يلهب جليد أسيل الخدود، فتغشى وجنتيها بالخجل، فتزيد بهاءً وجموحا كوردة جلنارٍ تقدح تحت ضوء الشمس.

كلّ من يمرّ بها يشعر وكأن شيئًا خفيًّا يقمعه بالتيه، رافد من أعماق الظن والتأمل. كانوا متجمعين زبائن في ظاهرهم، لكنهم مرهفون من الداخل، مراهقون في غواياهم، تلتهب حدقاتهم بتلك النار ولا يملكون أمامها إلا أن يركنوا إلى صمتٍ خجول، وجنونٍ داخليٍّ مسكونٍ بالفتنة لا يستطيعون تجاوزه.

لكن أكثرهم صمتًا كان ذاك القلب الشاحب الذي جلس في أقرب طاولة. لم يكن يتأملها فقط، بل كان يعيش عشقها، كأنها فكرةٌ تسللت إلى وسادته وسهده وسمره، وباتت منجاةً لا يستطيع أن يتخلى عنها. في كل مرةٍ ينظر إليها، يشعر أن المساء ينزل من حدقتها، وأن الرمل يسكن رهافة صدرها ويقح الحنين في صوتها، وأن اللافندر ليس مجرد عطر، بل نبوءة تغشيه بالصمت.

اقترب منها أخيرًا، مترددًا كمن يخطو على أطراف حلم، قال بصوتٍ خافت:

- المساء يهبط من عينيكِ، كأنني أراه لأول مرة بهذا الجمال. ترى هل يتدفق من ضوء النجوم أم أنكِ تسكبين فيه الضوء؟

ابتسمت بخفة، كأنها ترد على سؤالٍ تعرفه مسبقًا:

- ربما أنا ظلٌّ عطرٍ قديم، وأن رماد اللافندرٍ بقي منه شيء لم يحترق.

تأملها بدهشة، ثم همس:

- رمادكِ أوقظ فيّ شيئًا كنت أظنه مات منذ زمن..

حين تكلم الصمت

تسلل ضوء الصباح من زجاج القاعة العليا، لا ليُضيء المكان فحسب، بل ليكشف وجوهًا شاحبة، مشدوهة، وكأنها تنتظر الحقيقة تُشنق على حبل الشك. كان الزمن قد تجمد في تلك القاعة الحجرية منذ أن استدعى سُهيل لها ليقاضى، لغل

مدسوس في أوراق القضية. حيث يقف سُهيل مخذولا في قفص الاتهام، لا كمن استسلم عن ضعف، بل عن قناعة بأن الصمت أحيانًا أبلغ من آلاف المرافعات. من حوله تدور في فلك الرعب كل من - عيون القاضي، والشهود، والمُدّعين، تتأرجح بين الأوراق وما يقبع خلف الأقنعة من هواجس وأفكار. بينما يسود همسٌ بين الحضور يتعمّد إسكات صوت الحقيقة. لم يكن وحيدًا، رغم أن صمته بدا صارخًا أكثر من أيّ احتجاج، كان برفقة يقين لابد في قلبه كنبضه.

كان يعرف أنه يواجه قضية كيدية محبوكة، حاكها خصومه بإتقان. لم يكن فيها إلا رائحة قبح وغيرة ليس إلا، وسهام الخوف من صوتٍ اعتاد قول الحق. كان يثق تمامًا ببراءته لكنه يفتقد الدليل. ما كان يقلقه حقًّا هو أن العدالة في نطقها تتلعثم بالحقائق، وكأنها تستجدي من يصونها باليقين بسبب الغل المبثوث في التقرير المعد ضد سهيل.

في الزاوية الخلفية من القاعة، كانت رُبى، الصحفية الشابة، تقبض على دفترها بإحكام، تدون الهمسات والنظرات والحوارات الدائرة. تابعت القضية منذ بدايتها. ومن خلال المشاهد التي حضرتها كانت متأكدة أن سُهيل يُحاكم لأنه صدح صوته عاليا حين صمت الآخرون. شعرت أن معركته ليست مع المحكمة ولا هي شخصية قط، بل مع مجتمعٍ متأزم يُكرم السكوت ويخشى الصدق.

تدور الكاميرا – كما لو كان فيلمًا- لتلتقط نظرة من الخصم، شخصٌ لا يُفصح عن الكثير، يكتفي بابتسامة صفراء كلما

التقت عيناه بعيني سُهيل. كانت رائحة القلق تتصاعد أكثر من عطر أيّ حاضر، والمشهد كله يبدو كمسرحية أُعدّت بعناية... فقط بانتظار من يسدل الستار.

ومع توالي الأيام، وبين جلسة وأخرى بدأت تتفتت عقدة القضية، بدأت الشكوك تتسلل إلى جسد التهمة وإلى من ظنوا أن القضية محسومة ولا مجال بالتمادي خلف أمل يخفق في الظلام. غير أن دفاع سُهيل كان يجري عكس اتجاه المشككين، قرأ المشهد من جوانب لم تطرق، تمكن من خلالها من أن يُضيء زوايا الحجج بالأدلة والشهادات التي رفضت الركوع.

استمرت المماطلة حتى اليوم الأخير، عندها كان القاضي قد وصل خط النهاية قبل أن يصل الجميع، قرا المشاهد بتمعن، مما أجبر على صيانة الجرة دون ضرر. وفي لحظة صمت أعلن براءة سهيل، كقنبلة فجرها بين واقع الحضور.... مع إعلان البراءة عمّ القاعة صمتا لم تعرفه من قبل، كأنَّ الجميع كان ينتظر لحظة غير التي فلتت عن لسان القاضي، لكنها جاءت بما لا تشتهي السفن، انها لحظة الحسم بعد أن أخذت القضية وقتا أطول من اللازم. في تلك اللحظة تنفس سهيل الصعداء، لكنه لم يبتسم لوقع المفاجأة، بل أغلق عينيه الدامعة شاكرا قلبه الحليم الذي لم يخنه.

في المساء، عادت رُبى إلى مكتبها، لتنشر واقع القضية في الجريدة الرسمية تحت عنوانًا عريضًا لمقالها وبخط النسخ: "حين تكلّم الصمت."

في الظلّ الغربة

البنيـان بـات يميـل نحـو الصـدع، هنـاك شـيء يتآكـل بهـدوء. كمـا هـو المـرض حـين يـنهش الجسـد مـن الـداخل. مـع الايـام تكـون الحتميـة أكيـدة، عنـدها لا ينفـع النـدم. لـم تكـن الهجـرة مجـرّد عبـور حـدود، بـل عبـورًا صـامتًا نحـو عـوالم لهـا ألـف وجـه ووجـه. هنـاك

حيث تعبس الوجوه المبتسمة خلف أقنعة المفاهيم الجديدة المطلية بصبغة الحرية والمساواة الكذابة.

شعرت "ليلى" بأن شيئًا ما يتسلل إلى داخلها كلسعة الألم، وشيء من الجنون يهز بدنها، يتسلل لدفء بيتها من مثالب لا تراها بالعين ولكن تتحسسها من المحيط.. شيء من الغموض، لا يُسمع ولا يقرأ، لكنه يكون حاضرا في الكلمات العابرة وفي السلوك والتصرف والعبث يشاكسها، تراه في صور العري والبوسترات وفي الأوراق التي تعلّق في الشوارع والملصقة على جدران المدارس، وفي نصائح الصليب الاحمر والمربّية بلطفٍ مريب.

كانت "ليلى" تراقب زوجها "سليم" وهو يحاول أن يُبقي أركان الأسرة سليمة، قائمة، وسط زوابع غير مرئية تحيط بهم، لكنها تأثرت بالريح المارقة. مع أنها كانت تقرأ المشاهد من على بعد؛ لكنها مع مرور الوقت تغير شيء من حديثها مع سليم بات الحوار متشنجًا، خانقا، يدور بين "الحق والواجب" من وجهة نظرها، بين "أنا ونحن". صيغة جديدة لم تكن تعرفها قبل الهجرة، ولم تكن تعرف من أين جاء ذلك الخلل. لكنها كانت تشعر أن أشياء كثيرة تغيرت فيها واشياء تُزرع في طرق الحياة دون أن تُستأذن سيكون لها تأثير في المستقبل.

في لقاءات الجيران، في مواعيد الرعاية، كان الصوت واحدًا، محفزا لها، "كوني قوية، لا تسمحي لزوجك أن يمسّ كرامتك واستقلالك أنت سيدة نفسك والقرار، أنت حرة.... لكن ليلى لم تكن ضعيفة، كانت فقط تؤمن أن التماسك لا يناقض الحرية،

وأن المساواة كذبة أختلقها أصحاب النظريات العقيمة لا تستدعي الصدام.

وبينما كان سليم يسهر على دروس الأبناء، ويسرد لهم قصص الجدّ في أرض الوطن، كان في داخله يكمن خوفا ملغوما لا يستطيع البوح به، جنون لا يستطيع البوح به، وغصة تكبر مع الايام، كيف ممكن أن يُربّى الجيل القادم على الحذر من الوالدين بدل من غرس الثقة المفروضة، يبنى على التفكك الاسري باسم التنوير بدلا من الحفاظ على عماد الاسرة. عندها علم:...

أن الغربة لا تُضعف الجذور فحسب... إنما تذم من تمسّك بالقيم والمبادئ وتمدح من تخلى عنها. عندها قرر العودة للوطن للحفاظ على الأسرة والقيم والدين وخاصة بناته ورود باتت تزهر.

ظلّ النغمة الضائعة

في مدينةٍ لا تُسمع فيها الأصوات، كانت الجدران صامتة، والقلوب أكثر صمتًا. وُلد ناي، طفلٌ لا يعرف كيف يتكلم، لكن قلبه ينبض بنغمة لا يسمعها أحدا سواه .

في أحد الأيام، وجد مرآةً قديمة في علّية منزله، لكنها لا تعكس صورته، بل تعكس أصداءً من زمنٍ غابر. سمع فيها صوتًا يتردد إلى ذهنه يقول: ....

- النغمة التي تبحث عنها ليست لك وحدك، بل هي صدى حلمٍ حزين نسيه العالم.

قرر ناي أن يتبع ترددات الصوت، سافر عبر صحراء الصمت، حيث لا يُسمع إلا خفقان قلبه. هناك، تعلّم أن كل صمت يحمل موسيقى خفية، وأن الريح تعزف على الرمال والجبال والشجر لحنًا لا يُكتب.

وفي النهاية، وقف على قمة جبلٍ من الذكريات، وعزف النغمة التي كانت تسكنه. فاهتزت المدينة، وعادت الأصوات إلى عالمها، وعُرف ناي بأنه لم يكن سوى ظلّ النغمة الضائعة التي أعادت الحياة إلى طبيعتها.

شمعة لا تنطفئ

في قريةٍ لا تُشرق فيها الشمس، وُلدت وهج، فتاةٌ تحمل في يدها شمعة لا تنطفئ. خاف منها الناس، وقالوا إنها مجنونة

وأنها لعنة وأنها من الجن...الخ من تشبيهات جعلوها تختفي خلف ظل نفسها، لكن وهج كانت تعرف أن النور لا يخيف إلا من اعتاد الظلام.

كلما اقتربت من شخصٍ حزين، خفّ ضوء الشمعة، وكأنها تمتص حزنه وتخفف أرقه. بدأت رحلتها، تضيء قلوبًا الناس المنسية، وتهمس لهم:....

- النور لا يكتسب، بل يورث.

ومع كل قلبٍ يُشفى، كانت الشمعة تضعف. حتى جاء اليوم الذي انطفأت فيه تمامًا وهجها... عندها عمّ الظلام لفترة. بدأت الناس تبحث عن وهج بين العتمة دون أن تجدها.... لكن فجأة، أشرقت الشمس لأول مرة في القرية عندها ساد الدف والنور.

حينها فهم الجميع أن وهج لم تكن لعنة، بل كانت قدر ينتظره الجميع. ومنذ ذلك اليوم صار الاطفال يحتفلون سنويا بذكرى وهج في 21/ آذار... لأن النور لا يموت، بل يُورث.

في قلب صحراء العراق، حيث تذوب الشمس في الأفق كجمرة ملتهبة، عاش فتى يُدعى "ريان". ورث عن والده خريطة قديمة محفورة على جلد غزال، يقال إنها تقود إلى كنز مدفون منذ عهد البابليين. ولكن لا أحد عرف من قبل أن هذا الكنز محروس بسلالة غريبة من الكائنات التي لا تَظهر إلا عندما يكتمل خسوف القمر.

في إحدى ليالي الصيف، التقى ريان صدفةً بفتاة تُدعى ليلان، كانت تملك قدرة نادرة على قراءة الآثار ورموز لا تُرى إلا بالنار. وبعد أن اجتمعت خيوط القدر، قررا سويًا الانطلاق في مغامرة غريبة في رحلة تركبها العجب، حيث سيواجهان أسرارًا طُمست عمدًا منذ زمن بعيد، وأعداءً يعرفون كيف يخدعون سلطان الزمن.

لكن هل الكنز هو ما يبحثان عنه فعلًا؟ أم أن الحقيقة أعمق مما تسمح به الخرائط؟

عند وصولهما إلى واحة مهجورة قرب جبل سنجار، ظهرت لهما نقوش على جدران كهف حجري تحمل تحذيرًا قديمًا:...

- من سعى خلف السر، تاه في ظلاله.

وبينما كانت ليلان تُشعل النار لقراءة الرموز الخفية، خرج من داخل الكهف طيف لجندي بابلي يرتدي درعًا من نحاس مرسوم عليه نجوم من اسرار السماء. قال بصوتٍ خافتٍ:...

- الكنز ليس لكم... بل لمن يتذكر الحقيقة.

بدأت الرمال تتحرك تحت أقدامهما، وكأن الأرض ترفض دخولهما الكهف. وفجأةً، ظهر جهاز غريب بين جدران الكهف بعد ان أزحت ليلان الغبرة من فوقه..... جهاز يشبه ساعة شمسية، لكنه يُصدر نبضات خفيفة كلما اقتربت ليلان منه. بدا أن الجهاز هو المفتاح الذي يحدد موعد ظهور "الحارس النهائي" الذي يحرس الحقيقة، وليس الكنز.

وبينما الليل يسدل ستاره، ارتفعت من بعيد أنغام أشبه بالتراتيل القديمة الحزينة، تُرددها أرواح ترددت على المكان منذ زمن، وكأنها ترحب بمن جاء ليكتشف ما يجب أن يُنسى.

ركن القمامة

في الشرفة العالية، يجلس "أحمد" كل مساء، حاملاً دفترًا وقلماً، يراقب الشارع الذي لا يهدأ. لم يكن ما يراه ممتعًا، لكنه كان واقعا حقيقيًا. على بعد خطوات من ملهى ضيق الأبواب

تقابل الشرفة، كان معتوهان يحومان حول حاويتي قمامة كأنهما ينتظران وجبة مقدسة، كما ينتظر المؤمنون نورًا من السماء.

الأول كان ضخم الجثة ذو لحية حمراء كثة كأنها شعلة غضب، جسده متين وعيناه يبرقان بحذرٍ ذئبيّ. الثاني كان نحيفا جدا متوسط الطول، أضعف من أن يحمل كيسًا فارغًا لانكماش جسده من الجوع، لكنه كان نشطا، يتحرك بخفة تشبه الطقس المتقلب خلال الربيع والخريف، لا يُفهم ولا يُتوقع.

كانت طقوسهما تبدأ قبيل الغروب بفتح الأكياس، ثم نثر الفضلات في الشارع، نكش كل ما يمكن أن يكشف عن أثر حياة بشرية مرّت من هناك؛ حتى تغط المنطقة بالنتن والقاذورات. كأنهم في صراع مع عمال النظافة الذين يندمجون في لعبة عبثية مع هؤلاء المساكين، حيث يأتون صباحًا لتنظيف ما سيعود بذات القذارة مساء.

أحمد المراقب الذي يبدو مبهوتا مما يحصل، بقي صامتا وهو يتساءل: يا ترى من المعتوه هنا حقًا؟ هؤلاء الذين ينبشون القمامة، أم أولئك الذين يلقونها في الحاويات، أم المنظفون الذين يتبارون معهم، أم هو نفسه الذي يراقب بصمت ويسجل الملاحظات دون أن يتغير المشهد يوما؟

فتاة الكافتيرية

مضت عشر سنوات كأنها شتاءٌ طويل، لكنها لم تستطع أن تُطفئ وهج تلك اللحظة التي دخل فيها الكافتيريا حين رآها.

كانت تقف خلف المنضدة، تلك السمراء الفاتنة، تلمع بشرتها كأنها نُحتت من شمسٍ ناعسة ومن ملح البحر. شعرها منسدل في موجات سوداء تعكس ضوء الغروب، وعيناها... كأنهما ليلٌ هادئ يتّسع لكل الأسرار.

لم تكن تُشبه الأخريات، لا في ملامحها ولا في حضورها. كانت تمشي بخفة وهي تنثر الأنوثة في عين متتبعيها، هي تعرف تمامًا أن العالم ينتبه عليها حين تتحرّك، وتبتسم كمن يملك سِرًا لا يكشفه إلا لمن يرتقي بها. نبرة صوتها من أصوات الطيور، يطابق لحنا يُعزفه كمان فوق شاطئ البحر ليصل أبعد نقطة عبر الامواج المسافرة.

في تلك الليلة، رآها خارج المبنى، تلف جسدها بمعطف خفيف وتتحدّث بهمس على هاتف صغير، كأنها مشغولة بشخص غريب، حين لمحت عينيه ابتسامتها، لم تكن تلك الابتسامة عابرة، بل تخفي في طياتها زمنا قديما، وحبا مواربا نام طويلا بين الذاكرة والاحتمال.

والآن، بعد عشر سنوات، لا يزال يرى ظلّها يحوم في المكان يتوشح برائحة البحر، أو حين يسمع صوت آلة قهوة تتنفّس البخار. ربما اختفت من المكان، لكنها لم تختف من الذاكرة. لم تكن مجرد امرأة؛ هي اللحظة التي تنقسم فيها الحياة إلى ما قبلها وما بعدها

عهدُ الغروب

في إحدى الأمسيات وعلى ذات المرفأ، جلس طفلٌ صغيرٌ إلى جوار أبيه يتأملان الغروب بصمتٍ لا يُكسره سوى صوت الموج حين يغسل الشاطئ. ظل الطفل يتابع الشمس وهي تنحدر ببطء نحو البحر ثم همس:...

- بابا... هل الشمس تُحبّ البحر؟

ضحك الأب بحنان، ثم نظر نحو الأفق وقال:....

- بل تعشقه، يا صغيري. أنظر لها كيف تقبل ثغر البحر! كل يوم تعود إليه بعد عمل شاق تبذله لإحياء الطبيعة، لتقول له:- أنا هنا... والبحر ينتظرها بصبر كمن لا يعرف اليأس.

وبينما الكلمات تنساب، هبط نورس صغيرٌ من السماء، استقرّ على حافة القارب القريب. بدأ يُغرّد بلحنٍ جميل، وكأنّه يسرد حكاية ذلك العشق السرمدي لكل من لم ينتبه عليه.

نظرت الشمس نحو الطائر، فأومض شعاعٌ منها كالابتسامة، وردّ الطائر بنغمةٍ أكثر دفئًا، كأنّه قال لها:....

أعرف عشقكِما وأحمله في جناحيّ كل صباح وغروب. أُغني لكِ في المدن، في الريف، وحتى حين لا يراكِ أحد... أروي قصتكِ لمن نسي أن الحب لا يغيب.

هنا أغمض الطفل عينيه، وقال بخفوت:..

- أريد أن أكون مثل البحر... أظلّ أُحبّ وأنتظر، حتى لو غابت الشمس.

ابتسم الأب، وطبع قبلة على جبينه قائلاً:...

- حين تفهم معنى الانتظار، تبدأ أولى خطوات الحب.

وفي تلك اللحظة، اختلط صوت الطائر بأمواج البحر وضوء الغروب، ليُخلّد عهدًا جديدًا في سجلات الوفاء وهو يسرد قصة عشق الشمس للبحر الأزلية.

نبوءة الرماد

بعد أن لمح الرموز على جدار الكافتيريا، عاد صفاء مرّاتٍ عدة محاولًا كشف سر إسراء. لكنها في كل مرة كانت تتعامل معه وكأنها لا تعرفه، وكأن شيئًا ما يُعيد ترتيب ذاكرتها كل صباح. وذات يوم، بينما كان يتبعها في السوق، اختفت فجأة خلف ستارة تُباع بين التحف القديمة. دخل خلفها... فوجد نفسه في عالم آخر.

كان المكان نسخة قديمة من تاريخ بغداد، يعود إلى أكثر من 3000 سنة. صخب المدينة يشبه الحلم، ووجوه الناس تبدو مألوفة لكنها من زمن آخر. هناك، لمح إسراء بثوبٍ ملكي وهي تتحدث إلى جمع من الكهنة. أحدهم اقترب منه قائلًا:....

- أنتَ المفتاح، لكنك تبحث عن الباب الخطأ.

وبينما يحاول فهم هذا الزمن الموازي، بدأت جدران المدينة في الانهيار كأنها رسمةٌ تتفكك مع كل لحظة يقظة... ثم استفاق صفاء في الكافتيريا، والكل ينظر إليه.

- هل أنت بخير؟

سألته إسراء، لكن هذه المرة في عينيها لمعةٌ تختلف. شيء ما تغيّر... أو عاد لمكانه.

مع آخر نظرة من عيني إسراء، شعر صفاء بشيء يتخلل جسده... ومضةٌ من معرفةٍ لا تعود له، كأنها لغزٌ حلّ نفسه دون أن يطلب أحدٌ ذلك. وفي اللحظة نفسها، توقفت أصوات

الزبـائن، تجمّـدت الحركـة، وصــار المكــان وكأنــه لوحــة بانوراما جامدة معلّقة بين لحظتين.

علـى الطاولـة، ظهـر الكتـاب الـذي كـان مفقـودًا منـذ بدايـة الرحلـة- نبوءة الرماد. فتحه صفاء فوجد صفحة كتبت بنبض قلبه:...

- لكــي تنكشــف الحقيقــة، يجــب أن تمــوت الكذبــة التــي تعيش داخلك.

فــي هــذه اللحظــة، تغيــر كــل شــيء. أصــبح صــفاء يــرى وجــه إســراء الحقيقــي- كــائنٌ لا ينتمــي لعصــرٍ أو مكــان، بــل روح حارسة للبوابات العوالم. وقالت له:

- لقــد عبــرت الاختبــار، يــا صــفاء. أنــت الآن راوي الحقيقة.

اختفــى الكافتيريــا... واختفــى الــزمن. وأصــبح صــفاء يــرى كــل القصـص التـي رُويـت، والتـي لـم تُـروَ بعـد، تمشـي أمامـه كأطيـافٍ تنتظر من يكتبها.

هكـذا، لـم يكـن الكنـز ذهبًـا، ولا كانـت الخريطـة مجـرد دليـل. بـل كانـت الرحلـة ذاتهـا مـا صـنعت مـن صـفاء كباحـثٍ عـن السـر إلـى حاملٍ له.

حجر القمر

فـي زمـانٍ بعيـد، قبـل أن تُشـعل الكهربـاء مصـابيح الليـل، عاشـت قبيلـة تُعـرف باسـم بنـي السُـهاد، وكـانوا يقطنـون سـفح جبـل يُقـال إن قمتـه تلامـس نجمـة منسـية. كـل ليلـة، كـانوا يجتمعـون حـول نـارٍ تتحـدث بلهيبهـا، يشـربون الشـاي ويسـتمعون لأكبـرهم، الشـيخ ظاهر، صاحب اللغز القديم.

في إحدى الليالي قال الشيخ:.....

- مـن وجـد الحجـر، لا يحتـاج إلـى ذهـبٍ ولا ملـكٍ، لكـن لا يحتفظ به إلا من عرف سره...

تطلع الجميع إليه بذهول، فسكت وأشار إلى قِصته...

حُسـام، فتـى مـن القبيلـة، شـغوفٌ بالحكايـات، قـرر أن يبحـث عـن حجـر القمـر الـذي تحـدث عنـه الشـيخ. حمـل معـه تمـرًا ومـاءً، ومضـى باتجـاه الجبـل. فـي طريقـه، قابـل عجـوزًا تـزرع الريحـان في أرضٍ قاحلة.

قالت له:.....

- إن أردت الحجـر، فـأجبني: مـا الشـيء الـذي إن قسـمته، ازداد؟

فكـر حُسـام، تـذكر كـلام الشـيخ، ثـم ابتسـم وقـال: السـر... كلمـا تشاركه توسع.

هــزّت العجــوز رأســها وناولتــه مفتاحًــا مــن خشــب الزيتــون. قالت:...

- هذا يفتح بابًا لا يُرى، في كهف النسيان.

دخـل حُسـام الكهـف، وكـل خطـوة كانـت تُنسِـيه جـزءًا مـن رحلتـه. وصـل إلـى غرفـة فيهـا مـرآة، لكـن صـورته لـم تكـن تظهـر فيهـا، بل ظهر صبي صغير، يشبهه لكنه يضحك دون خوف.

سمع صوتًا يقول:....

- الحجـر لـيس شـيء يحمـل، بـل حالـة تُفهـم وتفسـر. انظـر جيدًا، من تكون وأنسى خوفك؟

حينهـا، أدرك حُسـام أن الحجـر لـيس ماديًـا. هـو أن تُفهـم نفسـك دون أن تهــرب منهــا. حــين خــرج مــن الكهــف، وجــد حجــرًا صغيرًا أمامه، بشكل القمر.

أخذه وعاد للقبيلة، وأعاده للشيخ ظاهر. قال له الشيخ:...

- لقــد حملتــه، فهنيئًــا لــك الحكمــة. الآن، حــان وقــت أن تروي القصة في جلساتك، لتعيش بين من سيسمعونك.

ظلُّ القمر

في قرية صغيرة تحيط بها الجبال، عاش صبي يُدعى نادر. كان يحب التأمل في السماء ليلاً، وخصوصًا حين يكون القمر ساطعا في اوقات السحر. كانت حياته باهتة، غامضة، لم يكن يشعر بسطوع كالقمر، بل كانت حياته مليئة بالعقد والحيرة والأسئلة.

في إحدى الليالي، لاحظ ظلًّا صغيرًا يتحرك على سطح الأرض كلما تحرك القمر. تبع نادر ذلك الظل مشيًا على الاقدام، سار في الحقول، تسلق التلال، حتى وصل إلى شجرة قديمة هرمة يجلس تحتها رجلًا مسنًا. عيونه لامعة وكأنها أخذت نورها من القمر، بل كانت تحاكي القمر ذاته.

قال الرجل لنادر:...

- كل من يتبع ظل القمر، يبحث عن شيء أفتقده... فعن ماذا تبحث يا نادر؟

أجاب نادر:....

- لا أعرف ... لكنني أشعر بضياع، ربما أبحث عن معنى ذاتي، أو عن شيء يجعلني أضيء كالقمر!

ضحك الرجل قائلا:......

- القمـــر لا يضـــيء وحـــده يـــا بنـــي، بـــل يعكـــس نـــور الشـــمس... اذهـــب وابحـــث عمّـــا يمنحـــك النـــور، عنـــدها ســـتعرف ذاتك ومن تكون...

لحظة الأمان

في ليلةٍ لم يكن فيها من الطمأنينة إلا ما يشبه النجوم البعيدة، وبينما الجنود يغطّون في نومٍ ثقيل، استيقظ هو على وقع هدوءٍ غريب، وكأن سكون الليل يصيح في روحه نداءً لا يسمعه سواه.

وقف في منتصف المعسكر، يحدّق في الفراغ، حين انشقت الهيبة عن نورٍ لم يره في حياته. تقدم منه رجل ذا هيبة، لا يشبه الناس في وقارهم، بل في حضوره كان شيءٌ من الجلال، كأنّ الزمن وقف ليستأذن مروره. كان قد حضر آمر الفيلق، عينيه تحملان رسالة فيها اطمئنان من الخوف أكيد.

ثم حدث ما أربك الوعي: أومأ برفق، قال للجندي:...

- اطمئن، لا تخف، أنت الحرب..

فجر الضوضاء في خاطره ثم انصرف كما جاء بلا ضوضاء، تاركًا خلفه شعورًا لم يُعرف من قبل، لا هو خوف، ولا هو فرح، بل هو مزيج من سلامٌ يُسكب في القلب كما يُسكب الروح في الجسد الملتهب.

لإنبهاره بالموقف لم يستطع النطق، لم يستطع السؤال. تجمّد في مكانه، كل حواسه انحنت أمام فرحة اللحظة. لم يسعفه لسانه أن يسأل عن الإجازة والسفر، كلها قادمة مع بدأ حياة

جديدة....، نهاية الحرب حدث عظيم ينبأ بالمستقبل المشرق، خانته الكلمات في الحضور، وبقي المشهد أكبر من لسانه وتفكيره. لم يكن حلما قط، بل كانت رؤيا صادقة وأكيدة.

بعد اللقاء، سأل أحد الفضلاء عمّا رأى وسمع، فجاءه الجواب كالبرد الذي يروي ظمأ القلب:......

- كأن الوجود كله قد انحنى لتلك اللحظة ليبوح لك بسرٍ عظيم، وكأن الآمر لم يزر سوى شخصك، خُصصت بطمأنينة لا تُمنح لكل البشر... وما كان اللقاء عبثًا، بل إشعارٌ بأن لك مقامًا لم تدركه بعد.

عاد إلى نفسه، عاد إلى أسئلته التي بقت في صدره. لكنها لم تكن كما كانت... لم تعد تبحث عن جواب لكثير من الاسئلة التي تدور في خلده، أيقن بأن الإنسان في الأمور الكبيرة مسير أكثر مما يكون مخيرا فيها، بل صارت الأقدار ترنّ في القلب كنداءٍ ينتظر لحظة التجلي القادمة.

ساعة يقين

كان الليل ينقضّ على المكان كوشاحٍ من قلقٍ وترقب، والرصاص يتطاير فوق الرؤوس، مرعبًا كلّ نسمة وكلّ فكرة. لم يكن الموت بعيدًا قط، بل كان جاثمًا على سفح الساتر، يتربّص بنا ويتشمّم الخوف في الأجواء والعتمة. وبينما لبثت مناظر الجثث المبعثرة في العراء في الذاكرة وهي تستوقظ الرعب في الداخل، أنتبرني شعور بأن الروح قد تجفّفت من شدة التوتر.

في لحظة انطفاءٍ الوهج في الداخل، انبثق نور حلم في الأفق، بل لم يكن حلما بل رؤيا طفحت في أعماقي... جاءتني كرجل ليس ككلّ الرجال. بهيبته، مرصعة بثوبه الأبيض، وعباءة مطرّزة بخيوط مذهبة، وشال أخضر متحولق حول العنق كرمزٍ للحماية. عرفته من النظرة الأولى كمن له صلة قديمة به، أنه الإمام أبو الفضل العباس عليه السلام، دون شكّ أو تردد.

نظر إليّ بعينيه الواسعتين، وتحدث لي بهدوء مهيب، قال بكياسة:....

- لا تقلق، اطمئن تمامًا، فأنت في حمايتي، لن يصيبك مكروه قط.. لكنني أعتب عليك قلة زياراتك لنا.

كانـه سـكب علـيَّ دلـو مـاء بـار أطفـأ حريـق القلـق فـي داخلـي، كـان كلامـه أشـبه بمـاءٍ زلال سـقى بـه جـذور يابسـة، أشـعرني بالأمـان تسـلّل إلـى جسـدي. اسـتفقت مـن النـوم مبهـورًا، مفزوعـا، أبسـمل بـالله وأحوقـل – بسـم الله ولا حـول ولا قـوة إلا بـالله العلـي العظـيم، موقنًـا أن فـي أحلـك لحظـات الخـوف والقلـق، هنـاك مـن يرعاني من عالمٍ أوسع من إدراكي، وأقرب من نبض قلبي.

ومنـذ تلـك الليلـة... لـم تعـد زيـاراتي إلـى المقامـات المقدسـة مجـرد طقـوس، بـل أصـبحت لقـاءات حميميـة بـين الـروحِ والمقـام، والذكر مع اليقين.

حين ايقن البرق الحقيقة

كنت في الثالثة عشرة، فتى يافع يحمل ذكاءً لامعًا ولمعةً باهرة في العين، كنت كمن يقرأ ما وراء الظاهر دون الآخرين. وفي عصر يوم قائظ من شهر آب، كنت واقفا أمام باب الدار مع ابن الجار، وإذا فجأة تظهر سحابة صغيرة بيضاء تجري بسرعة مهولة، تحمل رعدا وبرقًا وبردًا ومطرًا وكأنها مفرقعات جوية، وكأنها تدفع من قبل قوة جبارة لهول سرعتها وغزارة مطرها وبردها، يخترقها ريح لفت الاجواء بعصفها، جزلت المنطقة بثوان فقط وكأنّ هناك من يأمرها أن تدرك منطقة ما للإغاثة.

لكن الأعجب لم يكن في زخها وسرعتها؛ بل في تلك اللحظة التي شق فيها برقٌ عظيم صدر السماء، ليخط أمام عيني اسم النبي محمد ﷺ بخط ديواني نوراني من قمة الغيمة ولقاع الأرض. لم يكن ذلك حدثًا من الطقس أبدا، بل تجلّيًا غيبيًّا غيّر مسار الإدراك لديَّ إلى الأبد.

منذ تلك اللحظة، منذ تلك اللحظة بدأت أنظر لعالم الغيبيات نظرة إجلال رسخت الإيمان بداخلي دون تعليم، وبدأت أشعر أنني أعيش في طبقة من الوعي لا يدركها كثيرون. بدأت ألاحظ إشارات لا تُرى بالعين: شجرة تتحرك ضد الريح، كلمات تظهر على سطح النهر، ورؤى تنطق من الحلم كأنها وحي داخلي يشرع بالصراخ.

في المدرسة، كان الشك يتسلل إلى العقول، وموجة الإلحاد تصعد بين المراهقين، لكن يقيني لم يتزحزح قيد شعرة. كنت أبتسم أمام المشككين...

ثم جاءت ليلة التجلي. كنت على سطح البيت وحدي، والسماء تنصت للبشر. رأيت النجوم وكأنها ترسم راية بيضاء تتوسطها كلمة الله. شعرت أنني أُخترت كشاهدٍ على زمنٍ يختلط فيه الصراخ بالإيمان.

ومنذ ذلك اليوم، لم أعد أبحث عن الإشارات... لأنني صرت أنا الإشارة.

اختبار الرياضيات

قبل اختبار البكالوريا، وقف مروان تلميذ الصف التاسع أمام بوابة قدره يرتجف قلبه بقلق، يخرق صمت ساعات القاعة. ورغم أنه كان يُعرف بين أقرانه بأنه أفضل التلاميذ في مادة الرياضيات، إلا أنه تسلّلت مخاوف خفية إلى نفسه نتيجة تسرعه البديهي وطبعه العجول في كل شيء، العجلة نعمة ونقمة في آنٍ واحد؛ حيث يدرك ذاته بأنه لا يمكث في قاعة الاختبار أكثر من نصف الوقت المحدد، وهذا الطبع كان يؤرقه.

في الليلة السابقة للاختبار كان قد حلمَ حلمٌ فريد من نوعه. رأى نفسه جالسًا في قاعة الاختبار، وهو يتفحص ورقة الأسئلة، يكتب بإجابات دقيقة كأنها مملاة عليه من ذاكرة خارقة. وحين استيقظ، لم يتبقَ في ذاكرته من ورقة الأسئلة سوى السؤالين الأول والثاني. حاول استرجاع بقية الأسئلة، لكن دون جدوى. فقرر أن يكتب السؤالين ويحلهما بإتقان، كما لو كان يستعد لمعركة مصيرية.

وعندما التقى بصديقيه المقرّبين، عباس منشد ومحمد كلمراد، قبل الدخول إلى القاعة، حاول امالتهما إليه، سرح لهما وشاركهما تفاصيل الحلم والأسئلة التي تذكّرها، إلا أنهما لم يعيرا له أهتماما. لم يكتفِ بذلك، بل حدّث عددًا من زملائه عند بوابة المدرسة، آملاً أن يعتبروا الحدث نذيرًا أو فرصة.

لكنهم قابلوا كلامه بالسخرية والاستهزاء، واعتبروه مجرد توتر لا أكثر.

ما أن دخل قاعة الامتحان وهو مثقلًا بعبء التحدي، وقلبه ينبض بما يشبه الترقب الأسطوري، وما إن وُزعت أوراق الأسئلة على التلاميذ، حتى دهشة من وقع المفاجأة، لم يستطع إخفاء ما في داخله؛ كانت الأسئلة ذاتها التي رآها في الحلم بالتفصيل والتطابق المذهل في الصياغة والمضمون. ارتسمت على وجهه ملامح علامات الصدمة والفرح معًا، وكأنه أمام لحظة خارقة للواقع.

في تلك اللحظة، شعر أنه يملك شيئًا فريدًا يختلف به عن الآخرين، شيئًا لا يُرى، لكنه يُشعّ من داخله. انتشى بإحساس الفخر، وتملكه إعجاب عميق بنفسه، كأنّ الحلم كان رسالة خفية أو اختبارًا لقدراته المتجاوزة للمألوف. لم يعد الحلم حلمًا، بل تحوّل إلى فصلٍ من قصة واقعية، وضعته في مكانة مختلفة، أمام نفسه أولًا، ثم أمام من ظنوا أنه يهذي.

أجاب عن الاسئلة بافتتان، خرج من القاعة أول التلاميذ، انتظر زملائه، كانت اجاباتهم متفاوتة، ولكن أحدهم قال له:...

- يا مروان ارجو أن تحلم في اختبار اللغة الانجليزية. ههههه.

ومن تلك اللحظة، أدرك أن أحلامه ليست مجرد خيالات عابرة، بل امتدادٌ لوعيه، وانعكاسٌ لما يُمكن أن يصير عليه، مثلما صار يظن به رفاقه.

بطاقة السكن

حين عدتُ إلى العراق، لم تكن أولى العقبات في الطرقات أو في تفاصيل الحياة اليومية، بل كانت متجذرة في عمق الدوائر الحكومية، تلك التي لا تزال تطلب من المواطن بطاقة السكن والهوية الموحدة تحت ذريعة "الدواعي الأمنية"، بينما الحقيقة تكمن في جيوب الموظفين التي لا تمتلئ إلا برشوةٍ تُدفع على استحياء أو قهر.

لم أكن أعرف كيف تُستخرج تلك الوثائق، فقد تغير شكلها ومضمونها وطريقة التعامل بعد سقوط النظام في 2003، وكان عليّ أن أبدأ ببطاقة السكن أولًا، مستندًا إلى نصائح من سبقني في هذا المضمار....

كنت قد نزلت ضيفًا عند عديلي لفترة أسبوع، وهناك عرّفني على صديقه فراس، وهو رجل أربعيني، نصّاب محترف يعرف الطرق الملتوية كما يعرف اسمه، وكأن بينه وبين تعقيدات الدولة اتفاقًا على جلدي.

اتفق معي على إنجاز الإجراءات كاملة مقابل 250 دولارًا، تمر خلالها المعاملة في متاهة دوائر الأمن والاستخبارات والإرهاب والمختار، وكل منها يطلب "موافقة" لا تُمنح للمواطن إلا مقابل رشوة آنية. وفي يومٍ واحد فقط أنجز فراس

كــل الإجــراءات الأمنيـــة بسلاســـةٍ مريبـــة، ثـــم ســـلّمني الأوراق وقال:.....

- تكملـــة الاجـــراءات الباقيـــة عليـــك، راجـــع مركـــز الشـــرطة ودائرة الإسكان.

ذهبـتُ لمركـز الشـرطة، فقـالوا: "راجـع دائـرة الإسـكان". وعنـدما راجعـــت الإســـكان، قـــالوا: "ارجـــع للشـــرطة ليقومـــوا بـــالجرد والاســـتطلاع". أصـــبحت كـــالمكوك بـــين الشـــرطة والأســـكان والمســافات الطويلــة وعجــلات التكســي. عــدت للشــرطة مخــذولًا، فقال المقدم:......

- أحضر شاهدين من الجيران.

- هذا عقد الإيجار يثبت أنني أسكن في الزيونة...

فردّ ساخرًا:....

- العقـــود غيـــر مصـــدقة، يمكننـــي أن أجلـــب لـــك عشـــرات منها.

عدت للدار مع نهاية الدوام دون أن أبدأ حتى أول خطوة.

طرقـــت بـــاب الجيـــران، طلبـــت مـــنهم بطاقـــة ســـكن لأســـتخرج بطـاقتي، فقالـت المـرأة: "نحـن سـكان جـدد، لا نملـك بطاقـة". أمـا الجـار الآخـر، فقـد عـاد حـديثًا مـن تركيـا ولا يملكهـا أيضـًا. بـدت المهمة مستحيلة.

في صباح اليوم التالي، قصدت محمد صاحب دكان الإنشائية، كنت قد اشتريت منه مكانس للبيت. سألته: -....

- يا محمد، الشرطة تريد شاهدين من أهل المنطقة لاستخراج بطاقة السكن، وأنا لا أعرف أحد.

- ولمَ كل هذا؟ اذهب للمختار، هو يحل العقدة.

اتصلت بالمختار، عرفني من اسمي، فقد مرت عليه أوراق المصادقة الأمنية، وقبض من فراس مبلغًا مقابل ختم الأوراق. قال لي:.......

- تعال عندي.

طلبت منه إرسال الموقع، فبعثه عبر الهاتف، واستأجرت تكسي وذهبت إليه.

استقبلني عند الباب، وسألني:......

- هل رشيت المفوض؟

قلت له:.....

- كلمني أمام الضابط والمراجعين، فخجلت أن اصارحه علنًا.

- خذه جانبًا وقل له: سأعوض تعبك.

حينها اتصل بالمفوض علي، شرح له القصة، ودعاني لمراجعته صباح اليوم التالي. ذهبت إليه، فوجدته قد أصبح صديقًا وفيًّا، مخلصًا في عمله، وكأنه أحد أقربائي. أخبر العقيد أنني من طرف المختار، أي أنني ممكن أن "أدفع لهم".

خرج معي للكشف، وعند دخوله الدار اتصل بالمختار، الذي أرسل له اسمين وهميين كشهود من الجيران. بصمتُ ووقّعت مكان الأول، وابني بصم ووقّع مكان الثاني. جرت الأمور بسلاسة مقابل خمسين ألف دينار، بذلك المبلغ اشتريت مركز الشرطة، من العقيد إلى المفوضين والشرطة.

تم الكشف، وأُرسلت المعاملة إلى مديرية الإسكان في السعدون، وهناك سارت الأمور دون تعقيد. أخيرًا، صدر كتاب لمركز الشرطة يثبت استحقاقي لبطاقة السكن، واستلمته مع نهاية الدوام.

عدت في اليوم الثالث لمركز الشرطة مع صورتين، وسارت الإجراءات بسلاسة حتى وصلت إلى المفوض عباس المختص بكتابة معلومات البطاقة. سألني:...

- هل تريدها بخط عادي أم مميز؟

- أكيد بخط مميز.

خطّها بشكل مبهر، ثم قال ليك....

- استنسخها كي لا تفقدها، دع صاحب الاستنساخ يغلفها، ولا تنسَ أن تعطيه مبلغًا معينا، قل له: هذه هدية للمفوض عباس.

هكذا استخرجت بطاقة السكن، التي كلفتني قرابة 350 ألف دينار أي قرابة مئتين وعشرين دولارا. فماذا يفعل الفقير أمام أنياب الوحوش السائبة في الدوائر الحكومية؟ كيف له أن ينجو من شبكة الفساد التي لا تترك له خيارًا سوى أن يدفع، أو أن يُدفن تحت ركام الإجراءات؟

مصباح الحياة

فـي ظهيـرة سـاكنة، كانـت مسـتلقية علـى سـريرها، تتأمـل شـريط اختبـار الحمـل بـين يـديها، كأنهـا تقـرأ فيـه طالعًـا غامضًـا، يحمـل بشــارة مــن عــالم آخــر. عيناهــا تســتقران عليــه، وقلبهــا يخفــق بأسئلة لا صوت لها.

همست لنفسها، كأنها تخاطب روحًا لم تتجسد بعد:

– يـا تـرى، أأنـتَ ولـدٌ أم بنـتٌ؟ أنـا أتمنـاكِ زهـرةً، وأبـوك يتمنـاك فارسًا...

ثـم أغمضـت عينيهـا، فتـراءى لهـا الشـريط كمصـباح عـلاء الـدين، يتــوهج بــين أناملهــا، ومــا إن لامســته، حتــى تصــاعد منــه دخــان خفيـف، ومـن بـين خيوطـه ظهـر طيـف صـغير، يـدور حولهـا، يبتسم، ويهمس بصوت طفولي:

– أهلاً بكِ يا ماما... كيف حالك؟ أحبك...

ابتسمت، وراحت ترد عليه بخفة:

– هذا ليس أنا... هذه روحي دخلت غرفة خيالك، استشعرت خوفك وقلقك، فارتبطت بك. أردت أن أهدئ من روعك، وأبدد عنك وحشة الوحدة ومخاوفك الجافة. لا تقلقي، أنا بخير.

دمعت عيناها، وهمست:

– فدى روحك، كيف حالك؟ هل أنت بخير حقًا؟

- انا بخير عندما تكوني بخير. لا تشغلي بالك بي، عيشي حياتك بطبيعتها، اعتني بجمالك ونفسك، اهتمي بتغذيتك وبتكويني. لا تهمّك أمور الدنيا...

– هههه، أنت ذكي!

رد بثقة طفولية:

– جدًا! ألم تقرئي قوله تعالى: "فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ..."؟ خرجت من ظهر أبي، حاملاً جيناته، ثم دخلت نفق الحياة، وجدت أمامي بيضة، طرقت بابها، فُتح لي، دخلت، وأخذت من جيناتك، أضفتها إلى جينات أبي، فصارت لي مركبًا يجري بي في قناة مائية، رحلة نهرية ساحرة...

ضحكت وقالت:

– نعم يا حبيبي... إنها قناة فالوب.

هز رأسه وقال:

– لا أدري من أين تخترعون هذه الأسماء! لكن يبدو أنك تعرفين القصة...

– أحب أن أسمعها منك.

– هذه القناة أخذتني إلى حوض كبير، تخيلته غرفة مكيفة، دافئة، فاستقريت بها.

– تلـــك الغرفـــة تُســـمى الـــرحم يـــا حبيبـــي، رحـــم الأم، حضـــنها الـــداخلي، بيتـــك الأول، حيـــث تنمـــو وتكبـــر. ســـأحتمل عبثـــك فـــي رحمي، حتى تخرج، أراك بعيني، وأحضنك بذراعي...

– وأنا بشوق لرؤياك يا ماما، لألعب معك.

– أحبـك... أنـا سـعيدة بوجـودك فـي حيـاتي، لقـد أزحـت عنـي هـم الوحدة وعناء الغربة..

ثم تلاشى الطيف، تاركًا خلفه دفئًا في قلبها، وهمسة أخيرة:

– إلى اللقاء يا أمي سأطل عليك بين الحين والآخر...

- الى اللقاء....

النهاية

للكاتب عشرات الكتب بين رواية ومجموعات قصصية

المجموعات القصصية:-

1. فرصة هدف
2. عصير الرمان
3. لغة العود والحجر
4. زيارة طبيب
5. كرستال
6. الانتقام
7. صياد النساء
8. المجموعة الكاملة الجزء الأول
9. المجموعة الكاملة الجزء الثاني

مجموعة الروايات:-

1- عطر خلف الستار
2- فتاة الكاظمية
3- جنوح النفس
4- عبير
5- شذرة العقد
6- طريق الجحيم
7- غراب البين
8- عقاب الذات
9- الاقداح المتكسرة
10- عواصف الجنين
11- فواصل الشوق
12- حين اتقدت الرأفة
13 - الرؤيا

في لحظة خاطفة كانت قد ألتفتت بنصف دورة إلى جهة القطة، وكأنها هي الاخرى تبحث عن ذاتها في هذه الاجواء، عن شخص مجون يسلك لها دربها. ما أن نظرت تجاهها؛ حتى شنفتها بنظرة فيها ألف إنَّ وإنَّ....كان قد زاغ بصرها في مفاتن ووجه القطة، مثلما زاغ بصري في تقاسيم وجهها دون أن أجهد ذاتي، وكأنها بالتفاتتها هي الأخرى فتنت بمفاتن القطة، كأنها وجدت في الصالة من تنافسها على المحفل، لتلتمس حجم الفارق بما تمتلك من فتن وما يغشي القطة من ألق وبهاء...

ما أن التفتتْ يمينا حتى بان لي عبثية وعشوائية تقاسيم وجهها، لمست به قبح ظاهر ومنظر بشع، ظهر وجهها عبارة عن شرشرة ألوان دون تنسيق، وكأن الرأس لا يخص ذلك الجسد القسيم المشبع بالفتن. ملامحها عبارة عن أنف مخروطي كبير، مقدم، وفم مشرط دون شفاه بارزة. لها عينان زائغتان في كوة محجريها لصغرهما، يشيح في حنكها الايمن وشم أو خال أو نكْتَةٌ سوداءُ كبيرة لا توائم تلك الملامح إطلاقا.